دار الشروق

عبد الحكيم قاسم

الأعمال القصصية

الأعمال الكاملة

دار الشروق
عبد الحكيم قاسم
الأعمال القصصية
الأعمال الكاملة

عبد الحكيم قاسم

الأعمـال الكاملـــة

الأعمال القصصية

دار الشروق

٢٠١١

الطبعة الأولى

رقم الإيداع ٢٠٠٩/٣٧٠٨

ISBN 978-977-09-2779-6

٨ شارع سيبويه المصري

مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر

تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢) +

email: dar@shorouk. com

www. shorouk. com

الأشواق والأسى

قريتي

اسمها البندرة مركز السنطة غربية. قد تجدون الاسم ثقيلا، لكنه ـ لو تعلمون ـ كان كل متاعي حينما بدأت أعرف السفر إلى المدينة. كنت أقوله للناس الذين ينظرون إليَّ مستفسرين. كنت أقوله مترددا هامسا، لكنني كنت أقوله، ودائما كان الناس يبتسمون ويعلقون:

ـ فلاح...!!

عم الشيخ بكر مؤذن المسجد الجامع يقول:

ـ بندرة.. يعني بندر.. بلدنا كانت زمان بندر كبير..!

ويؤكد أنها كانت ميناء عظيما على فرع النيل. لكن النهر تزحزح تاركا القرية للنسيان. وإذا أبدى السامع دهشة من حديث عم بكر، استشهد أمامه بما حدث عند حفر المصرف الكبير. إنهم عثروا على بقايا جدران حجرية، وأوان فخارية، وقطع عملة برونزية، ألا يدل هذا على أن بندرا كبيرا كان السلف الأول لقريتنا ذات الدور المبنية بالطوب الأخضر. يسكت السامع مستسلما أمام حجج عم بكر وحماسه، وعم بكر يبتسم حينئذ ويهز رأسه متباهيا:

ـ البندرة.. غندرة.. البندرة غندرة..!

على رصيف محطتنا لافتة أسمنتية كبيرة مكتوب عليها اسم البلد. وإذا وقف الواحد على الرصيف ومد بصره بعيدا فسيجد القرية متكومة على نفسها قابعة في منخفض من الأرض، وعلى جانبيها من الشرق والغرب ضفتان من الحقول مرتفعتان عنها ارتفاعا كبيرا. وسيجد الواحد مستنقعا شاسعا يكتنفها من ناحية الشمال. هل يدل على فرع النهر الذي مر من هنا يوما والذي جف وتحول مجراه، والذي تقع قريتنا في قاعه القديم..؟

مرة كان عم الشيخ بكر يدير الطنبور ليسقى أرضه، وإذا به يتوقف. أطرق قليلا، والماء المتدفق من فوهة الطنبور إلى القناة انحسر عن سيقان أربع لعم بكر وزميله الجالس أمامه يدير معه الطنبور. قال عن بكر لزميله الجالس قبالته بعد تفكر قليل:

ـ هل تعلم.. نحن الآن ندير طنبورنا في شباك بيت العمدة..!

فبيت العمدة أعلى البيوت، وغيظ عم الشيخ بكر أكثر الغيطان بعدا

عن الدور.

يرحمه الله عم الشيخ بكر. لقد كف بصره، لكن بقيت له معرفته بالأشياء جميعها، حتى لقد كان يوقع بإمضائه عند الصراف.

يرحمه الله رحمة واسعة. كان يقول عن قريتنا إنها ثقيلة الهواء، والرجال حوله حائرون غير فاهمين، لكن وجهه الخراب يعطي الكلمات معنى أليما. قريتنا مدفونة في منخفضها هذا تتجاوزها الرياح الناشطات وتتركها زخماء كئيبة أيام الصيف، ثقيلة بالملل الممض. الظهيرة تكبس على الصدور بالصهد، وأبخرة المستنقع. أين المفر..؟ الناس يرقدون عند أقدام الجدران. الكلاب تلهث مدلاة الألسن مغمضة العيون.

وعندما تميل الشمس يخرج المرضى إلى طراوة العصر. كم تدمث العلة طبائع الرجال. يسلمون في صوت خفيض بالود والمرض. نحيلو السيقان والسواعد والأكتاف، منتفخو الكروش، صفر العيون، جلود وجوههم مسودة مبقعة. في قريتنا عشرون مريضا بالاستسقاء. عم بكر يقول:

ـ إذا تلف الطحال... تلف الرجل.

يرحمه الله كان ممرورا تبقى كلماته في القلب. كانت مقلتاه المطموستان حافلتين بالعمى، وملامح وجهه مشلولة بقهر لا يوصف. يقول عن الأحشاء:

ـ الأحشاء تناول بعضها بعضا.. مثل قواديس الساقية.. إن تلف واحد.. فلا حول ولا قوة إلا بالله.. لا تجدي الكتابة.. لا تجدي الحجابة..!

وإذا يقول تلتوي شفتاه سخطا، وإذا تلتويان تكشران عن ثنيتين تراكم على جذورهما اصفرار الجير. لكن النساء كن يمشين إلى كاتبي الأحجبة، وكن يذبن الأحرف المكتوبة بصبغة الزعفران على قلوب الصحاف البيض، وكن ينثرن الماء على العتبات والأركان والزوايا المعتمة.

فالدور في قريتنا كالجحور. إذا تنحدر من العتبة إلى وسط الدار تتسع حدقتا عينيك، تتلمسان الضوء في العتامة. تكبس عليك الرطوبة العفنة من ركن الزير، ومن أصول الجدران الطينية. ومن السقف تتدلى ذوائب الحطب جافة متهرئة. من القيعان تتهادى أرتال رائحة خاصة، وتصك السمع أصوات غريبة مبهمة، رتيبة عميقة أو هي مرتجفة واثبة. ربما من مثوى البهيمة في الزريبة، أو من

أخنان الأرانب أو أعشاش الدجاج أو بناني الحمام تأتي تلك الروائح والأصوات.

وإذا أردت أن تجوس في الدار لوجدت سككا تنسرب بك إلى أركان تكاد تظلم تماما وتفعم بالنتن والغموض. والأغلب أن تقبض يد على ذراعك تحوشك، تجنبك هذه الأركان. فهذه الأركان تسكنها مخاوف ذات أسماء، ثعابين، أو حشرات غريبة. أو حيوانات عجيبة، أو عفاريت. والناس الذين ماتوا هنا تركوا بصمات حيواتهم على القلوب والعقول. وهم مازالوا هنا أرواحا تدور وتتكلم وتكمن وتتربص. الرجال في الباحات على رءوس الحارات، وفي هذه الدور النساء. عصائب سود. دبيب في نواحي الدور لا يكل. غناء بصوت كئيب. بكائيات ورثت جيلا بعد جيل، مثل عقود العقيق، وخلاخيل الفضة.

لكن في ساعة معلومة من يوم معلوم بين أيام الجمعة السبع ترتعش القلوب شوقا، وتنشط النساء للاستحمام. يسيل الماء الساخن من أباريق الفخار السوداء على أثداء بيضاء من كثرة ما خزنت تحت الثياب الثقال، من كثرة ما اشتاقت للحب. وبعد الحمام تلبس النساء الأحمر والأخضر والأصفر، ثم يخفينه تحت طيات الجلابيب السود. تخرج النساء زرافات من قيعان الحارات إلى محل الزار. هناك ترقصن رقصات وحشية على وقع دفوف راعدة حتى تسقطن هامدات. حينئذ تسيل دماء ذبائح الفداء، حمامات مزغبة أو فرائد بط سمراء لامعة الريش.

الرجال في الباحات على رءوس الحارات يطرقون واجمين. دفوف الزار البعيدة زلزال لا يهزك في مكانك لكنك تحس به من بعيد مروع القوة، ماشيا في العروق إلى القلوب. يا ستار.. في المساء سيعود هؤلاء الرجال إلى الدور، إلى النساء المخضوبات الأكف والكعوب بدماء ذبائح الفداء. تتجمد ملامح عم بكر، وتتجمد ملامح وجهه وهو يقول عن النساء:

ـ سود العصايب..!

لكنك لم تر عم بكر وهو خارج من قاع الدرب مطمئنا مشرقا على حمارته الصغيرة العارفة، سارحا إلى حقله الذي يقع عند آخر الزمام. القلب يسمع خفقات الحوافر في التراب الناعم، والأعضاء تستريح لخضخضة السير الوئيد، والوجه المجدور ينعم بإشعاعات الشمس الصبحية ولمسات النسمات الباردة. الشوق مبهم. هو حيرة، هو هم، أو هو فرحة مخنوقة.

كف البصر، لكن في قلب عم الشيخ بكر لا يزال الصبح يشرق، ويغسق الليل، وتقف الجميزات القدامى ـ كما كانت أيام نعمة البصر ـ على شطآن القنوات التي تتقسم امتداد الزمام.

يرهف عم الشيخ بكر الحس للذع البرد ولفح القيظ. يرهف السمع لوشيش الريح في هامات الشجر. الأنواء تتقلب على الحقول الممتدة، ومع تقلبها تتقلب المخاوف في الصدور. الرجال منحنون على اسمرار الثرى وأكف الفئوس دءوبة، والشفاه هامسة، يارب الزرع والحصاد، أنت تعلم، العيال يعيشون على المحصول.

يعرف عم الشيخ بكر خطوات فلاح مقبل عليه صاخبا بالسلام. يعرف عم بكر الرجل إذ يقبض على معرفة الحمارة يوقفها، يعرفه إذ يتكلم كأنه يقول:

ـ البنات يبصبصن من الشقوق.. والبرد يتربص به..!

يطرق عن بكر قليلا. يتشرب قلبه القلق الأليم. يقول مترنما:

ـ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو..!

يطلق الفلاح الحمارة تمضي حاملة عم بكر الصامت المتكدر الصفاء بالغيوم.

وأنت لم تسمع عم الشيخ بكر إذ يؤذن للصلاة من يوم الجمعة. يبدأ صوته رقيقا خفيفا، ثم يتحول قويا دءوبا متواصل الموجات. ينسرب بين الدور، يسرح إلى الحقول، يصل إلى القلوب في دائرة قطرها ألف ذراع. يجمع الناس. يلمهم إلى المسجد الجامع. يلقي الرجال من أيديهم ما يشغلهم من فئوس أو مقاود بهائم، يضعون نعالهم تحت آباطهم ويهرعون إلى المسجد الجامع. صوت عم بكر لا يكل، يظل مترسلا ملحاحا والناس يسرعون ويسرعون. ما يكاد عم بكر يختم الأذان مصليا على النبي حتى يكون الناس قد اكتملوا تماما جالسين على الحصر حول عمد المسجد الأربع الضخام.

صوت القارئ الذليل يرف بآيات سورة الكهف في جنبات الجامع، بطانة رثة لصوت عم بكر الطائر في سماء القرية منطلقا من فوق سطح المسجد. لكن الصوتين معا متفاهمان متبادلان يصنعان تناغما يملأ القلب وجدا وأسى.

كنت أحتفظ بأحسن جلابيبي لصلاة الجمعة. يومها كنت أستحم. أسير مع الناس نحو المسجد ذائبا أدبا. أتأمل قدمي النظيفتين في

شبشبي. أجلس على الحصر بين صفوف المصلين مطمئنا في عتامة المسجد الخفيفة الندية وبين الناس الطيبين الهامسين بالتسابيح. الأذان والتلاوة تغمر القلوب فتهمي بالاستغفار. قلبي مشوق إلى لحظة يتدفق فيها المصلون خلف الإمام في صوت مثل نهر هادر:

ـ آمين..

لحظة خارقة العمق والجلال ينسحق تحت وقعها المدمدم إحساسي وترتجف في أعضائي فرحة تحلق حول صوت عم بكر المتميز في نهر الأصوات الزاخر.

بعد انقضاء الصلاة يخرج عم بكر. وجهه مطبوع في قلبي. جبينه مترب من أثر السجود. ملامحه حالمة قريرة. عيناه المطموستان خرساوان كخرزتي عقد رخيص. لا ينظر، كأنما أغمض عينيه أنفة. يسعى لا يحذر ولا يرتاب ولا تخبط يداه في الهواء خبطا متلمسا باحثا عشوائيا، بل تلزمان جنبيه في سكون، وشفتاه تلتويان في ألم مبهم واهن كظيم.

في العصر تلعب النسمات في الباحات لعبة عفرة، ترقص في شقاوة بالوريقات الجافة. يجري العيال يطاردون كلابا ذليلة العيون. الرجال يسندون ظهورهم إلى الحيطان. يحدقون في الامتداد الناشط بحياة متخبطة عاجزة حزنانة. يضم الرجال بالأذرع المتعبة سيقانا قائمة مركوزة، يردون السلام محاذرين وعم بكر يسأل:

ـ من جاء... من راح..؟

فالشارع قد يسفر عن قادم غريب جسور الخطوة جهم مصعر الخد يرشق السلام في العيون الكسيرة. والشارع قد يسفر عن قادم غريب متردد دمث دهش العينين يقرئ السلام في رجاء. الناس في الحالين يلبون السلام طيبين وخائفين.

يسأل عم بكر: من جاء؟.. في أى دار يحط الرحال.

تنزعج المخاوف في القلوب كذبذبات محبوسة، وتبقى الوجوه جامدة لا تبين إذا تتعلق الأبصار براجل يحمل سلته الصغيرة، وخلفه تنكسر أشباح المودعين حاملين باقي المتاع يكفكفون الأسى والإشفاق. تبقى الوجوه جامدة، لكن عم بكر يسأل ملهوفا. حينما يسمون له المسافر يهتف مشجوج الصوت ثاكلا:

ـ يا ولداه...

ما أقصى أن ينفرط من حزمة القلوب قلب. تتوه به الطرقات في المفازات ويبقى مطرحه خاليا في حلقة الرجال..؟

حينما حملت سلتي مسافرا توخيت أن يكون ذلك في قلب الليل بعد أن لملمت القرية ناسها إلى قيعان الدور، دخلت الباحات إلا من خطو أعمى يتعثر في تلافيف العتامة. لم أكن أريد أن أمتحن بنظرات الرجال الجالسين عند أقدام الحيطان، ولا بهتاف عم بكر الباكي القعيد.

ليلتها صعد بي الطريق إلى المحطة والقرية خلفي تنزل وتخور، ونجمات رائقة تترقرق على عرائش الحطب. والقلب يخفق وئيدا مثل إيقاع أقدام عم بكر الجلدة الحافية تصعد الدرجات إلى سطح المسجد في صمت الهزيع الأخير من الليل. يهمس في الفؤاد دعاء الفجر إذ يترسل في الخلاء الندى.

* يا من يرى حالي ويعلم غربتي *

الصندوق

وكانت كل يوم تصعد السلم الطيني درجة.. درجة، حينما تكون الدنيا وقت القيلولة وكلهم نائمون والدجاجة السوداء العتيقة نكشت بمنقارها وأظافرها حتى صنعت لنفسها مهدا صغيرا نامت فيه منفوشة الريش، مغمضة العينين مفرجة المنقار لاهثة الأنفاس، يكاد تنفسها أن يسمع في صمت الدار.

تصعد السلم درجة درجة جامعة أطراف ثوبها الأسود حتى لا يحف بالدرجات ويحدث صوتا. ينفرش قدمها المعروق على بسطة الدرجة إذ تدوس، وينقبض إذ ترفعه، تماما مثل مخلب الدجاجة السوداء العتيقة.

ويصدم رأسها عود حطب مدلى من العريشة. يحدث الاصطدام ضجة مهولة. تتحرك رأسها يمنة ويسرة مفتوحة الفم لاهثة كالدجاجة السوداء العتيقة إذا ما أصابها الرعب. ثم تخبو أصداء الضجة الكبيرة في رأسها ويهدأ تهدج صدرها وتواصل صعود السلم بحذر أشد. مسكينة أنت يا مبروكة، لماذا تخافين هكذا..؟ إنك فقط..! نعم، لكنهم لا يتركونها في حالها، يسخرون منها لو رأوها، تلذعها سخرياتهم كالسياط، مع أنها حينما تفتح صندوقها تفتح بابا صغيرا على عالم جميل.

يقولون عنه باستهتار:

ـ إنه صندوق مبروكة..!

ولا يبالون أن يضعوا عليه حتى قفص الفراريج. ترفع القفص وتنحيه بعيدا. تمسح بكفيها بل وبطرف ثوبها ظهر غطاء الصندوق العزيز الذي كان يوما ما مصفحا بالصفيح البنفسجي الجميل... كان يوما، ومات من حياتها مع أنه كان أجمل يوم.

لكنهم يسخرون منها، بل أحيانا تقول زوجة أخيها وهى تطوح بيدها في الهواء:

ـ أشياؤك الجميلة في الصندوق، تحرمينها على نفسك وعلى العيال.. خلي بيننا وبينها ولك الثواب عند الله.. العيال عرايا..!

تصنع من حاجياتها جلابيب للعيال..؟! ياربي! تكاد من الرعب أن تصرخ. لكن مالنا وتلك السيرة الآن. إنهم نائمون. حتى عفاريت

الأرض هاجعة وأمامها ساعة تفتح فيها صندوقها وتتملى من أشيائها وتروق نفسها من الهموم الكثيرة.

رفعت غطاء الصندوق ركنته على الحائط. تراقص خيال وجهها على الصفيح الفضي الذي يبطن داخله وسمرة وجهها على لمعة المعدن ملامح قبيحة تلاعب بها السطح اللامع غير المستوى. لهم حق عندما يقولون عن قبحها ويقولون. لهم حق، لكن هو كان يحب وجهها، هو خير الرجال.

كان الصندوق مزدحما بالصرر كبيرة وصغيرة. وكان ثمة أشياء أخرى كثيرة، قطع من شرائط حمراء وخضراء، كسرة مشط، زجاجة زيت فارغة لكنها ما زالت فواحة. تناولت الزجاجة وشمتها وتنهدت ثم أعادتها إلى مطرحها. أخذت قصقوصة قماش موردة. نفخت عنها سنة تراب فتألق لونها.

والصرة الكبيرة..! نفضتها مرتين وتحسست طراوتها. حلت عقدة الصرة فتجلى صبح عقيقي. طيات الحرير الأحمر تستقبل الأشعة الوانية، تهدهدها على صدرها الرجراج ثم تردها إلى باطن غطاء الصندوق تشعشعه بلون كلون خدود البنات.

تمسح يدها سبع مرات ثم تمدها إلى الثوب تأخذه إليها تطرحه على قدها، الصدر على الصدر والحرير على قماش ردائها الخشن. تنبثق تحت وقع قطرات الشمس الساقطة على الثوب إشعاعات وردية وذهبية تهيم متساندة على الذرات الطائرة في هواء الغرفة حتى تعلق على الحيطان. ملمس الثوب الناعم على يديها يرسل في كيانها نعومة حريرية، يوم زفافها كانت مغمضة العينين فلم تر لألاء الثوب الباهر هذا في ضوء القلوب... يومها.

رمت بناظريها إلى هذه الدرجة من السلم حيث وقف بجوارها. همسته ما زالت في أذنها وأنفاسه اللاهثة ما زالت على رقبتها:

ـ أنا الذي اختار لك الثوب الأحمر..!

قال هذا وهبط يجري قبل أن يراه أحد متلبسا بمخاطبتها ولما يتزوجا بعد. نعم، كان ذلك على هذه الدرجة من السلم. يومها دق قلبها، تسندت على الحائط وهبطت السلم إلى وسط الدار حيث المصطبة لكن ذلك كان في اليوم التالي، وعلى المصطبة جلس أخوها يدخن الجوزة ويحدث جلساءه عنه وعن عباطته:

ـ أمسك الثوب الحرير الأحمر لا يفلته.. قلنا له إنه غالي الثمن.. قال لا

بد أن يكون منه جلباب فرحها.. يا بني إنه غال.. قال حتى لو بعت من أرضي سأشتريه لها.. اشتريناه!

عبيط؟! ألأنه تزوجها؟! ألأنه وضع كل هذا الفرح في قلبها! ألأنه اشترى الحرير الأحمر؟! إنه أحسن الرجال! ثم دمعت لنفسها.

ودمعة اليوم موصولة بدمعة الأمس ـ يا حبيب عيني ـ تتهادى ساخنة على الوجنات الذابلة حتى تستقر في أخدودين غائرين على جانبي الفم. مكتوب ذلك مكتوب. فرح سابعه مأتم وعمر كليل الشتاء وصندوق يحوي جهاز عروسه في ركن غرفة على السطوح. لكننا جئنا لنفرح ساعة لا لنبكي يا مبروكة.

هذا هو المنديل اللبني. ليلتها كان المساء غبشا حينما سارت في الزقاق ترفعها الكيمان وتتلقاها الحفر إلى دار الدمرداشية:

ـ طرزيه لي يا نفيسة..!

وقالت نفيسة وهى تقلب قماش المنديل:

ـ خسارة.. خسارة هذه الأشياء الحلوة في هذا الرجل!

وطبطبت مبروكة على يد الدمرداشية متوسلة:

ـ لا تقولي هذا.. إنه سيد الرجال.

ثم وضعت في حجرها قرشين.

وهو أمسكه من هذا الطرف، كان في يده خضاب، وعلى ظاهر الكف وشم أسد يمسك سيفا. وباليد الأخرى أمسك المنديل من هذا الطرف. ثم عصبه على رأسها بنفسه. تملت في المرآة ذات الرجلين المعلقة على الحائط. ضحكت للعصبة على حاجبيها وخبطته على ذراعه قائلة:

ـ أأخرج على الناس هكذا..؟

ورد هو مؤكدا:

ـ أنا رجلك وأريدك أن تكوني جميلة..!

أمها فقط وهو عصبا لها المنديل ودللاها هكذا، وقد ماتا.. آه.. بعد يومين من موته ذهبت إلى الجبانة وبيضت قبره بالجير. قالت

للمبيض أن يرسم عليه أسدا يمسك سيفا، والرجل ضحك ثم رسم. كان يحب هذه الصورة رسمها على ظهر يده وعلى حائط غرفة الفرح.

في غرفة الفرح، ليلتها، كان ضوء المصباح خفيضا. تمددت إلى جواره على الحشية فرحانة في القميص الوردي. التفت الأسد الذي على الحائط ناحيتها وضحك. وهو مد يده بحذر وتحسس بطنها، ثم جذب يده بسرعة وهو مكسوف حيران. أحبته كطفل حينما توسد ساعدها ودفن وجهه في صدرها وراح في النوم، مضت ليلتها بلا أسرار، وعريسها نائم على صدرها، والصبح يسند خده على الشباك.

كم كانت عبيطة. كم أغضبها أن يتهامس البنات عن أسرار هذه الليلة ولايخصوها بشيء. ينفونها عن دائرتهن. تمضي إلى الترعة تحمل جرتها على رأسها وحيدة والبنات هناك مجتمعات. ظنوا أنها لقبحها لن تحظى بعريس. بكت لنفسها. لكنها في ليلتها هذه ضحكت. كانت الليلة بلا أسرار.

طوت القميص الوردي وصرت عليه وعقدت عقدتين.

والمكحلة، زجاجتان مغروزتان في وسادة من الحرير وعلاقة طويلة كم تدلت من المسمار المثبت في الجدار. والزجاجتان، واحدة للكحل الأزرق الحامي، والأخرى للأسود البارد. لكنها من يومه لم تتكحل، من يوم أن مات.

قالوا كانت شؤما عليه قتلته بشؤمها، لكنها لم تصدق. كانت تحبه كطفل. كان ينام على صدرها كطفل. قالوا قتلته وجاءوا إلى المعزى. جلسوا في المضيفة قليلا واجمين ينصتون لسورة قرآن، ثم أطفئت المصابيح، وعادوا إلى دورهم ناسين. كان ذلك من سنين، سنين تموت فيها من أجله كل يوم.

كل يوم تصعد السلم الطيني درجة.. درجة إلى حيث صندوقها، كنزها في ركن الغرفة على السطوح.

القيلولة منعقدة نارا والصهد مفروش على التراب وهى عائدة من كد اليوم في حقل أخيها. الناس نسوا، فقد كان ذلك من سنين، يوم الفرح ثم الصباحية وخمسة أيام بعدها ثم مات، ونسيه الناس، وتركوها وحدها تلوي.

ها هي الدار ساكنة والدجاجة السمراء تلهث آمنة في مهدها. لكن

ثمة في الغرفة على السطوح أصوات عيال وزياط وهيصة. طارت فزعة تصعد السلم قفزا وترى أحشاء الصندوق مبعثرة على الأرض.

سقط فكها وتصلب لسانها في فمها وأسرعت لهثاتها والتهب جلدها نارا. زوجة أخيها تبعثر كلمات غير ذات معنى عن العيال وحاجتهم لكساء وهى لا تسمع ولا تصرخ من الرعب، فقط تستدير عائدة إلى الحقل.

عادت تحيا حياتها. عمر كليل الشتاء دون صندوقها، دون الساعات القليلة التي كانت تروق فيها نفسها من الهموم الكثيرة.. الكثيرة.

ليلة شتوية

شجرة السنط العجوز العارية أنت بمذلة وهى تميل من الريح. ليس في السماء نجم واحد يرسل عليها شعاعا من ضوء حتى تعرف نفسها وسط أكداس الظلام.

الشبابيك الهزيلة أغلقت على الدفء والضوء الشاحب. لكن صفير الريح ينفذ من الشقوق ومن خلال الجدران. الخوف ينفذ في القلوب كالخيط في حبات العقد.

على ظهور الأفران ـ في الغرف الثقيلة الهواء ـ لفت العجائز بالطرح السوداء وجوههن الزبيبية، وحكين حكاية عويل الريح للأطفال، والأطفال عيون مفنجلة لا أثر فيها للنعاس، وقلوب مبهورة تشرب الحديث. على وجوه النسوة المجهدات خصلات شعر شعثاء مبلولة تلصق بالجبهة وبالأصداغ. سهم الرجال العقلاء في المنادر المضاءة بالفوانيس وسبحت نظراتهم على أمواج الضوء الشاحب. لا حول ولا قوة إلا بالله.

في زريبة «صديقة» كانت نعجة تعاني المخاض. لا تدري من أين يأتيها الوجع. هي أصابع حديدية تجوس في جسدها وتقبض بلا رحمة على أحشائها. تهب النعجة واقفة وسط أخواتها النائمات حولها. يحدث قيامها ثغرة في كتلة الدفء المفروش على أرض الزريبة. ترتجف النعجات وتتدافعن وتتضام أجسادهن حتى يغلقن ويطردن النعجة المكروبة خارج كتلتهن، فتقف وحيدة غارقة في الظلمة. يتسلل البرد من فروتها ويسفعها في أذنيها وتحت ذنبها. الوجع ينبض في كل عرق من جسمها. يخرج الثغاء من أعماقها كآهات إنسان يتمزق.

أتت «صديقة» على الثغاء الباكي. في يدها لمبة ذات شعلة تصنع كرة من الضوء تنزاح لها عتامة جوف الزريبة إلى الأركان. هناك نام الصمت على صدر الظلام. وهى وقفت في الضوء، طويلة، عريضة الكتفين، ممسوحة الصدر، قصيرة الشعر، عارية الرأس، عليها جلباب أسود خشن، تتدلى على أصداغها الصخرية خصل شعثاء تستضيء بشعاع أصفر.

في جوف الغرف كانت الجمرات من حطب القطن تتقد وتلتهب وترسل لظاها أحمر مسودا على الحنية. يسخن الحصير الأبيض تحت الجالسين على ظهر الفرن في الغرفة المغلقة الشبابيك.

العجوز كومة من قماش أسود يطل منها وجه مثل التينة الناشفة. كلما هبت موجة من عويل الريح ارتجفت الكومة السوداء وتقلصت الثنيات في جلد بطنها المكرمش:

ـ أتسمع.. ليس الريح ما يصفر هكذا.. بل هو أبو جبة..!!

والصبي الصغير احتضن رجليه النحيلتين مريحا ذقنه على ركبتيه سامعا الجدة وقلبه يمتد من كلماتها:

ـ إنها قتلته... في مثل هذه الأيام.. قبل ثلاثين عاما... في الحسومات.. عضت على زوره بأسنانها.. وكزت.. وكزت.. حتى التقت الأنياب... وطرطش الدم على جسر الترعة.. ومن المعاد إلى المعاد.. في الحسومات.. في قلب الليل يسمع أبو جبة يعول... يعول..!!

واللسان الأصفر المضيء داخل زجاجة المصباح مال جانبا. استطال واسود طرفه. أقبلت العتمة من الأركان لتخنق النور. لسعت الأنوف رائحة البترول المحترق. استقام اللسان المضيء مرة أخرى تاركا بصمة سوداء كالكذبة على جدار الزجاجة.

الليلة الشتوية خارج الدور تزحم الآفاق بالظلام والعويل كآلاف من الذئاب الدهم. يتدلى فانوس مندرة الرجال من السقف صغيرا مسكينا شاحبا. ثقل الصمت. مال الفانوس المشنوق في وهن. مرت أطياف سمر شفيفة مبتورة الرءوس على الحيطان. لبد الطفل الصغير في جنب أبيه مذعورا. خرج صوته مشروخًا:

ـ ... أهي.. كزت على زوره بأسنانها حتى التقت الأنياب..!!

ربت الأب الكبير علي الطفل الخائف وأطرق في أسى وإشفاق، تسبح نظراته على أمواج الضوء الشاحب:

ـ ثلاثون عاما يا بني... والعجائز قاعدات على ظهور الأفران... والريح تعول في الخلاء.. وليل الشتاء طويل...!!

انصبت النظرات الحانقة على المتكلم من كل جانب:

ـ تراه إذن كلام عجائز..؟!

ـ ولا ترى ثأر الله على خلقتها..!

ـ وما سوف يحل بها لهو أعظم..؟

ـ سوف ينبت الشعر في وجهها.. والأنياب في فمها حتى تصيرمثل ضبعة..!

ـ ثأر الله.. إذ أفلتت من ثأر الحكومة..!

لكن الرجل ظل شاردا معلق البصر بالضوء الشاحب:

ـ هناك يا بني، كانت قاعدة تحت شجرة السنط. شجرة صغيرة فروعها محملة بنوار أصفر يتلألأ في ضوء الشمس. قلت لها «سلام يا صديقة» صبية صغيرة مستحية مثل وردة. أسبلت طرحتها على وجهها حياء وردت السلام. كان هذا في اليوم السابق على الواقعة. صارت الشجرة عجوزا عريانة. وحيدة على رأس الحقل. تميل من الريح..!! مازال الوهج يموج أحمر قاتما في جوف الفرن. والمرأة المجهدة الوجه دلت ساقيها وباعدت بينهما ورفعت ذيل جلبابها وخلت الصهد الطالع من الفرن يدفئ بطنها وما بين وركيها. سرحت قليلا منصتة لعويل الريح ثم التفتت إلى أختها تحدثها عن صديقة:

ـ لو أنها كانت تزوجت.. ربما كان الزواج قد ألان طبعها قليلا..؟

ـ ومن كان سيتزوج قاتلة أبي جبة.. القاتل الذي دوخ رجال الناحية..؟

ـ يا ربي.. لقد أصبحت مثل رجل.. وكل يوم تزداد دمامة..!

النعجة تثغو ثغاء موجعا. تنزل الدموع من عيونها الزجاجية. صديقة قابعة بجوارها تسند البطن المدلى بكفيها من أسفل. يسقط الضوء على الوجه الصخري ذي الجلد الملوح المليء بالندوب. يتقارب حاجباها الكثيفان كأنهما شاربان صغيران لم ينلهما أبدا حف أو تهذيب.

صحت العجوز أم صديقة على صوت الشاة. الغرفة مكبوسة بالظلام. تحسست ولم تجد ابنتها بجوارها تحت حرام الصوف. خرجت تخوض الظلمة إلى الزريبة. هناك رأت أكتاف ابنتها الرجولية مرسومة على الضوء الشاحب. تحرك قلبها تألما من أجل ابنتها:

ـ آه يا بنتي.. يا حبة قلب الأم المسكينة.. الله يحاسبهم.. قتلوك.. وما زالوا يقطعون جسدك على الأفران في الليالي الشتوية..!!

وظلت تحدق في الضوء الشاحب حتى ترقرقت في عينيها الدموع:

ـ الفأس لا ترحم.. ربعت الأكتاف.. وضعت وسائد من الجلد الميت في

باطن الأكف.. يدان لم تلينا أبدا بعجين فيه سمن.. ولا بضرب القشدة في البرام الفخار.. أنواء الغيط يا حبيبتي وكلام الناس..!!

قبل ثلاثين عاما لم تكونا وحيدتين ـ صديقة وأمها ـ كان معهما محمد. كانت دارا سعيدة. كانت صديقة عروسا حلوة يحبها أحمد ويعد داره لعرسهما. أراد أبو جبة أن يفرض إتاوة على هذه الدار السعيدة المبيضة الجدران. لكن محمد قال في نفسه: «أنا صنعت سعدي بيدي، وبالفأس تحت وطأة الظهيرة. ليس لأحد عندي شيء»

أقبل أبو جبة على محمد يحمل البلطة القاتلة:

ـ محمد..!

ومحمد قام له:

ـ نعم يا بو جبة..!

ـ عليك إتاوة من القمح..!

ـ لا...!

لأنه عار أن يخاف الرجل من الرجل. والبلطة في يد أبي جبة لا تقصر أعمار الرجال. لكن البلطة نزلت في جبين محمد إلى ما بين الحاجبين. انكفأ ساقطا على جسر الترعة تحت شجرة السنط الصغيرة. وعامت النوارات الصفراء الصغيرة في تيار الدم النازف من رأسه. وكانت النعجات متكومات في بطن الجسر وقد قامت عليهم صديقة وفي يدها عصاها الغليظة.

لم تعرف كيف تم هذا لكنها جندلت أبا جبة بجوار أخيها. حبست في سجن المركز أياما طويلة. سألها الأفندية أسئلة كثيرة. قالت لهم على الذي حصل. لم تخف شيئا. قالوا لها: اذهبي. عادت إلى الدار.

والدار من يومها لم تسمع ضحكة، لا ولا صوتا عاليا غير ثغاء النعاج وقواق الفراخ. سقط البياض من الحيطان لم يره أحد. أحد راح حط على نوارة أخرى. من يتزوج قاتلة..؟

النعجة تباعد بين ساقيها، تحفر الأرض بيديها، وترفع ذنبها لأعلى وتخفض مؤخرتها وتكتم أنفاسها وتتشنج عضلات بطنها ثم تبول بولا مخلوطا بالدم. وبعد ذهاب الطلقة تثغو ثغاء كالنواح. تزفر صديقة:

ـ تجلدي.. يا مسكينة..؟

وتمسح بطن النعجة في حنان.

كبت الجمرات في بطون الأفران. غضت عيون المصابيح. تكوم الناس على الحصر الساخنة. من السماء ينز مطر يضرب حطب العرائش في إيقاع خافت متردد. العناصر تسترد أنفاسها بعد عربدة مروعة.

يعود الطلق. يتصلب جسد الشاة وينتفض صوفها عرقا. يتدفق الدم فجأة. تعبق الزريبة بالرائحة اللزجة. رائحة الدم. تسرع أنفاس صديقة وتضطرب حركاتها. ثم ينزلق الوليد طفلا من الغنم أبيض دائخا مخضوب الصوف.

وشعاع من الضوء يمسح أكداس الظلام عن شجرة السنط. تبدو عجوزا ذليلة مبلولة. ترتجف الدموع على رموش صديقة وهى تحتضن الحمل الطفل، وتمرغ وجهها في صوفه الناعم المخضوب:

ـ يا بني.. يا حبيبي.

يمشي في صدرها المجدب خدر ناعم. تجري الدموع حارقة على الوجه الصارم ذي الندوب. ويتدفق النهار من الأفق الشرقي. تثغو الشاة الأم ثغاء فيه فرح مجهد كليل.

السفر

لم تنم، باتت ليلها أرقة تتقلب وتنظر للعيال. حينما صاح أول ديك هبت واقفة. رفعت شريط المصباح فملأ الضوء الغرفة. أخذته من على المسمار وخرجت به إلى وسط الدار.

السلة على المصطبة فيها ما خبزته مساء الأمس. لا بد للمسافر من الزاد، فإن خبز البنادر مغشوش. دست يدها في طاقة الجدار أخرجت المنديل المعقود على النقود. النقود هي كل شيء، من ضاعت منه ضاع. قبضت على المنديل ووقفت محتارة. أخيرا أحكمت وثاقه في تكة لباسها، ها هنا سيكون في أمان.

دخلت مرة أخرى على العيال. مبعثرون على الحصير. تأملتهم هنيهة، ثم زفرت:

ـ يا ولادي..!

أخذت جلباب سفرها الأسود من على وتد مرشوق في الحائط. أحست البنت الكبيرة بها فهبت قاعدة، يقظة العينين كحدأة:

ـ أمي..!

ـ صحوت يا حبيبتي..؟.. اوع يصحو اخواتك.. لا أحب عياطهم ورائي.. سآخذ الصغير.. أحمله نائما كما هو..!

ـ أحمله عنك يا أمي لغاية المحطة..؟!

ـ لا يا حبيبتي.. ابقي جنب اخواتك.. وارعيهم..!

* * *

كانت النجوم لا تزال لامعة في السماء، لكن على الواحد أن ينتظر الذي لا ينتظره. القطار يمرق في البكور ولا يعود مرة أخرى إلا بعد أن ينصرم النهار. جلست على الرصيف والولد في حجرها تغطيه بفضل ثوبها. كبير على أن يحمل، رجلاه تتدليان على الأرض، لكنه نائم الآن. يفتح عينيه وينظر حواليه فلا يستطيع فهم ما يجري، يعود يغمض عينيه مرة أخرى ويروح في النوم على حجر أمه. البرد ينفذ إلى جسمها لاذعا من رمل الرصيف.

بدأت تدب على السكة بهائم وقف شعر أجسادها من البرد، وناس دثروا آذانهم بالملافح. كان زمانها الآن سارحة ببقرتها، لكنها اليوم مسافرة. بدأ الناس يتقاطرون على الرصيف، يسلمون ويقفون متباعدين وبردانين.

خرج ناظر المحطة من الكشك مرتديا معطفا أسود هائلا. هبت حاملة ابنها على كتفها:

ـ اقطع لي ورقة والنبي يا أخي..!

ـ في الوقت متسع يا خالة..!

ـ وحياة النبي يا أخي.. الله ينصفك..!

ـ قلت لك في الوقت متسع..!

سكتت، لكنها ظلت تسلط عليه عينين قلقتين متوسلتين.

دخل الناظر الكشك وفتح الكوة. فكت هي وثاق منديلها من تحت لفائف الثياب وأخذت منه بضعة قروش وضعتها على عتبة الكوة الرخامية الباردة. مد الناظر يده أخذ القروش عدها وألقاها في علبته المعدنية وأعطاها تذكرة القطار. فلتحافظ عليها الآن مثلما تحافظ على النقود وأكثر. وضعتها في المنديل وصرت عليها وأعادت المنديل إلى مكانه الأمين.

مرة أخرى عادت لتتربع على الرصيف. الترعة تنساب بين الشطين الأسمرين. السكة تصحو قليلا قليلا بالسارحين في البكور. الندى يتساقط من أوراق التوت الشاحبة فيبلل دائرة حول جذع الشجرة. وبعدُ لم يأت القطار.

صحا الولد. دهش قليلا، لكنه صاح من الفرح لما عرف أنه مسافر. ظل يتقافز حول أمه كالقرد. الشمس الذهبية الهشة كزغب الديوك بدأت تفرش أرض الرصيف وتلمع على حبات الرمل الصغيرة الناعمة. بدأ المسافرون يتبادلون حديثا مترددا ضاحكا. وبعدُ لم يأت القطار.

* * *

وأخيرا جاء الوحش الأسود مندفعا هائجا على القضبان. الأرض ترتج كأنه يوم القيامة. الناس يجرون ويتزاحمون. تجري هي تدفع ابنها أمامها والسلة في يدها. عربة القطار دافئة ومليئة بالضجيج ودخان

سجائر اللف وزحام الناس. اليوم سوق وكلهم ذاهبون رجالا ونساء. قفف وسلال وطسوت نحاس مليئة بالجبن والزبد. جلست هي وحيدة خائفة في هذا المولد. تضم ابنها وسلتها وتتلفت حولها متوجسة.

من بعيد جاء الكمساري يجتاح العربة. يصرخ ويشتم ويلكم ويرفس ويأخذ الناس من أطواق الثياب. ماتت في جلدها قبل أن يصلها. تحسست كيان المنديل الناتئ. قبضت عليه وشددت قبضتها.

صرخ الكمساري فيها وهو يضرب مسند المقعد بمقراضه:

ـ تذكرة!

ارتعشت يدها. عجزت تماما كخرقة بالية. الكمساري يصرخ ويضرب مسند المقعد بمقراضه، وهى لا تستطيع بحال أن تصل إلى المنديل تحت طيات الثياب.

ـ والله لتدفعن الغرامة يا بنت الكلاب.. هاتي عشرة قروش..!!

انهمرت دموعها ونشجت بعنف:

ـ والنبي يا أخي.. إن كنت مؤمنا صدقني.. أنا قطعت تذكرة.. وهي معي.. كف شرك عني.. سأجدها حالا في ثيابي..!

ـ أنا يهودي وكافر وابن كلب.. ولن أتحول عن تغريمك عشرة قروش..!

انفتح الولد في صراخ مذعور. تدخل أولاد الحلال. صياح وكلام وحلف بأيمان غلاظ. يصرخ الكمساري ككلب مسعور. يجري القطار في ضجة مهولة. فقدت هي وعيها بنفسها كلية. تبكي دونما إدراك.

أخيرا استطاعت أن تستخرج صرة المنديل وأن تفك عقدته وأن تجد تذكرة القطار راقدة بجوار النقود. اختطف الكمساري التذكرة ومزقها وألقى بها بعيدا وهو يصرخ:

ـ حتى تتعلمي أن تبرزي تذكرتك لمراقب القطار..!

ثم أخذ من منديلها عشرة قروش نحاسية. أعطاها قسيمة بيضاء أمسكتها في يدها لم تفلتها.

* * *

ـ مع الجموع نزلت وحيث يسيرون سارت. وعند أول شارع السكة الجديدة بانت قبة السيد البدوى.

ـ يا دليل الغريب يا سيدي يا سيد!

يأتي الناس لهذا المقام من جميع البلاد.

ـ يا زين ما قصدوا لما قصدوك يابو فراج.. ها هو السيد يا ولد..!

ـ ده.. الكبير العالي..؟

ـ نعم..

ـ طيب.. نزوره يا أمي..!

ـ هو سكتنا.. ليس لنا غيره سكة..!

صارت جزءا من الزحام المتحرك ببطء نحو المقام. الباب الأسمر الثقيل مفتوح على آخره. رأت السيد البدوي. كيان ضخم من النحاس الأصفر. نجف باهر. ريح عاطرة تملأ المكان. هتفت بأشواقها. أشواق قديمة لم ترو أبدا:

ـ جيتك حافية وراسي عريانه... مالي غيرك يا سيد..!

طفرت دموعها. زغردت عاشقة أخرى فشجت الزغرودة قلبها. ضحكت والدموع مالحة في فمها. الكتلة البشرية تعصرها، تدخل بها المقام وتدور بها حول الضريح. أكتاف الناس وسواعدهم تدفعها وتلكزها في جسدها وهى تسير. حتى أحست بواحدة من الأيدي مدربة عارفة حاسمة، تتحسس بسرعة ردفيها، ثم تنزلق إلى بطنها، ثم تمسك بقوة ما بين وركيها. أحست بقهر لا حد له. تتلوى من الوجع. تجهد بكل ما فيها من حول حتى قفلت. أمسكت بشبك النحاس البارد. أسندت رأسها على ذراعها وبكت:

ـ آه...

رجل عجوز له عمامة ولحية قال:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله..!

والناس من ورائها دفعوها:

ـ اسعي يا حاجة بالصلاة على رسول الله.. على من زار أن يخفف.. ويدع غيره يزور..!

سارت مع الزحام خارجة إلى صحن الجامع.

* * *

الولد يبرطع فرحا على البلاط النظيف اللامع في صحن مسجد السلطان وهي جالسة على الحصير مكتئبة. لا يزال الألم في جسمها والقهر في قلبها. شردت قليلا ثم قالت مكلمة نفسها بصوت عال:

ـ الدنيا حلوة.. لكن أولاد الحرام كتير..!

نادت على الولد أعطته لقمة. هي لم تفطر. نظرت للزاد ثم نحت السلة زاهدة وقامت لترى.

لمة من الناس حول شيخ يفترش فراء خروف وأمامه موقد وعدد وأدوات وأحقاق وأشياء أخرى كثيرة. جلست هي وابنها وسلتها على الحصير. الشيخ أبيض الوجه وعلى رأسه عمامة خضراء. عيناه عسليتان لا تتحولان عن يديه المشغولتين.

من بين الخلق المتجمعين حوله والدان يعريان ظهر ابنتهما الصبية ويرقبان الشيخ واجفين. على نار الموقد الطنان قطعة من قشر جوز الهند. تلقفها بأصابعه وقلبها بسرعة، ثم وضعها على الظهر الأبيض العاري حتى انبعث الدخان من مطرحها ورائحة اللحم المحترق. صارت مكانها بقعة بنية على الجسم المرتعش بالألم والنحيب. صخب الناس بالدعاء مهللين.

ـ بالشفا.. بالشفا..!

ورجل أكثر حكمة ومعرفة قال:

ـ عندها عرق النسا..!

والوالدان، الرجل فك عقدة منديله ليؤجر الشيخ والأم ضمت ابنتها الباكية إلى صدرها. وهى مالت على جارها تعرض عليه يد ابنها. في ظهرها عند المفصل عقدة بارزة.

ـ ترى.. يعرف لهذه علاجا..؟

ـ عنده لكل علة دواء يا بنتي.. يد مباركة..!

ـ وأجره بليغ..!

ـ أجره على الله.. وما يجود به أهل المريض..!

نظرت للشيخ مرة أخرى. عيناه عسليتان. يداه صغيرتان مثل طفل. أصابعه رشيقة لا تكل.

زحفت على الحصير مقتربة. مدت يدها تعرض يد ابنها. فحصها الشيخ متأملا ثم تركها. أخذ إبرة غمسها في سائل أسود في زجاجة صغيرة. قال لها رجل من الجالسين:

ـ امسكي يد ابنك يا حاجة..!

أمسكت ابنها. الشيخ يغمس الإبرة في السائل الأسود ويشك الولد في النتوء البارز شكات سريعة جدا. يصرخ الولد وهى مأخوذه القلب لكنها فرحانة لأنه سيبرأ.

* * *

خرجت من رطوبة الجامع إلى حر الشارع. عشيت عيناها من الضوء. على جانبي الشارع دكاكين وعربات محملة بكل ألوان البضائع. يصرخ البائعون وينادون وعلى وجوههم الشر. تمشي هي في وسط الشارع تماما تتلفت خائفة يمينا وشمالا. بائع جوال ينادي ويعرض بضاعته للناس. مناديل رأس حمراء وخضراء وصفراء محلاة بالبرق والترتر:

ـ حرير طبيعي على كل لون.. أصل الثمن سبعة قروش.. مكسبي على الله..!

طار لبها وراء المناديل. يا أحلى ما تكون على رأس ابنتها. أعطت الرجل سبعة قروش وأخذت واحدا وقفت تتأمله وجدت فيه ثقبا. جرت لحقت بالرجل:

ـ المنديل به ثقب يا أخي..!

ـ امشي من قدامي يا امرأة مجنونة..!

وتركها ومشى ينادي على المناديل:

ـ أبيع بأصل الثمن ومكسبي على الله..!

بقيت هي مبهوتة تتأمل المنديل المثقوب، وابنها خائف متشبث بجلبابها. رأى كربتها من على البعد رجل كبير يجلس على كرسي وأمامه عربة محملة بأصابع الحلوى البيضاء والمحزمة بالأحمر فقال لها مواسيا:

ـ عوضك على الله يا بنتي..!

ـ الله لا يكسبه ولا يبارك له..!

ـ كلهم سارقون ولاد كلب..!

الحلوى مكدسة على العربة والولد ينظر وأصبعه في فمه. قالت للرجل وهى مترددة خائفة:

ـ اوزن لي بخمسة قروش يا عمي..!

والرجل فهم خوفها وضحك منه. فرش ورقة في الكفة ووزن لها وزنة طيبة:

ـ افردي منديلك..!

فرحت بالحلوى الكثيرة. أخذتها في سلتها وأعطته القروش الخمسة وهو أعطى الولد قطعة كبيرة ملونة.

* * *

على الرصيف في الظل جلست. مدت يدها في السلة أخرجت لقمة. تمضغ اللقمة دون أن تسيغها رغم أنها جائعة لم تفطر. الولد يلعب حولها يلعق الحلوى ويقضم منها.

تتأمل المدينة شاردة. مدينة مزدحمة بالبائعين والمشترين. مدينة صاخبة بالمساومات والصياح والشتائم وزفرات المخدوعين. تفكرت قليلا وملأها القهر. مدينة قبيحة. رغبت بشدة في أن تعود إلى الدار. نظرت إلى قبة السيد البدوي وهمست في حنان وألم.

ـ لولاك ماجينا يابو فراج..!

القطار الآيب موعده اصفرار الشمس.

كان مزدحما بالراجعين. الناس متعبون جهمون. خبطات مقراض الكمساري على مساند المقاعد متباعدة رتيبة حازمة. مدت له يدا مرتعشة بالتذكرة. قرضها وأعطاها لها. كم هي متعبة ومكروبة.

حينما نزلت على رصيف محطتهم كانت الشمس قد غابت. احمرار خفيف يلون شواشي الشجر. تلتوي شفتا الولد من لذعات البرد المبكرة، أخذته في حضنها. حملت سلتها وسارت يسبقها قلبها إلى الدار.

برفق دفعت الباب داخلة. رأت العيال متحلقين حول أختهم الكبيرة على الحصير، والبنت وسطهم كدجاجة أم يقظة حازمة. حينما رأى العيال أمهم هاجوا وزاطوا وهجموا عليها يعانقونها، وعلى السلة يفرغون محتوياتها. امتلأت الأيدي بالحلوى وفرحت البنت الكبيرة بالمنديل لم تأبه للثقب الذي يعيبه.

أسندت هي ظهرها للحائط ومددت رجليها على الحصير. تعبة وقانطة.. لكنها تبتسم لفرحة العيال.

الخوف القديم

فرش له الحصير الأبيض على المصطبة أمام باب الدار. أراح الشيخ جسده ممددا ساقه مخليا عصاه مركونة إلى جواره. راح ذلك الزمان أيام كان خفيفا متوثبا كأنه الفرحة الجارفة، أو الغضب العارم. جسده الآن مثقل بالسنين كزكيبة مليئة بالرمل،... لا حول ولا قوة إلا بالله.

تحدد سيل القهوة السوداء شفيفا رائقا ليملأ الفنجان. أرهف أذنيه ليسمع كركرة السائل. ثم مد يده ليتناول قهوة العصر.

فجأة ضحك لنفسه. ماج الضحك في داخله حتى اهتز له. إنه يتذكر تلك اليد الصغيرة وهى تمتد له بفنجان القهوة مرتعشة مضطربة، والقهوة تسيل من الحواف وتتقاطر على الأرض، ووجه ابنه الطفل مليء بالحرص مشدود بالانتباه، حتى يسلم الفنجان إلى أبيه فيلتهب بالفرحة ثم يجري ليلبد في جواره يحتضنه بأذرعه الطرية الصغيرة.

الفرحة القريرة تحولت إلى رضى عميق يشمله، لا يزال يذكر الجسد الصغير الطري المملوء لهفة وحنانا يحتضنه ملتصقا بجنبه، ولده أيام كان طفلا. لكن أيام الزمان المريرة أضاعت الحول وأثقلت القلب، يوما بعد يوم، لولا أن لكل يوم عصرا، وقهوة العصر، وملاعبة الولد في ساعة تنفرد بنفسها عن تعب النهار وتشق مجرى رقراقا في صميم العمر.

رشف القهوة من الفنجان. انداح الطعم في إحساسه كله، طعم تخالط فيه الحلاوة بالمرارة في مزاج عبقري. يحملق، عيناه معلقتان بأعلى الدرب، كليلتان وهو بهما يحيا في غسق دائم.

لكن في الساعة المعلومة، مع الآيبين في العصر سوف يعود الابن. سوف يعرفه على البعد، كتفاه عريضتان، يمشي مندفعا إلى الأمام. هكذا كان الجد يمشي، وهكذا مشى هو في زمانه. خطوات ثقال يدقون بها وجه الأرض ابنا بعد ابن.

ركن الفنجان إلى جواره ونبش الأرض بعصاه. ذلك القلق، تلك الساعة الأليمة التي يحياها كل عصر، لكن الابن سيأتي حالا. سوف يبدو بأعلى الدرب بعد لحظة مقبلا يندفع حاملا كتبه تحت إبطه، يقبل يده ويجلس إلى جواره يحكي له عن كل شيء. اليوم خاصة ما كان له أن يتأخر، بل أن يبكر بالعودة. ثمة خيوط دقيقة من القلق تسرح في الجسد تؤرق الصفاء. شيء ما فى وجوه الناس وفي

هيئاتهم، شيء يعلق بالهواء كالرائحة القوية أو النبأ الفاجع. لكنه ثقيل السمع والكلمات تأتيه من البعد خرساء لا تقول. الناس يجرون مسرعين يلقون السلام ولا يأبهون برد السلام.

من دون كل الوجوه البرمة الماشية لا تلوي على شيء كان وجه الابن دائما مليئا بالحنان والفهم وضيئا بالصبر. اليوم من دون كل الأيام تتأخر عودته إلى الأب وهو أشد ما يكون احتياجا إليه.

وفجأة خطر له خاطر رهيب ملأه رعبا. إن ابنه هو الآخر يخفي عنه شيئا. وبقوة على التذكر خارقة استحضر كل طرفة في ملامح ابنه وكل هزة في نبرات صوته خلال الأيام الأخيرة. ساوره الشك العظيم. ابنه، نافذته الوحيدة على الدنيا يخفي عنه تدبيرا. لقد ألقى الشيخ إذن في زنزانة مصمتة وأغلق عليه بلا رحمة.

استدار بعينين دامعتين يحدق في أعلى الدرب. الجهات كلها ضنينة بالأمل مكبوسة بالصمت والعماء. من يسأل الآن إذن؟ في انتظار من يبقى قاعدا؟ ما كان للابن أن يضلع في مؤامرة الصموتين المنصرفين عن الشيخ في عجلة ولا مبالاة وضجر. يواصل التحديق حتى يرى ولده مقبلا. قلب الشيخ يصطخب على وقع خطوة الابن الثقيلة. شوق الرجل متعلق بابتسامة الابن العريضة. لن يسمح له بعد الآن أن يخفي عنه شيئا. عليه أن يقول كل شيء.. والآن.. إن الأب فرح وعاتب وخائف.

جلس الابن إلى جوار أبيه. كم كبر حتى ما عاد يرى فيه طفله القديم. اخشوشن الصوت يأتي من أعماق حزينة. ومن الوجه اختفت الاستدارات الناعمة الطفلية ونتأت الملامح كأنها قدت من حجر طاحون، واليدان قابضتان على صف الكتب على الركبتين. تلك أيدي الرجال الذين تمرسوا بالفأس وأنواء الغيط رجلا بعد رجل بعد رجل. مبارك أيها الابن الصالح. ربما فيه شيء من عطر طفولته البعيدة. يحكي والأب يسمع الكلمات بقلبه ويدركها بأساه.

فإنه في كل الأزمات كان الرجال وكانت الدار والبهيمة والحقل وراحة القلب. وكان جهد الفكر سر النماء والذبول والولادة والموت. وكانت رياضة الروح رحلة الصباح والمساء إلى المسجد الجامع، وإسلام الشوق إلى الأسى الدامع في التراتيل. تنكسر الأشواق قبل أن تهيم. مسدودة الآفاق بالمخاوف، محروسة بالرعب المانع جيلا بعد جيل. رجلا بعد رجل بعد رجل.

لكن، كيف ولدت الجرأة في عين الولد، والقدرة على التحديق دون

خوف في الآفاق. أكان الشوق دائما هناك. أوعته القلوب وأسلمته قلبا بعد قلب بعد قلب.

ـ نعم يا أبي... عليَّ أن أرحل...

الآن بعد أن كل البصر وضعف السمع يدرك الشيخ. كان على ذلك أن يحدث منذ أمد طويل، أن نخرج وأن نسأل. ربما كنا قد وفرنا على القلوب كثيرا من الحزن. ربما كنا قهرنا الحزن بمعرفة أصل الحزن.

قام العجوز واقفا مستندا على عصاه. قام الابن إلى جواره ممسكا كتبه. التفت إليها العجوز. رفعها الابن إليه حتى لمسها برفق.

دخل الابن إلى الدار ليسلم على أهلها قبل أن يرحل. حدق العجوز في الأفق عند أعلى الدرب. ها هنا سيترقبه كل يوم. ترى هل يرجع: الله يعلم. لكن عليه أن يرحل.

غسق

الولد كبر، ومن حق الولد على أبيه إذا كبر أن يؤاخيه ويخفض له الجناح. الأب في الحق طيب وديع لين الطبع. لكنك لم تره زمان. كان وحشا كاسرا. كان يسير صدرا منتفخا ووجها جهما مشرعا وعينين مغمضتين كأنما تزدريان أن تريا شيئا من هذه الدنيا.

كان ديكا شامخا أو جملا مولدا هصورا. يملك زوجتين رهينتي الدار. حينما تريانه فكأنما سخنت الأرض تحت أقدامهما فلا تستقران في مكان. صيحاته تطاردهما، تدفعهما تلقي بهما إلى كل ركن. والدار مليئة بالعيال والأجراء والبهائم والدجاج. وهو السيد من فوق كل هذا، السيد الرهيب المزدحم الجوانب بالهياج.

لكنه صار طيبا. كيف كان هذا؟ ربما بدأ الأمر بداية صغيرة. ربما كان أن خطأ صغيرا وقع تحت بصره. إذ ذاك ارتعدت كل الفرائص، انقطعت كل الأنفاس، توقفت كل القلوب عن الخفقان، سكنت عناصر الدار في انتظار وقع الصاعقة، في انتظار أن ينقض الشيخ على المخطئ بالعقاب.

والسيد التهبت عيناه البنيتان بالغضب. انتفخ صدره ثورانا والوجوه جامدة حائلة اللون كأنها أقنعة معلقة على الجدران. ثم لم يحدث شيء. لم يدو الانفجار المروع. لم يوقع بالمخطئ العقاب. والسيد استدار خارجا.

ربما كانت هكذا البداية. من يدري. من لا يزال يذكر. لا أحد يرى الهباءة الأولى إذا تنزل رأسية على السطح اللامع. إنما يفطن المرء إلى ذلك حينما ينكسر بهاء صقاله ويغزوه الغبش.

هكذا كان التسامح الأول. ربما. لكن ثمة شيئا انزرع في كل صدر وبدأ يكبر، هو شك، هو أمل. يأمل المخطئ أن السيد هذه المرة لن يلاحظ، ويرجو ألا يثور، وقد يرجح أنه لن يغضب، ويرى من الخير أن يتسامح.. لماذا؟ إن على السيد في نهاية الأمر أن يملك غضبه. هكذا كانت الهواجس المكتومة في القلوب توشك أن تخرج. فكل قلب به من الهم ما يكفيه.

وهكذا أصبحت للأيام عصارٍ. وأصبحت العصاري طيبة رضية. يعلمون أن الأب جالس على المصطبة أمام باب الدار، لكنهم يمددون السيقان من تعب اليوم، ويسندون الظهور إلى الحيطان.

ويدخل طفل حاجلا إلى وسط الدار لاعبا بشقفة يدفعها بقدمه:

ـ اعملوا قهوة..!

يكرر الكلمات ويبسطها، يفردها ويطويها. تتنهد الأم. جسمها زاخر بالتعب وأجفانها متهدلة، ورأسها مسنود على راحتها:

ـ قهوة لأبيك يا بنتي.. اعملي معروف..!!

غمغمت البنت وتبرمت. تلكأت الأم طويلا بين وسط الدار والكانون، حتى خرج الطفل حذرا ينقل أقدامه واحدة واحدة. رغم الحذر تهتز الكنكة وتراق القهوة حتى تصل إلى يد الأب وقد فقدت ختمها المعقود على فوهتها.

والولد جلس ـ مترددا ـ على طرف حصير أبيه الأبيض المفروش على المصطبة. نظر إلى أبيه بنصف عين. ثم أراح نفسه قليلا زاحفا على مساحة أكبر من الحصير. ثم ـ تصور ـ ابتسم، بل لقد حدث أنه ضحك. لو أن الأب زعق فيه لوقف قلبه. لكن الرجل سأله رفيقا:

ـ فيم تضحك؟

ـ مدحني المدرس اليوم أمام كل العيال..

والأب رنا إليه هادئا ودعا له. والولد فرح وكاد يقفز إلى حجر أبيه لولا أن بقية من صولته القديمة ما زالت تملأ القلب بالخوف.

لكنه كبر. اخشوشن صوته وتحملت شفته العليا بزغب ذهبي. جلس على حصير أبيه مطمئنا يسند ظهره للحائط، ويمدد ساقيه على آخرهما:

ـ ما أخوفني من امتحان هذا العام.. وتلك شهادة عامة..!

وقال الأب متضرعا:

ـ الله معك يا بني..!

يملأ الولد جلسة العصر بالجهامة. عيناه مركزتان على بقعة قصية أمامه. الأب يخالس جهامة ابنه نظرات قلقة متوجسة. فجأة يلتفت الولد جميعا، ويبتسم الأب مداهنا حائرا صغيرا. يجيب الولد على ابتسامة أبيه بابتسامة فيها إعزاز وحنان. يتناول يده. يربت على

نعومتها. يتحسس العروق سارحة في ظهرها متكسرة طرية.

تسرح نظرات الأب بعيدا. توغلان في المكان. توغلان في الزمان. في الأيام الغابرة. وينشق الشارع عن عطار جوال. يحمل حقيبة ذات غطاء زجاجي يشف عن صفوف وصفوف من الزجاجات الصغيرة والأحقاق الدقيقة. الزيوت والمراهم والمساحيق. الأسرار الغامضة المحتواة في الأواني المغلقة بالورق الشفيف الأخضر. وعلى مقبض الحقيبة تلتف أصابع الرجل بنية لامعة من تداول العقاقير. السبابة ينفرد حافظا الغطاء من الانفلات. كأنما يشير مؤكدا على محتوى الحقيبة.

عيون الأب تتحسس الزجاجات الصغيرة والأحقاق الدقيقة. فرح قديم. خوف قديم. رياح يضطرب لها القلب القديم. العطار معطف سابغ على قوام مرهف نحيل، وجه معروق، مشية واهنة في ظلال الحيطان كأنه وهم أو سر:

ـ السلام عليكم.

ويشرق وجه الأب:

ـ وعليكم السلام ورحمة الله... القهوة يا حضرة..!

ـ الله يشرح صدرك!

ـ وحياة الحسين!؟

ـ عزيز علينا الحسين..!

فالعطار من هناك جاء. يا بن بنت الرسول. لا يزال ثمة مستراح للأمل في الجنبات الفواحة بالعبير. هيام صوفي يكاد يدفع الدموع إلى عيون الأب. والعطار يميل، يهمهم وهو يلم ثوبه جالسا:

ـ لنا نصيب.. لا حول ولا قوة إلا بالله..!

سرى الخبر في الدار. وخرجت القهوة للضيف. لم يتأرق هموود العصرية، وساقا الأم بقيتا ممددتين على حصيرها.

ارتفع الغطاء الزجاجي عن صفوف الزجاجات والأحقاق. فاح الأريج وانشرح الصدر وانثالت الخواطر الفرحة. غمس العطار عود كبريت خشبي أبيض في حق عنبر. أذاب غمسة سمراء لامعة في فنجان

الأب.

ـ باسم الله يا حاج..!

أمال الحاج رأسه يمنة ويسرة مفعما طيبة وفرحة.

ـ يا سيدي يا حسين مدد..!

إبهام رجله تململ في المركوب. سرت في جسده المترهل تموجات من الابتسام. تموجات الدسم العائم ترتسم على سطح القهوة في الفنجان. طعم وأريج ورسومات غامضة تأسر المخيلة، يقول الأب متوسلا:

ـ هل تكرمنا بأن تأكل من زادنا يا حضرة..؟ لا نتكلف. ضيفنا كما أمر رسول الله..!

ـ الحمد لله..!

ـ وحياة الحسين..!؟

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله..!

دخلا إلى وسط الدار. وضعت الصينية الصغيرة من النحاس الأصفر بينهما على المصطبة. لا أحد يفهم شيئا. الوجوه علامات استفهام متناثرة في أقاصي الأركان. والسر يدور على نفسه، يجمع أطرافه، يتكور، ينكمش في همس مخبوء بين الأب والعطار. والعطار وجه حالم رفاف هضيم، أصابعه طويلة نحيلة مبصرة قائلة مؤكدة، ثم تستريح على الركبتين في سلام. والحاج التفت إلى أهل الدار صائحا بهم:

ـ هاتوا الوابور..!

صوته القديم! يارب الأشياء جميعها، لقد عاد صوته القديم وعاد معه الخوف منه. كالفل الذي داهمه الماء يهرع النساء والعيال والمعيز في كل اتجاه، يتعثرون في البطات والدجاجات وتطير من الفزع الحمامات. كلما تقابل وجهان ـ في التدافع المختلط ـ تلامست قرون الاستشعار. ما هذا؟ لا أحد يفهم شيئا، والصوت لا يزال يجلجل:

ـ هاتوا ملء كوز سمنا!

ـ هاتوا ملء كوز عسلا!

ـ هاتوا ثوما!

ـ هاتوا حلبة حصى حرة محمصة!

ـ هاتوا.. هاتوا.. هاتوا..!

كشفت جميع الأواني. فتحت الصناديق. حلت عقد الصرر. انتابت الحمى القديمة جسد الدار بعد أن كان قد نسيها واستكان إلى الترهل والهمود.

ثم فجأة يسمع وقع أقدام الابن الداخل من الباب. كبر. لم يعد زغبا ذلك الذي تحمله الشفة العليا، إنما خط أسمر ثقيل لا يهمس بل يقول أمرا متعاليا. رمق المشهد على المصطبة في لمحة، وفي لمحة أدرك الحمى التي تنتاب جسد الدار. هل أعاده ذلك إلى طفولته الحبيبة؟ يحس نفسه طفلا وهو يزحف متصاغرا ويجلس منكمشا على طرف الحصير يراقب في حذر ذلك السر المخبوء بين أبيه والعطار.

لكن الأب انكسر ازدهاؤه وزاحم بريق عينيه الغبش. يتضاءل. تطرف عيناه ناحية الابن في خوف. ينكس الابن رأسه غاضا بصره. تهمي في داخله دموع دافئة. لماذا يا أبي الحبيب. لماذا يقدر عليَّ أن أكبر. لماذا يحدث أحيانا أن يكون الابن أكثر طولا من أبيه، وأن يطرده ظله. أنا لا أريد يا أبي. أنا لا أريد.

العطار يتأمل القدر على الوابور. الأب ينقر بسبابته على ركبته في قلق. اكتشفوا أن العطار يحمل في يده سلة كان يجب على كل حال أن تملأ بالخبز والفطير. وأنه في يده السمراء الممدودة ينبغي أن تدس ورقة عملة. قال الرجل وهو ينهض واقفا:

ـ يبقى القدر على نار هادئة مقدار عشر دقائق. ثم ينزل ويترك ليبرد. ومن المطبوخ تتعاطى ثلاث ملاعق على الريق كل يوم.. يحصل المراد بإذن الله..!

ثم تسلل خارجا. ترك وراءه بقعة من الصمت على أرض وسط الدار. ابتسم الأب ابتسامة باهتة. نظر إلى القدر في ارتباك. أراد أن ينزله من على الوابور فلسعه النحاس الساخن. امتص أصبعه خجلا. قام الابن متمهلا إلى الوابور. أنزل القدر. أسرع يدير وجهه بعيدا. شيء ما في عيني الأب دفع الدموع إلى عيني الابن. جاءت الأم أطفأت

الوابور. نظرت إلى الأب متسائلة في عتاب خافت حزين:

ـ ما الذي يدور في رأسك؟

لم يحر الرجل جوابا. ينظر إلى زوجته وعلى فمه ابتسامة طفل مرعوب. قالت له امرأته مواسية:

ـ لقد كبرنا.. ما عادت تجدينا حكمة الحكماء.. وليس لنا إلا أن نرضى..!

هل ضمرت قدم الأب فأصبح المركوب واسعا عليه..؟ يمشي يخب فيه إلى مجلسه أمام باب الدار. خطوط ظهره محدودبة.

الصفارة

صف طويل جدا من الصبية يتسللون بين أعواد الذرة أفرادا أو أزواجا متباعدين يضعون تحت العيدان حفنات صغيرة من السماد الكيماوي. يعرفون أن وراءهم خوليا يسمعون صفارته ويخافون خيزرانته لكنهم لا يرونه.

الولد حسن والبنت هانم في طرف الصف. في يد كل منهما إناء مليء بالسماد. الأيدي النحيلة السمراء دائرة كبناديل الساعات بين الأواني وجذور الأعواد.

الجو ثقيل قليل الضوء. خيوط العنكبوت المعلقة بين العيدان تلصق بالجبهة والأصداغ. أوراق العيدان تشرخ الرقبة والخدود كسكاكين لينة. العرق ينبت مقرحا في الظهر وتحت الإبطين.

الولد حسن متوتر يضرب الأرض بقدميه ويرفس سيقان النباتات الطفيلية التي تشتبك بذيل جلبابه وجذور العيدان القديمة التى تنغرس في باطن قدمه.

حسن يلحظ هانم كل حين. تجفل قليلا وتبادله نظرة حذرة. يميل عليها فتنزاح جانبا رويدا رويدا. بعدا كثيرا عن باقي العيال.

أسرعت أنفاس حسن وكثرت لفتاته نحو هانم. وهى ازدادت جفلاتها منه عمقا. الحفنات الصغيرة من السماد أصبحت لا تصيب جذور العيدان تماما.

ازداد الجو ثقلا وعتمة. تحدرت قنوات من العرق على جسد حسن تحت جلبابه. سرى من كفه إلى ساعده ذوب الملح الكيماوي. لم يستطع بيديه الملوثتين أن يحك جلده الذي التهب كله نارا. زفر. مال برأسه وحك بقمة كتفه قطرة عرق تسير على مهل خلف أذنه. رمق هانم طويلا. أنفاسه تحدث صوتا وهى خارجة من أنفه. البنت نكست وجهها وأغفت. حفنة السماد سقطت بعيدا جدا عن جذر العود. هتف بها حسن:

ـ هانم..!

أقعت على مؤخرتها حالما سمعت فحيحه الصارم. زرعت كفيها في الأرض خلفها. ارتمى إناء السماد مائلا بجوارها. تدلى فكها الأسفل مفرجا شفتيها. خصلة شعر مبلول مغبر التصقت بجبينها. انحسر

ثوبها عن سروالها الأحمر ووركيها الضامرين. ارتكز حسن على ركبتيه وكفيه وبدأ يزحف نحو هانم. ثدياها الصغيران يرتفعان وينخفضان فوق صدرها.

فجأة سمعا صفارة الخولي. أمسكا الأواني بسرعة وعادا لوضع الحفنات الصغيرة تحت جذور الأعواد. ضاق صدر حسن. نزع بعنف ورقة عود ذرة كادت تنفذ بين جفنيه وتشج حبة عينه.

سبق هانم قليلا. أطرق هنيهة يتصنت. لا يسمع لباقي العيال صوتا. أكب على تسميد العيدان. ثمة كثير منها. الله يعلم متى يصلون إلى الترعة ليغسل عن يديه ذوب الملح الكيماوي الذي يسري في يديه كالنار.

وقفت جرادة نطاطة على قفاه. أنشبت ساقها المنشاري في جلده. وضع الإناء على الأرض. ضم كتفيه إلى رقبته. دارت رأسه بجنون يمينا وشمالا. أصر على أسنانه لم يستطع أن يقرب يده الملوثة من رقبته ليقبض على الجرادة وإلا التهب جلده نارا. طارت الجرادة من نفسها ووقفت على عود بعيد، ثم إلى غيره وغيره وحسن ينظر إليها مغيظا.

لا صوت يسمع سوى حركة يديهما الرتيبة بين الإناءين وجذور العيدان. جمد الولد حسن في مكانه وجمدت هانم بدورها كأنها جزء منه. انحنى إلى الأمام مادا أذنيه ليتسمع. لا نأمة سوى حركة الجنادب. كانا بعيدين جدا عن باقي العيال، وحيدين تماما.

استدار حسن متلصصا. يده اليمنى الملوثة بالسماد دارت مثل رأس ثعبان باحثة عن يد هانم.

جمـدت يسـراه معلقة في الهواء قابضة على وعاء السماد الكيماوي.

كبش حسن كف البنت بعنف وهو يدور بعينيه مفتشا بين العيدان مرسلا من بين شفتيه «هسة» طويلة متقطعة جاذبا معه هانم وهو يهبط ثانيا ساقيه حتى تقرفصا على الأرض وركبتاهما متلاصقتان وتكاد جبهتاهما أن تتماسا. أراد أن يدس يده في طوق ثوبها مفتشا عن ثدييها، لكنها ملوثة بذلك الملح الكيماوي. بدأ يحكها في الأرض بسرعة وعنف ليمسح عنها السماد.

فجأة سمعا صفارة الخولي. انتصب حسن واقفا. ولا بد أن شظية زجاج كانت قد شجت أصبعه، فقد كان يقطر دما.

انتظمت اليدان في ترددهما بين الإناءين وجذور العيدان. تسرب ذوب الملح إلى جرح الأصبع فالتهب نارا. توترت يد حسن القابضة على الإناء. يقبض يده المجروحة ويفردها بعنف. رمقته هانم قلقة وعيناها معلقتان على ظهره. قطر أصبعه دما دمعت عيناه. التفت لهانم، بادلته نظرة كسيرة. لكنهما معا استمرا يكبشان السماد تحت جذور الأعواد.

بعد قليل شع نور بين أعواد الذرة المتكاثفة. انفسحت الأرض وترقشت ببقع من ضوء الشمس. انتصب حسن واقفا. جرى نحو الترعة ليلقى بنفسه في مائها.

الخوف

كنت مخمورا أحاول جهدي أن أستجمع وعيي. سائق التاكسي رصين الكتفين، والعربة تمرق على الأسفلت المبلول المضاء بمصابيح الطريق.

يبدوا أنني مريض بالكبد. كمية الخمر الرخيصة في معدتي تثقل على وعيي مثل كلكل الجمل، لكنني يقظ وعارف، ومن طرف خفي أرقب تتابع الأرقام في عداد التاكسي.

هذا السائق كتفاه تتساوقان في حركة رتيبة أكيدة. بعد لحظات سأقول له:

ـ هنا..!

عندئذ يقف وأعطيه حسابه سآمره بالوقوف في صوت خفيض لكنه قوي وآمر، حتى لا يلحظ أنني سكران.

عيناي على عداد السرعة. تسعون كيلو مترا في الساعة. يا ربي. العربة تستلبني بهذا المروق الخارق على الأسفلت الناعم. أطرافي باردة بخوف مبهم:

ـ هنا... على اليمين..!

بليونة وقفت العربة. تفتحت عين خضراء في لوحة العدادات. ضغطة هينة على مقبض الباب انفتح. المعدن صقيل بارد. العربة جديدة متحفزة.

بعينين ساجيتين متعاليتين ألقيت نظرة علي العداد. أنا أعرف ما فيه سلفا، لكنني حريص على أن أبدو طبيعيا. بأناة خلعت قفازي ودسست يدي في جيب معطفي وأخرجت ورقة ذات خمسة جنيهات. عليه أن يرد لي ثلاثة جنيهات.

بنفس النظرات الساجية المتعالية تأملت كفه القابضة علي ورقة النقود ووجهه الذي تنعكس عليه أضواء لوحة العدادات. سألني وأسنانه تبرق بيضاء لامعة:

ـ معك جنيهان؟

ـ لا..!

ثم ترقرق في قلبي الأسى فأردفت:

ـ آسف..!

ثم قلت متوسلا:

ـ لا يهم..!

لكنه أزاح رجائي بقبضته القوية، ثم جذب محول السرعة وقفز بالعربة تاركا في أذني أمرا باترا:

ـ انتظرني هنا حتى أعود لك بالباقي..!

تسمرت في مكاني مرتبكا وخائفا قليلا. تتعلق عيناي بالعربة التي تبتعد مسرعة. وجدتني وحيدا. في مواجهتي على الضفة الأخرى من الشارع صف طويل من أبواب الدكاكين عمياء صامتة واقفة على حافة امتداد أسفلتي لامتناه مضاء بمصابيح الطريق. صمت مريب. الوحشة تزحف عليَّ من جميع الاتجاهات وأنا في بؤرة مخيفة.

انطلقت مسرعا إلى بيتي.

حذائي يضرب حصباء الطريق في ارتباك ولهفة. أسرع، أزيد سرعتي، أفر هاربا. دفعت الباب الحديدي فصر صريرا عاليا ككلب دست على ذيله. صعدت الدرجات القليلة قافزا أتلفت ورائي كالمطارد.

فجأة ملأ سمعي محرك السيارة. لقد عاد. بدأ يطلق نفيره بقوة. يدي تبحث عن ثقب المفتاح. النفير يلح وأنا أبحث عن الثقب في لهفة. النفير يدوي رهيبا. المفتاح يصطك بكل مكان ما عدا ثقب المفتاح. بدأ السائق ينادي. يزأر كحيوان مفترس:

ـ يا أستاذ.. لك ثلاثة قروش باقية..!

صفقت الباب ورائي بقوة، في ثوان كنت قد خلعت ثيابي، وطوحت بها، وقفزت إلى سريري، وأحكمت الغطاء حولي، وما زال السائق يزأر:

ـ يا أستاذ.. لك ثلاثة جنيهات باقية..!

تشبثت بالغطاء وأنا أرتعد. أحاول أن أهوي إلى قاع اللاوعي لأنجو.

هدر صوت العربة راحلا. أحسست بالخلاص. لا بد أن الشارع الآن ساكن تماما.

عيناي مغمضتان. الحذر يضغط على وعيي. يدوسني بأقدام ثقال. ذلك الامتداد الأسفلتي المضاء بمصابيح الطريق. فتحات أبواب الدكاكين. امتداد شاسع، يوغل في البعد حتى لأحس بالدوار. مستطيلات واقفة متتابعة، فيها مسوخ شائهة. ناس، أو هي جثث فئران هائلة متآكلة. ظلام تام ما عدا هذه المستطيلات المضاءة التي تقف فيها هذه الأشكال السخيفة. في داخلي تسح دموع دافقة.

في ذلك اليوم

شوكت أفندي مهندس التنظيم في المدينة الإقليمية الصغيرة يقوم بجولته التفتيشية اليومية على الدوكار الحكومي وبجواره السائق عم إبراهيم. شوكت أفندي يسوق الدوكار، يرطم بالعنان ظهر البغلة، والبغلة تجري بين دفتي العريش، ظهرها ثابت وقوائمها تعمل في الأرض عملا دائبا. يتفكر شوكت أفندي كيف أن البغلة مكتنزة لامعة لونها آدم قاتم كأنها زنجية قوية تسير على أربع. تأمل شوكت أفندي الظهر اللامع باستغراق. ثم فجأة ألقى نظرة جانبية على عم إبراهيم، رجل لا يفارق رسوخه أبدا. ضحك شوكت أفندي خجلا، ثم أغرق في الضحك. حينما ارتفع صوته جدا وجد أنه يضحك بلا معنى ضحكا أجوف.

عم إبراهيم، ذلك الكيان الهرمي الضيق الكتفين المفرطح الأرداف، الذي كأنما صنع خصيصا ليلائم كرسي السواقة، ساكن راسخ، إبهاماه متلاصقتان كما لو كان يمسك بمقود البغلة، وجهه هادئ إلى درجة تثير الانقباض وتجعل الإنسان عصبيا. يقول شوكت أفندي مرتبكا:

ـ كأن بها مسا هذه البغلة!

لكن عم إبراهيم غير مبال. تسحبت أذيال الكلمات حتى مات الخبر في سكون. بقيت دمعتان معلقتان على رموش عيني شوكت أفندي. مسحهما بظهر يده. زحف على روحه وقار حزين. هز عنان البغلة متئدا. تنهد:

ـ لا إله إلا الله!

ثم أغرق في صمت عميق حتى ما يحس بما حوله، باستثناء جزء من انتباهه ـ صغير لكنه ثاقب ـ يرقب عم إبراهيم في حذر.

* * *

قال شوكت أفندي لأبيه مرة بصوت خفيض متأثر:

ـ عم إبراهيم يحبني يا أبي!

في ذلك المساء كان الأب جالسا على السرير النحاس الهائل ذي الأعمدة الأربعة الشواهق، عجوزا دقيقا كأنه قبضة يد على ملاءة

السرير الناصعة. وكان شوكت أفندي جالسا على كرسي قريب منكس الرأس في هيئة بنوية شاهدة بالتوقير المتناهي. تكلم الأب مرتلا الكلمات، متمثلا بسطر من حكاية السيدة نفيسة بنت الحسين مع والي مصر المملوك:

ـ فاعترضت موكبه والخلق شهود تسأله: لم؟ أجابها السلطان: بما!

امتلأ قلب شوكت أفندي باليقين من كلمات أبيه، أغرق في الحزن حتى وإن قصر فهمه عن إدراك حكمة الكلمات. والأب أشرق وجهه بابتسام غريب، وتحركت حبات المسبحة بين أصابعه العجوز. رويدا رويدا نسى شوكت أفندي الأمر كله وهو يتابع الحركة الحذرة لشارب صرصور يختفي وراء الدولاب.

لكن شوكت أفندي في ذات المساء أكد لامرأته وهو يلهث انفعالا:

ـ مرات كثيرة أوشكت أن أتورط في جناية، لولا أن كان هناك عم إبراهيم..!

وامرأة شوكت أفندي لها عينان سوداوان كبيرتان فزعتان. ترقد إلى جوار زوجها، رأسها ساكن ملتصق بالمخدة. شوكت أفندي يلح عليها، يؤكد حكايته بيديه وبكل ملامح وجهه، إلى أن يئس، أما الزوجة فقد ارتعش جفناها وانكمش رأسها داخلا بين كتفيها كأنها سلحفاة خائفة. ثم أغمضت عينيها ونامت.

عم إبراهيم راسخ على كرسي السواقة. ابتسم له شوكت أفندي بتعقل وتكلم وهو ممتلئ رقة وعذوبة:

ـ أتعرف يا عم إبراهيم.. إنه اليوم.. سبوع ابنتي..!

شفتا عم إبراهيم المزمومتان استراحتا فيما يشبه الابتسام، مما جعل شوكت أفندي يندفع في نوبة ابتهاج كادت تقذف به من الدوكار. طوح بمقود البغلة إلى حجر عم إبراهيم. أخذ الرجل العنان فاتصلت روحه الرصينة بروح البغلة الحرون. شوكت أفندي مبهور الأنفاس ورأسه مليء بصورة ابنته في لفائفها الناصعة البياض. وجهها مغمض العينين أحمر كجزرة مسلوقة. أحس شوكت بحب جارف نحو الطفلة. تكلم منفعلا:

ـ أحبها بلا حدود يا عم إبراهيم..!

عم إبراهيم منصرف، يهمس للبغلة بحبل العنان همسا منفعلا

رشيدا. أحب شوكت أفندي ابنته مرة أخرى باستئثار، كحدأة تأخذ فرخها في مخالبها. نظر إلى حيث يكون المارة في الشارع الخالي وفي عينيه وحشية لبؤة أم. مد يده إلى حقيبته. استخرج قلما من الصلب وكراسة كبيرة صفحاتها مقسمة إلى مربعات، وبسطها على ركبتيه، وظل يرسم ويخطط واهتزاز الدوكار يربك خطوطه، وإن لم يؤرق تفكره العميق. يلوح بيديه في الهواء مجسدا تصوراته. ثم أخيرا وبحزم أمر عم إبراهيم:

ـ إلى شارع السكة الجديدة.

باستسلام حول عم إبراهيم رأس البغلة، وباندفاع تكلم شوكت أفندي:

ـ سأقيم لها حفلة سبوع هائلة!

ملامح عم إبراهيم ساكنة خالية من أى تعبير، لكن شوكت أفندي يتابع حديثه مبررا نفسه:

ـ إنها أول خلفي!

والسائق بارد الهدوء كأنه تمثال بازلت تتكسر عليه كلمات شوكت أفندي، لكنه يتابع في صوت مشروخ:

ـ أحبها بلا حدود يا عم إبراهيم!

البغلة برمة بأرض شارع السكة الجديدة غير المستوية، ترفس برجليها وتضرب الأرض بيديها وتطوح برأسها إلى الأمام جاذبة العنان من يد السائق عنيدة شكسة. عم إبراهيم يجيب البغلة بكلمات العزاء وهو يميل مع الدوكار الذي يترنح بين الحفر، بينما يتقافز في مقعده كيان شوكت أفندي الخفيف.

وقف الدوكار أخيرا أمام باب الدكان. في نافذة العرض الزجاجية كرسي كبير مذهب وأكداس مصفوفة من فناجين القهوة وكئوس البللور وأباريق الفضة على منضدة من الرخام قائمة أمام خلفية من قماش الخيام المقسم إلى زخارف هندسية ملونة وآيات قرآنية بجميل الخطوط. صاحب الدكان واقف على الباب معروق الوجه ناشف كفرع السنط. قفز مهللا حالما أبصر بالدوكار قادما:

ـ أهلا يا بك.. يامئة مرحب.. نورت السكة الجديدة!

قال شوكت أفندي مخافتا:

ـ مرحبا بك يا حاج درويش!

أمسك الرجل يد شوكت أفندي الطرية في يده المعروقة كمخلب حدأة وقبض عليها بشدة وهو يركز بصره في عينيه. ليس للرجل عينان، بل ثقبان يشعان بريقا مخيفا. تدفق مكلما شوكت أفندي:

ـ والله العظيم إنك لمنصور على أعدائك يا شوكت بك! أراني الله ذلك في المنام!

حاول شوكت أفندي دون جدوى تخليص يده من مخالب الحاج درويش. يتدفق الرجل حاكيا متجاهلا المحاولة:

ـ فليجعل الله رؤياي من نصيبك يا بك!

قال شوكت أفندي كأنه يتوسل، عاجزا عن تخليص يده:

ـ أريد مئة لمبة وخمسين منديلا..!

ترك الرجل يد شوكت أفندي فجأة وصفق بيديه صفقة مدوية، دائرا بجسده كله على كعب حذائه دورة كاملة بقوة جعلت جبته تنتفخ ويبدو من تحتها قفطانه هتف صارخا:

ـ لقد تأولت رؤياي..!

ثم واجه شوكت أفندي ويداه طائرتان في الهواء في هيئة دعائية وتكلم مرتلا:

ـ حلمت بأني أراك وسط نور.. وكأنما انفتحت أبواب السماء في ليلة القدر..!

ثم مال برأسه داخل دكانه وصاح:

ـ يا ولد..!

ثم استدرك ملتفتا إلى شوكت أفندي يسأله:

ـ الليلة إن شاء الله..؟

رد شوكت أفندي شاردا:

ـ إن شاء الله..!

هز الحاج درويش رأسه ملبيا مشيرا بسبابته مرتين إلى وجهه أسفل ثقبي عينيه وهو يؤكد:

ـ من عيني هذه.. ومن عيني هذه.. وسأزين البيت بالمصابيح والمناديل بنفسي!

رد شوكت أفندي بكلمات ناعمة متعثرة:

ـ حفظك الله يا حاج..!

مخلبا الحاج قائمان مثل رأسي أفعيين، يدوران يبحثان عن يدي شوكت أفندي.

يكلم الرجل شوكت أفندي:

ـ كنت أريد أن أمر بك اليوم في مكتبك!

شوكت أفندي يهرب بيديه. يرد وهو في غاية التوتر:

ـ خيرا إن شاء الله..!

اكتسب وجه الحاج درويش قسوة رهيبة وهو يقول:

ـ كتبوا إليَّ يطلبون مني أن تتوافر الشروط الصحية في دكاني..!

ثم أصبح صوته صراخا مجلجلا وهو يقول:

ـ أنتم يا موظفي المجلس البلدي ليس لديكم ما يشغلكم سوى تصديع الناس بمكاتيبكم الخرقاء..!

ثم دفع بنصفه الأسفل إلى الأمام في حركة سوقية وهو يردف:

ـ أى شروط صحية تلك التي يجب أن تتوفر في دكان فراشة..!

في هذه اللحظة كان قد نجح في اقتناص يد شوكت فأطبق أصابعه حولها، وباليد الأخرى قبض على قمة الكتف وأنفاسه تلفح وجه شوكت الذي بدأ يلهث ودرويش لا يفلته. تكلم شوكت من وسط ارتباكه:

ـ دع أمر هذا الخطاب عليَّ أنا يا حاج درويش!

عصر الحاج اليد الطرية في مخالبه وهو يقول:

ـ ليس لنا في المجلس غيرك يا شوكت أفندي..!

نبتت حبات دقيقة من العرق في أعلى جبين شوكت أفندي. تخلص هاربا وهو يردد بشكل آلي:

ـ ليس لنا جميعا إلا الله..!

ثم قفز إلى العريش واستقر على الكرسي بجوار عم إبراهيم.. رطم هذا ظهر البغلة بالعنان، غرست قوائمها في الأرض وجهدت حتى انتزعت الدوكار من ثباته. بدأت العجلات تكركر على الأرض بنشاط.

تأمل شوكت أفندي ظهر البغلة اللامع. أحس بشبق غريب للفعل. تناول العنان من يدي عم إبراهيم. توترت البغلة إذ أحست به يسوق. وهو تناول السوط من مجاله الأسطواني المثبت في العريش. ساط ظهر البغلة فجن جنونها وطار الدوكار. واصل شوكت أفندي سوط ظهر البغلة متأملا لمعته الدهنية. يرص الضربات الواحدة بجانب الأخرى بأناة. ثنيتاه تأكلان في لحم شفته السفلى. رأى ذبابة كبيرة تندفع تحط على كفل البغلة، تستل خرطومها الأحمر وتغرسه في لحم الحيوان بنهم. تأمل شوكت عملية امتصاص الدم بشغف ورعدة. فجأة رفع السوط وفتك بالذبابة. ثم ألقى بالعنان إلى السائق وهو قانط تعب يقول آمرا:

ـ إلى سوق الخضار..!

* * *

في نهاية الشارع سوف يجد (مكتب الفن الحديث). هناك سوف تكون نرجس امرأة الشراني. في داخله يهتف صوت مجلجل:

ـ يا لها من امرأة..!

اختلطت في ذهنه مشاهد مضاءة بكهرباء باهرة. مشاهد مضطربة بفعل كئوس خمر رخيصة. امتلأ جوفه بالضحك من ذكرى كل هذه المشاهد. إنه في مثل هذه المناسبات يكون أكثر الناس مرحا وزياطا. كلم صورة لعم إبراهيم في خياله، دون أن يلتفت إلى السائق الجالس بجواره:

ـ إنني أحب الهيصة!

استخفه حنين غامر نحو ابنته. سمع صوته يجلجل داخله:

ـ فليكن حظها سعيدا..!

ثم طن في داخله الصمت. انقبض قلبه. إنها بنية. كيف يكون للبنت حظ. خطرت صورتها في خياله كبيرة فاتنة تتأود. كادت تصوراته تدفعه إلى الجنون. مسحها من ذهنه بقوة. المسائل معقدة. على كل حال سيتفق مع الشراني وتكون ليلة سبوع بنته ليلة أنس.

* * *

قفز من الدوكار منتشيا كديك. مشى عريض الكتفين إلى مكتب الفن الحديث. كانت نرجس جالسة على بلاط الدكان ترعى بضعة كتاكيت تدور حول مسقاتها الصغيرة في بقعة شمس مستديرة على الأرض. المرأة لحيمة داكنة تبدو ثنيات جسمها تحت ثوبها الضيق المهلهل. انتصب شوكت أفندي واقفا وسط الدكان ونرجس عند أقدامه. ابتسم يراقبها تبذل جهدا كبيرا لتقف. تلهث في جهدها مرحبة:

ـ أهلا شوكت أفندي.

ثدياها الكبيران بارزان من طوق ثوبها تحت عينيه، داكنان تسرح فيهما عروق خضراء. شعرها خشن هائش ضائق بالمنديل المعصوب عليه. تفكر شوكت أفندي كيف تعد نرجس نفسها لليالي، تطلي وجهها بالمساحيق وتغرق شعرها بالزيت العطري، وتلبس الحرير والترتر وتغدو كالسنيورة.

هبشت نرجس الشراني الذي كان نائما على كنبة بعرض الدكان حتى هب قاعدا. فرك عينيه ودار بهما في أنحاء الدكان حتى أبصر شوكت أفندي. حياه:

ـ أهلا شوكت أفندي.

على طاولة بجوار الحائط كان ثمة كومة من قشر الفول الأخضر وطبق به بقايا جبنة بيضاء ثم قطع خبز وفتات. أرض الدكان وسخة من زرق الكتاكيت.

دار الشراني بعينيه في هذا كله وكلم امرأته ضائقا:

ـ اكنسي يا امرأة هذه الوساخة بعيدا..!

تدخل شوكت أفندي مهونا الأمر على الشراني:

ـ لا تشغل بالك يا أسطى..!

ثم التفت إلى نرجس:

ـ ولا تتعبي نفسك يا ست..!

وريثما يفرغ الشراني من فرك عينيه المحمرتين وتسوية شعره الهائش، وتفرغ نرجس من كنس قشر الفول، دار شوكت بعينيه في الدكان ملاحظا الآلات المعلقة على الحيطان، والصور المأخوذة من بعض الأفراح. تأمل الست نرجس في الصور ترقص متمايلة على المتفرجين النشوانين. نبهه الشراني من شروده مع الصور قائلا:

ـ سلامات يا شوكت أفندي..!

أدرك شوكت أفندي نغمة التساؤل في ترحيب الشراني فتكلم موضحا سبب زيارته:

ـ العقبى لك.. الليلة نحتفل بسبوع بنتي.. مصابيح ومناديل.. وآلاتية..!

هتف الشراني مبديا استعداده:

ـ نحن دائما في خدمتك يا شوكت أفندي!

قال شوكت أفندي موضحا الناحية المالية في الاتفاق:

ـ ولكم ما تحصلون عليه من نقوط المعازيم.. لا غير!

ثم أردف بعد لحظة صمت شاملة:

ـ تعرفون أن أقاربي كثيرون وأصحابي بلا عدد والكل محمل بجمائلي..!

تدخلت نرجس مسرعة نافية أى تردد من ناحية الشراني:

ـ لياليك ندا وحياة النبي يا شوكت أفندي!

عند ذلك اضطر الشراني للموافقة. قال مغلوبا:

ـ على العين والرأس يا سي شوكت..!

سوى شوكت أفندي معطفه مستعدا للانصراف وهو يقول:

ـ لن أوصيك يا سي محمود.. التخت بتمامه.. كل الآلات!

قال الشراني مجاملا:

ـ لا توصني.. البنت بنتي.. ربنا يجعلها مسعدة..!

اندفع شوكت أفندي خارجا. وإذ يضع رجله نازلا على أول درجة، التفت دون قصد ملقيا نظرة خاطفة على الدكان. الزوجان يعودان كل إلى وضعه الأول وعلى وجهيهما تعبير متشابه من الاشمئزاز واليأس.

عم إبراهيم والدوكار والبغلة في حالة سكون تام كأنهم مرسومون على الحائط المقابل. داس شوكت أفندي على السلم صاعدا إلى مقعده بجوار السائق. اهتز المشهد تحت ثقل جسمه. بعد جهد بدأت العجلات تكر على الأرض المرصوفة بحجارة ناتئة.

* * *

نشبت التساؤلات في عقل شوكت أفندي. أيبارك ابنته في سبوعها بالآلات والرقص والخمر..؟! إن البنية قد تموت في أية لحظة.. أبهذا تذهب إلى ربها؟ شيء مخيف! كلم شوكت صورة لعم إبراهيم في خياله دون أن يلتفت للسائق بجواره:

ـ أتعرف يا عم إبراهيم أنني تلقيت العهد على يد شيخ طريقتنا..؟

كان ذلك بعد أن رجع من الشام. هناك اشتغل في رصف الطرق مع الجيش الإنجليزي، وقضى مع تجار المخدرات ومهربي السلاح زمنا عجيبا لم يبق منه سوى ذلك الصندوق المترب المليء بالرصاص وسوى المسدسين تحت السرير في غرفة نومه حيث ترقد على السرير زوجته وابنته الوليدة. خنقت أصابع الخوف الحديدية قلبه.

إنه في ذلك اليوم أراد أن يتوب. وكان الشيخ جالسا على تلك الكنبة في غرفة الجلوس في بيتهم متكئا على نمرقة وعمامته الخضراء مائلة على جبينه. يا لها من عمامة خضراء أنيقة، يالنبالة الجبين ووسامة العينين والحاجبين ودقة الأنف وثراء الشفتين وريح الرجولة الآسر في تناسق الملامح وامتلاء الكتفين. جلس شوكت على

أقصى طرف الكنبة محاذرا في هيئة توقير متناهية يرجو متذللا صادق التوبة عازما على بدء حياة جديدة:

ـ وحياة النبي يا عمي.. وحياة جدك الرسول.

والشيخ صامت لا ينبس ببنت شفة. تسرح عيناه في سماء الغرفة وأصابعه المنمقة تداعب في أناة حبات مسبحة صغيرة من الكهرمان الأحمر تتدلى منها حلية فضية. يواصل شوكت أفندي توسله:

ـ والنبي يا عمي.. أنا عارف أنك تخاف عليّ.. تخاف ألا أصون العهد فينكسر ظهري بذنبي.. لكن يا عمي.. أنا أتوب على يديك.. أريد أن أصون نفسي بالعهد..!

والشيخ صامت تنام رموشه الكثيفة على وجنتيه في صفاء. أخيرا وبعد إلحاح طويل من شوكت أفندي اعتدل الشيخ في مجلسه قائلا:

ـ طيب يا شوكت أفندي..!

* * *

الدوكار يمشي الهوينى. العنان يمتد بين رأس البغلة وإبهامي عم إبراهيم. ويوصل بينهما تفاهما غامضا غريبا. يحس شوكت أفندي أنه منفي. يكلم عم إبراهيم متوسلا:

ـ تعرف يا عم إبراهيم.. لو أنك رأيت شيخ طريقتنا ما شبعت منه أبدا.. يا سلام.. يصغرني بعام.. وأرى فيه أبا لي!

وقبل أن يرى انعكاس كلماته على عم إبراهيم هتف به آمرا:

ـ على المحطة يا عم إبراهيم!

عند المحطة قفز شوكت أفندي من الدوكار وصعد السلم جريا. دخل غرفة الهاتف وحيا تادرس أفندي ملهوجا. رفع الرجل له عينين مربضتين في وجه متهدل. طلب له النمرة وأشار له على ركن الغرفة. رفع شوكت أفندي المسماع وبدأ يصيح. صوته يملأ الفراغ الصامت. تادرس أفندي تتدلى شفته السفلى وخدوده في فزع.

شوكت أفندي يزعق:

ـ أيوه يا عمي.. أنا شوكت.. أهلا يا عمي.. يقبل الأيادي.. لأ.. سبوع بنتي الليلة.. لا بد من حضورك.. والدراويش.. بإذن الله.. ضروري.. حاضر.. الحذر من التأخير!

في داخل شوكت أفندي رضاء صوفي دامع، نفس الإحساس الذي أغرق روحه يوم أخذ العهد. يتأمل وجه تادرس أفندي المفزوع ويكلمه بعذوبة:

ـ أريد مكالمة أخرى يا عم تادرس!

وبعد أن يكلم أخته يؤكد عليها ضرورة حضور سبوع بنته الليلة يضع المسماع واثقا أنه سيكون سبوعا مباركا، فهو أيضا سيرى أخته بعد مدة من التجافي. انتشى وهو يحس طعم ضمها إلى صدره بعد كل هذا الغياب. تفكر أن الشيخ أيضا سوف يفرح بلقائها. انغرست الفكرة في روحه كحمة العقرب. يمشي السم في عروقه إلى قلبه. وجع يذهله عما حوله. نزل سلم المحطة العالي درجة درجة. الدوكار في القاع ينتظره. يساق إليه خائفا. قال لعم إبراهيم متوسلا:

ـ أوصلني إلى البيت.. ثم عد أنت بالدوكار..!

* * *

وفي ذلك المساء كانت الردهة في بيت شوكت أفندي متقدة بضوء أبيض باهر لا يترك أثرا لظل. محمود الشراني يضع القانون على ركبتيه ويتقدم فرقة الآلاتية، تكاد عروق رقبته تتفجر من انهماكه في الغناء. نرجس متلألئة في الضوء تملأ الدنيا رقصا. الناس يلصقون القروش على جبينها ويختلسون القرصات من أردافها. عم إبراهيم يداه في حجره، إبهاماه متلاصقان، ينظر إلى كل شيء في سكون بازلتي عنيد. ينقض عليه شوكت أفندي، في يده كأس وجبينه ملتهب مندى بالعرق:

ـ نورت الليلة يا عم إبراهيم..!

ودون أن ينتظر يقفز مبتعدا. لا يستقر في مكان يوزع التحيات ويختلس القرصات وهو ممتلئ بإحساسات داعرة عارمة. هذه الردهة المليئة بالضوء والموسيقى والزياط والغناء والنشوة موجودة في صميم وجدانه. لكن تلك الغرف القليلة الضوء المحيطة بالردهة تلح عليه بظلالها الشبحية. يمرضه القلق حتى يشمئز من كل ما يرى حوله في الردهة التي تضج بالضوء والزياط.

يقطع الصالة وثبا ويفتح بابا في طرف قصي منها. تسقط نظراته على جدار أصفر شاحب من الضوء القليل. بعد لحظات يميز بضعة رجال يلبسون جلابيب ريفية، ويتعممون بشيلان وسخة على طواقي مؤطرة بالعرق ويترنحون بأبيات من بردة الأباصيري. هؤلاء هم دراويش الشيخ. حينما رأوا شوكت قطعوا القراءة ورفعوا إليه عيونا مداهمة، وهتف واحد منهم:

ـ مبروك يا شوكت أفندي.. ربنا يجعلها بنية مسعدة!

لم يرد شوكت. شرد قليلا متفكرا، أتكون البنية مسعدة إذا تزوجت رجلا لا يسألها عن شيء؟ الدراويش يواصلون تحيته:

ـ عقبي لسبوع الولد إن شاء الله!

تقزز شوكت من الوجوه التي تسيل مداهنة. خرج إلى الصالة. ضاع الخمار من رأسه وامتلأ بيقظة متوترة.. دخل على امرأته في غرفتها. مشى في الضوء القليل إلى السرير. جلس على حافته. انحنى على اللفائف يتأمل وجه ابنته. مغمضة العينين. يحدق في وجهها بلا معنى. زوجته ترقبه فزعة العينين. نظر إليها نظرة محملة بالكراهية العميقة. ود لو يسحقها. قام، اندفع خارجا. عرج على المطبخ. حماته هناك ترقب جماعة من الحلل تحملها عدة مواقد بريموس على رءوسها. عزمت عليه بقطعة من اللحم، رد يدها قانطا ونفسه زاهدة.

عاد مرة أخرى إلى ضجيج الصالة. ألقى بنفسه على نرجس. قناة من العرق تنحدر على صدرها وتغيب في فرجة داكنة غير مطلية بين ثدييها. ارتد على عقبيه يكاد يقيء أمعاءه تقززا. الوشوشة من الغرف المعتمة حول الردهة المضيئة تتسرب تحت ضجيج الردهة وتسلبه هدوء روحه. من الخير أن يذهب ويرى ماذا هناك بدلا من أن يصاب بالجنون. مشى، جسده متين ووقع أقدامه ثقيل على البلاط. وضع يده على مقبض الباب وفتحه. لم ير شيئا لأول وهلة، لكنه أحس بقوة أن ما تحتويه هذه الغرفة مختلف تماما عما في الصالة. نوع من السرور أصيل رائق.. قاتل.

تمالك نفسه. الشيخ متكئ على الكنبة وعمامته موضوعة إلى جواره. شعره حالك السواد مفروق لامع. وجهه قوي السمرة متورد بالسرور. الأخت جالسة عند أقدامه ووجهها مشرع إليه لضحكاتها رنين أجراس فضية. الزوج جالس على أقصى طرف الكنبة خارج دائرة الاهتمام يبتسم مداهنا. الأب على السرير متداخل في نفسه

متشبث بمسبحته على وجهه رعب غامض.

بقي شوكت واقفا عند الباب يرقب أخته والشيخ. حينما تنبها له ابتسم محييا. ضاعت ابتسامته في لا مبالاتهما الصادقة. نادى شوكت على أخته وخطا خارجا من الغرفة يقف على الباب منتظرا. جاءت له. وقفت تحت بصره. من الغضب لا يراها. ألم سرطاني يفتت جسده. سأل شوكت أخته مرتجفا:

ـ ما الذي يدور..!؟

أجابته دمثة عذبة:

ـ يدور ذلك الذي رأيته يدور!

فتح عينيه. طوق ثوب الأخت يبدي بعض ثدييها أبيض ناصعا. مد يديه إلى رقبتها ليخنقها. تحركت حركة لينة مفلتة منه دون جهد. فتحت الباب ودخلت وأغلقت وراءها.

لدقيقة بقي شوكت وراء الباب المقفل يرتعش والدموع تنهمر في داخله. فجأة اندفع إلى غرفة نومه. انحنى يبحث تحت السرير الذي تنام عليه زوجته وابنته. أخرج الصندوق المليء بالرصاص وعلى وجهه المسدسان. أمسك المسدسين في يده واندفع ليخرج. قفزت زوجته من السرير وتشبثت به. صاح محاولا التخلص من قبضتها:

ـ اتركيني!

لكنها ممسكة به مستميتة عليه. جاءت الحماة على الصوت تجري من المطبخ تصيح به:

ـ اخز الشيطان يا شوكت.. يا بني!

يواصل شوكت محاولاته لتحرير نفسه من قبضة زوجته. فجأة تلتقي عيناه بعيني حماته. إنها عارفة وساخرة ومزدرية بدرجة لا يحتملها رجل. انهار في وقفته. تدلى ذراعاه وتراخت قبضتاه عن المسدسين فسقطا. ارتطما بالبساط رطمة واحدة مكتومة. لم يأبه لهما أحد. الحمد لله كانا غير محشوين.

في الصباح قام شوكت من النوم متعبا مهدود القوة. وضع المنشفة على كتفه وخرج قاصدا دورة المياه. ثم عن له أن يجوس في البيت. الكل نائمون. في الردهة مازالت بقايا الليلة الماضية. لمبات مطفأة

وكراسي مبعثرة. كرسي عم إبراهيم لم يتزحزح عن مكانه وكأن الرجل ما زال جالسا لا يؤرق رسوخه شيء. استدار شوكت على عقبيه ومضى إلى الحمام.

نظر في مرآة حوض الغسيل. وجهه لا لون له. أو هو شمعي باهت. لو كان أكثر دكنة. لو كانت ملامحه أكثر قوة. لو كان شعره أسود حالكا. نكس رأسه وأسلم لسيال الماء البارد من الصنبور يدين ميتتين.

الهجرة إلى غير المألوف

الصوت

أجري، لا أدري ما الذي أهرب منه ولا الذي أبحث عنه، لكنني أجري بكل ما في القلب من عزم وما في الجسم من مروة.

صفًّا المصابيح على جانبي الشارع يدهشهما وقع خطواتي على ثلج الرصيف، ينظران إليَّ بعيون صفراء تتسع دهشة واحدة بعد الأخرى، وأنا أحث الخطى، تغوص مني الأقدام في هشاشة هذا السكون السرمدي المليء بأسرار الظلال الشاحبة والضوء الأصفر.

هذه أرض النهار فيها وجيز وشمسه معلومة تسطع على أرض مكدس فوقها الثلج، والليل يمد جناحيه فيها على ثلاثة أرباع دائرة اليوم، وأنا أدور يائسا مكدودا في هذه الدائرة المبلولة مخنوق القلب، أعرف أنني سأمشي إلى يوم الدينونة، وإنه لمخزن أن أقدامي لا تترك في هذه الأكداس من الثلج على الأرض أثرا.

حينما خرجت من بيتي هذا الصباح في الخامسة رأيتها، السيدة وعربة طفلها. كل يوم في هذه الساعة وفي هذا المكان أراها فيمتلئ قلبي أمانا. إنها تميمتي، وربما أخشى أن تفوتني مقابلتها ذات صباح أكثر مما أخشى أن أتأخر على عملي. وإذا ما وازتني على الجانب الآخر من الشارع ماضية عكس اتجاهي، تشربت حواسي تلك العرامة الكامنة في رسم أم والدة تحمل وليدها ماضية لشغلها.. حينئذ يجلجل في قلبي غناء أسيان، تراتيل حضرة، استغاثة مؤذن، أو آهات من مواويل الصبر.

لكنه الصوت العصي، الصوت الذي لا أستطيع غناءه. سأظل أغني حتى أجده، مبحوحا ثقيل القلب. لو أنني كففت لو أنني وقفت، إنني أذن سأسقط ميتا.

أمامي اليوم ـ وكل يوم ـ عمل شاق حتى المساء. يبهظني الإشفاق والوجل، ولكنني أمضي بلا تردد. لم أكن أتصور أبدًا أنني أملك القدرة على استمراء العذاب، والتعلق بالوهم الكامن مخبوءا خلف الحقائق الصقيلة السطوح الحادة الزوايا. كأنني أقول، ما ضر لو امتلك القلب كبرياء الظن بعد أن استحال كبرياء الحقيقة، إن الواحد إذن يألم ولا يبث، وتبقى له قدرة الحدب على الأشياء.

وحينما نزل هذا الصديق برلين الغريبة طاف بي في ذات مساء. جلست قبالته محطما متعبا، وهو أطل عليَّ بوجهه السمين وملامحه الوسيمة..

ـ لماذا..؟ أي سؤال معضل عويص الإجابة يرمي بك في هذه الغربة وفي هذا الشتاء..؟

يقول وأنا صامت. ونحن هنا أيضا في صمت، في غرفة الاستراحة حول مائدة غذائنا. عرب وأتراك وإيرانيون وزنوج وغير ذلك. نلوك اللقم وما يوصلنا ببعضنا من كلمات ألمانية عاجزة. هل أطل عليهم من فوقهم بوجه سمين وسيم الملامح وأفدحهم بالأسئلة العجيبة. لا أملك هذه الفصاحة. وهزني هذا الزمن بأسئلته، يوشك أن يثقل عبؤها كاهلي، أسقط بلا أدنى أمل في أن أقوم.

لكنني أتصنت على قلوب هؤلاء الرفاق أريد أن أسمع الأصوات. ناس من أزقة مدن جنوب آسيا، من أكواخ القرى في جنوب أمريكا، من غابات إفريقيا، غليظو الأقدام مبقعو الجلود شائهو الملامح. من فجاج الجنوب أتوا ونحن هنا التقينا. كيف هي في كل صقع من أصقاع جنوب الدنيا الجوامع والكنائس وحلقات الفرح وحلقات الحزن، كيف هي القراءة والترتيل والعديد والغناء. كيف هي الأصوات. أتسمع.

أتذكر المقيدين بالسلاسل إلى مجاديف السفن، العاملين تحت وقدة الشمس في مزارع القطن والموز، العاملين في برودة الفبريقات الثلجية. أتذكر غناء الناس المكبلين بالسلاسل، بالخوف، بالعجز، بالرغبة في أن يجدوا الصوت العصي الذي لا يستطيعون غناءه. سأظل أغني حتى أجده، مبحوحا ثقيل القلب. لو أنني كففت، لو أنني وقفت، إنني إذن سأسقط ميتا.

أضرب بأقدامي في الثلج والصمت والعتامة حتى لتدهش من تصميمي ولهوجتي مصابيح الشارع. هكذا كنا جميعا ونكون، لا تسل عن السفن تمخر عباب المحيط، ولا عن الطائرات، ولا عن شواهق المداخن على سطوح المصانع الهائلة. لا تسل عن عدة الحرب ولا عن عدة السلم، بل سل عن غنائنا واسمع لأصوات قلوبنا. ما زلنا نغني، يزداد الغنى ويزيد فقرنا، يزداد النعيم ويزداد بؤسنا، نأتي من أصقاع الجنوب حجيجا رثا بائسا يغني باحثا عن صوته.

نحن فريق من العاملين في هذا المصنع. من فوقنا يحلق ألماني حاد العينين مفرود الجناحين كحدأة عجوز ينقض فوق كل هفوة ويمزق صاحبها تمزيقا. أسلم نفسي مع الآخرين لعذاب اليوم، ننخرط في العمل دائخين زائغي العيون.

من العاملين معي يربطني برفيق منهم أنه لا يعرف كلمة ألمانية

واحدة. الصمت بيننا عميق وموحش حتى ليوشك أن يكون خوفا كذلك الذي أحس به إزاء مناطق في نفسي موغلة في البعد والغموض. نتحاشى أن تتلاقى عيوننا أو أن تتقاطع في حركتنا سبلنا. لكننى أحمل ملامح وجهه في خيالي وأقول في نفسي إنها ليست سوى مفردات من الشوق والألم عرفتها في مكان ما وزمان ما، بل إنني ربما عرفتها في كل مكان وكل زمان. أتجنبه وأراه، أبتعد لكنني لا أنفصل عنه حتى كان أن أقبل عليَّ.

الوجه فيه ابتسام ليس أنبل منه وفرحة ليس أصفى منها. لوح كأنه يخطب من فوق صخرة تحتشد تحتها الدنيا وتسمع له..

ـ هنا القاهرة.

كيف أنني كنت نسيت هذا الصوت، حينما كان مذياع القاهرة يقول فيهتز العالم، حينما كان صوت القاهرة هو صوت المغلوبين والمقهورين والذين يحاربون حتى تكون الدنيا أحسن. تذكرت. عادت تتدفق في عروقي فرحة كانت مطمورة منسية. حمدت لصديقي تحيته وتذكرته. مشى ومشيت. كل منهمك في عمله.

أعود إلى بيتي في الثلج والصمت والعتامة. كان نهارا وجيزًا ذا شمس معلومة، دام وهنًا ومات، لكنه بقي في قلبي يضيء وجه ذلك الرفيق في العمل، وإذا يغني قلبي فإن الصوت يعلو ويتضح.

القاهرة ١٣/ ٧/ ٨٢

عطية أبو العينين داود

كلما ازداد صخب هذه الدنيا، زاد صوته في ذاكرتي جلاء. وكلما تنكرتني الأشياء ونبت عن ذوقي وعبست في وجهي، كلما زاد بالسيارات، زاد تعلقي بعربته الأجرة القديمة، عطية أبو العينين داود.

كنت أفتح عيني صبح كل يوم، وقبل أن يكتمل صحوي يكون القلب قد امتلأ بذلك الروع المدمدم في الخارج. لا أرى ما حولي ولا أحس به، ألقي اللحاف من على رجلي، أنهض واقفا على ظهر الفرن، أقفز إلى المصطبة، إلى قعر الغرفة، وأمي تهتف بي:

ـ على مهلك..!

وأرد ملهوجا:

طيب..!

ويوقفني صراخ أمي على عتبة الباب:

ـ البس طاقيتك..!

ـ أعود على عقبي، أخطف الطاقية من تحت الوسادة على الحصير، أضعها على رأسي وأطير:

ـ زر طوق جلبابك..!

أنفخ حانقا، أزر طوقي ثم أندفع:

ـ البس حذاءك..!

أصرخ منتحبا يائسا:

ـ طيب..!

أدس قدمي في الحذاء المتصلب كقالب مصبوب، مفروشا بطبقة سميكة من الطين، لم يكن له رباط أبدا. أضرب به الأرض وهو في رجلي حتى تدخل فيه القدم، وما يكاد حتى أطير خارجا.

ذلك الطقس اليومي الرائع تعدم ثلثاه قبل أن أصحو. يعصر قلبي

ندم حارق، أنساه بعد لحظة. فعربة عطية لا تزال هنا، والناس بعدُ يحاولون دفعها ذهابا وجيئة حتى تسخن عددها ويشتغل دولابها.

أقبل على الجمع، أهل ناحيتنا جميعا، رجالا وأطفالا، كلهم هناك، النساء أيضا. كتلة هائلة من الجلبة ساخنة حرقانة في برد الصبح الشتوي، منكبة على العربة الزرقاء. كل الوجوه سواء في الاهتياج، كل الأذرع نافرة العروق متوترة، كل الأكف ملتحمة بجسم العربة. كل الطواقي منزاحة إلى الخلف عن رءوس حليقة، كل ذيول الجلابيب مشمرة عن السيقان، كل السيقان، وكل السيقان مزروعة في الأرض، تنقلع القدم من مكانها لتعود ترطمه صانعة خطوة والكتلة البشرية متلاحقة متحاضنة متكورة منحنية، تتحرك إلى الأمام بهذه الألف ساق.

أندس في الزحام كالمسمار في الخشب. ولا أزال أتملص وأتحرك مثل دودة لاهثة مهتاجة حتى أبسط كفي على جسم العربة على المعدن المدهون بطلاء أزرق كاب. وكم كان ذلك رائعا.

أدس قدمي في الأرض، أشمر جلبابي عن ساقين نحيلتين بين سيقان الرجال، لكنهما ممتلئتان إخلاصا في دفع هذه العربة إلى الأمام. أرفع عيني لأجد عطية جالسا على كرسي السواقة، ممسكا بعجلة القيادة، شاخصا ببصره إلى الأمام، هذا الأب القادر يسحب في أعقابه هذه القلوب الألف الخافقة في مضاء لا ينحرف، يقودنا هذا الأب في غارة على الصمت، يقودنا إلى لحظة تحقق كامنة خلف غباء الأعطال ملتفة حول أجهزة دولاب السيارة.

أثبت عيني على قفاه، عمود رأسه نازل على خط كتفيه بعزم، لا أحول بصري عنه ودخان احتراق الوقود يملأ عيني وصدري، قلبي موصول بالخشخشات الصادرة من دولاب العربة، يتهدج الصوت الخشن متصاعدا في انفعال إلى القمة التي أترقبها.

بالتدريج تستحيل العربة إلى كيان خفيف في أيدي الناس، يجرون بها فرحين، يطيرون بها طيرانا، الصخب في الأوج، سحابة التراب منطلقة في الشارع مع العربة التي ترفعها الكيمان وتحطها الوهاد وسط الزعيق وهدير قلوب الناس وصراخ النساء مستحثات مهتاجات. يوشك الدولاب أن يدور، الشيء يوشك أن يكون، ثم لا يكون.

ونقف، تنفك قليلا قليلا مفاصل الجمع. ينحل ذلك الاجتماع اللاهث المكتوم إلى ضحكات وكلمات متغرقات متزاحمات. الأكف تركت

أماكنها على جسم السيارة، يتضح جرمها وسط حلقة الناس التي تتسع قليلا قليلا. يرمق الناس العربة ضاحكين، عاتبين قليلا، ومستشعرين مرارة العجز أيضا. تمتد الأيدي تعدل الطواقي. وبفضول الجلابيب تمسح من على الوجوه حبات العرق.

وابتسامة عطية لا تحول، شمس لا تغيب. ينزل من العربة، يصفق بابها خلفه بعنف، يمرق خفيفا خارقا كفهد، وعلى وجهه تشرق طيبة أبوية. يكشف الغطاء عن الدولاب. أشب أنا على أطراف أصابعي وأطل برأسي. أنفاس ساخنة ملتهبة، سحب من البخار تتصاعد من الأجهزة. يدس الرجل يديه الملوثتين بالشحم في جيب جلبابه يستخرج مفتاحا إنجليزيا يثبت به أشياء وبه يصل أشياء يختبرها.

يزيح الغطاء عن فوهة قلة ماء التبريد، يعصف البخار المتفجر بالغطاء يلقي به بعيدا والأخت زينب واقفة بإبريق الوضوء الفخاري الأسود المليء بالماء، يمنحها الأخ الكبير عطية قبل أن يأخذ الإبريق منها نظرة حانية. في ذلك يقول عم محمد داود مؤكدا:

ـ الماء لا ينبغي أن يكون من الترعة! احذروا ماء الترعة للعربة! ما يصلح لشربنا لا يصلح لها! أقول لكم فافهموا!

يبتسم عطية لعم محمد داود، ثم يرفع الإبريق لأعلى يصب منه في فوهة قلة التبريد. وأنا فهمت حكمة العم محمد ووعيتها، نعم إننا الآن عالمون بالعربات وفرحون بعلمنا. تقول الأخت الصالحة زينب:

ـ من الطلمبة جلبت الماء، ليس من الترعة وحياة النبي الحبيب!

قدر الله عليها أن تبقى أبدا في إهاب طفلة لا تتجاوزه أخت عطية الصغيرة، حتى إنني لأخاف أن أكبر وأتجاوزها. أحبها وأحب تعلقها بالعربة وعلمها بها.

يعود عطية إلى كرسي السواقة، تكون هذه إشارة البدء. يحيط الجمع بالعربة. تكز الأسنان في تصميم، تمتد الأصوات على إيقاع متصاعد متعارض مع صخب الدولاب، يسير هذا التركيب الذي يجلس عطية على قمته في كدح لا يتراجع، في هيام صوفي. الأمل في قلبي يحضنه الخوف. اللحظة وشيكة. أكتم نفسي. أدفع مع الجميع. ترتجف العربة من حركة الدولاب كذلك الطائر المعدني اللامع على أرنبة أنفها تخف العربة، تجري، تطير في أيدينا. ثم تقف فجأة زاعقة زعيقا مخيفا. ينكسر حولنا على عنادها الحديدي. تنكسر القلوب

وتبقى الأرجل منزرعة في الأرض لمقاومة الارتداد العنيف وحتى لا يجتاح الناس الرجة الرهيبة لحظة مقاومة صامتة عنيدة المخاض عسير، لكن الدفع مستمر حتى تولد وثبة الانطلاق، يزغرد الدولاب دائرا وتطير العربة منطلقة بقوتها الذاتية.

يكاد يقف قلبي فرحا، أرتاع أن تفلت العربة من يدي. ألحق أمسك حامل القفف المثبت في المؤخرة، أقفز جالسًا فوقه بين كومة أخرى من الأطفال أركن ظهري على جسم العربة، أدع صخب الدولاب المنتظم يتسرب إلى كياني. أنظر إلى وجوه الناس تبتعد وهم يضحكون في سعادة وقاماتهم تترنح من التعب. وبعضهم يجري يلوح لنا محذرا وشاتما، يطلب إلينا، إلى العيال العفاريت أولاد الكلب أن يتركوا العربة على الفور.

أستمرئ نشوة الخوف وأنا أرى الأرض تجري منسحبة إلى الوراء تحت أقدامي بسرعة كبيرة، بينما الدور على الجانبين صامتة الواجهات، والبهائم السارحة يملن بالرءوس الكبيرة. ومن العيون الكبيرة تطل نظرات مستفهمة منكسرة والمعزات تتقافزن على المصاطب تستخفها الفرحة. والبطات الثقيلات الأرداف تصوصو مبتعدة، وأسراب الفراخ تطير مذعورة.

لكننا نحن الأعلون. تطير بنا العربة فوق الكيمان وتنزل إلى الوهاد. تدع وراءها الغبار وقدامها يسبقها نفيرها تتعجب النساء وتحن قلوب الرجال للسفر. يلوح القاعدون يتمنون للعربة السلامة. ياربي. هذه السويعات السعيدة بين أغلى ما في جعبتي من رحلتي في هذه الحياة.

وعندما تنتهي البيوت وتعبر القنطرة مستقبلة السكة الماضية إلى الأفق. هنا يولد في الكيان المعدني قوة ماردة تخيفني وتعزل عطية بالعربة عني. تنفرش أمامه السكة مستقبلا بلا حاضر ولا ماض. وينبغي عليَّ الآن أن أقفز نازلا وإلى القرية أرجع.

أقفز وتقفز جماعة العيال من حاملي القفف خلف العربة واحدا واحدا، من هول القفزة لا نزال نجري نكاد ننكفئ من سرعة أجسادنا التي لا سيطرة لنا عليها. ترطم أقدامنا في عنف يخف رويدا ويبطئ خطونا حتى نتمالك أنفسنا، عيوننا شاخصة إلى العربة التي توغل في الأفق بلا تردد تتصرم وراءها بهجتنا حتى تغيض وسحب الحسرة تتجمع ظلالها على ازدهاء وجوهنا. نتنادى بعضنا إلى بعض نتحدر بعضنا إلى بعض كاسفين.

يتلكأ النهار ومع النهار أتلكأ في ساحات اللعب، على مصاطب الدور، تحت النخلات في الجرن، لا شيء عن سيرة العربة يشغلني أو يداوي وحشتي. أتسلل خلف صفوف المصلين في المسجد إلى باب المئذنة، أجري صاعدا السلم اللولبي المعتم، ذلك الطريق السحري الذي يعلو بي درجة إلى ارتفاع شاهق يديخ.

أرتكن على السياج. أدور معه متحسسا الحديد الصدئ تمسح عيناي ودورة الأفق امتداد هابط الحواف والطرق نازلة هاوية. أنظر من هذه السكة انطلقت العربة. هي الآن في طنطا والبصر قاصر عن طي المسافات الشواسع. الشوق أكبر من الحول وعليه فالقهر أبيد.

أنزل سلم المئذنة راجعا إلى فراغ اليوم الموحش يمتد حتى أوبة العربة في المساء. أتسكع في الشارع أبحث عن آثار الإطارات وبقع الزيت والشحم يمضي بطريقي إلى حظيرة العربة أمام باب دار أبي العينين.

يوم بناء الحظيرة كنا هنا كلنا. كل الناس. وكنا فرحين. الضحك يقطع نياط القلب. وكل واحد حامل طوبا أو خالط طينا أو جالب ماء. أما عم محمد داود فقد اصطنع لنفسه مالجا من خشبة قديمة جافة يسوي بها قوالب الطوب في الجدار ويقول:

ـ لا يكون بناء من غير المالج وميزان الخيط والثقل، فإن تلوى الجدار وتعرج ومال فلا تلوموني ولا تضحكوا عليَّ ، فبسطة الكف وحدها لا تقيم جدارا سويا!

ويضحك الناس كثيرا، ويطمئنون البنَّاء، فيقولون له إن يده فيها البركة وإنه بإذن الله يستوي الجدار ولو لم يكن مالج ولا ميزان خيط وثقل.

ولقد تعوج الجدار وضحك الناس لكن في النهاية بنيت حظيرة حسنة أمام باب دار أبي العينين تأوي إليها العربة حين تئوب من رحلتها كل مساء.

المساء يولد في قلبي قبل أن يحل. أعرف روائحه ونسائمه وأصواته يتقبض قلبي وأنا أرى القرية تهدهد رويدا رويدا إلى كن الليل وأنا قلب صاح يرجو للعربة أن تئوب. أتسلل مقتربا من حلقة الرجال، لعل في سمرهم المسائي شفاء القلق الناشب في القلب.

يقول عم محمد داود عن عطية إنه كان عسكريا في الجيش

المرابط. هؤلاء كانوا يكسونهم قمصانا وطواقي وسراويل قصيرة زرية يخجل الجندي أن يمشي بزيه هذا يعرض نفسه على أهل بلده ـ يقابلونه على المحطة. يخلع ثوب الجيش ويلبس جلبابه قبل أن ينزل إلى البلد.

ويحكي إبراهيم شقيق عطية أن هذا قال لهم إنه يريد أن يشتري عربة. وهم قالوا له!

ـ يا أخانا أنت تعرف، لا نملك سوى نصف بقرة شركة مع علي أفندي المدرس، وإنا لذاهبون إليه من غد نستعفي من الشركة وتأخذ نصيبنا من الثمن فضعه في يدك تفعل به ما بدا لك!

ولم تتغير ملامح عطية ولم تغض ابتسامته. قال!

افعلوا.

ويحكي إبراهيم أن الحول لم يحل حتى كانت في الزريبة بقرة يملكونها، لهم حلابها بأسره في خزانتهم.

يطرق عم محمد داود قليلا: إنه في هذه الساعة من جلسة المساء تكون الأصوات عميقة كأنها من وراء الأشياء، ويكون الرجال كأنهم الظلال، والكلام يمشي في عروقي يختلط بأمشاج لحمي والخوف يقبض على قلبي.

يقول عم محمد داود إن طرق السواقة خطرة. وإنه من هنا لحد طنطا سكة بين قرى وأشتات كفور وشراذم ناس، وإنه على هذه السكة يطير عطية حيث الشر مختبئ وراء كل حجر والسوء خبئية كل صدر. ويقول عم محمد داود إن المسافة بين رحيل العربة في الصبح وأوبتها في المساء، هي مسافة مرهقة من القلق يطويها القلب كل يوم.

أنهض نافضا عن روحي الكابوس، أمشي: أبعد في تلافيف المساء. لكن العربة بعد لم ترجع. أنصت. لا شيء سوى الأصوات المعتادة في أول الليل.

أفسد العيال. تحلقوا حول محمد شريف. ذلك الشاحب النحيل. يحبسه الكتاب وحفظ القرآن عن اللعب مع العيال طول النهار، لكنه في المساء يأتي. عيناه تلمعان وقلبه مليء بالحكايات يقول:

ـ إن العربة لو تعلمون أعصى قيادا من ثور فحل حرون! وها أنتم

ترون عطية مع ذلك يروح بها إلى طنطا ويأتي كل يوم بلا اختلال..! كيف يكون ذلك؟

ثم يشف صوت محمد شريف حتى تصير الجلسة حلما غامضا. يقول:

ـ إنه حجاب الحفظ الذي اصطنعه شيخ الكتاب لحفظ العربة والذي يعلقه عطية في مرآة السائق! عندئذ صرخت به:

وماذا لو سقط الحجاب مرة من علاقته؟

أرتجف من الخوف. لقد سمعت كل الحكايات. لم تفتني واحدة. وما من مسافر عاد إلا وسمعت ما حكاه للرجال بعد أن عاد. كل الأخبار عن ناس البلاد وأشرار الكفور. كل هذا سمعته ورأيت الموت في سحن مخيفة متربصة بابتسامة عطية الأبوية الحبيبة.

هذا الخوف عندي كامن في منطقة من مناطق الظن ولا يطولها ترجمان القول. خوف يؤرقني ولكنه لا يتحول إلى خبر يبث. حتى يولد صوت العربة، جنينا في رحم الليل، ثم ينكشف الشارع عن كشافيها يسطع نورهما ويعشي عيني. أقفز فرحا والعربة تمر بي.

أجري وراءها. أضواء مؤخرتها حمراء وخضراء تتخالط دوائر في عيني العشيانتين ما زالتا من الكشافات. أجري أتعلق بحامل القفف مع باقي العيال حتى نهاية المطاف عند دار عطية. تقف العربة ونتحلق حولها لاهثين. عيناها تنظران إلى الأمام في ثبات، تفتشان طيات العتمة تفجآن الهوام الهواجع، تطير تقاطع مخروطي الضوء المحدقتين وجسد العربة يرتجف بحركة الدولاب.

تفتح الأبواب وينزل الحاج عوض تاجر المواشي الذي يسافر إلى طنطا كل يوم إثنين. وكذلك ينزل مصطفى بدوي المريض بداء الطحال والذي كان في طنطا ينشد طب الحكيم. ينزل هؤلاء وينزل غيرهم ويلتف الناس حول عطية. ومن جيوب الصدارات تخرج محافظ النقود الكبيرة. يدفعون الأجر، يتأبى وهم يلحون. ضجة دولاب العربة تغطي على حرارة العزائم.

يركب عطية العربة مرة أخرى ويغلق بابها وراءه ثم يدخل بها بطيئا إلى حظيرتها. هي لنا إذن حتى الصبح. وفي الصبح نكون هنا جميعا في احتفالنا الصاخب بميلاد الحياة في دولاب العربة. نعم. أعرف هذا ومع ذلك آوي إلى فراشي مخنوق القلب.

هكذا كل مساء. واليوم بقيت أنتظر العربة حتى تأخر المساء وجاءت

أمي جرتني من معصمي وأدخلتني في فراشي أتقلب يقظان مفتوح العينين أتسمع، أرتقب صوت العربة بين أصوات أول الليل وقلبي مشقوق كأرض محروثة متأهب للنبأ الفاجع.

طار صراخ زينب في المساء كلسان لهب، كثعبان مجنح والحلم فر مني إلى غياب سحيق لا يطوله وهمي. ركب الرجال المطايا على ذات السكة يقتفون أثر العربة وسائقها، وعادوا به محمولا محطوما أعدت له وسادة في الغرفة القصية وعم محمد داود توسط حلقة الرجال. في الصبح التالي حكى لهم:

إن عطية كان طائرا بعربته على السكة، وإنه في طيرانه هذا فاجأ دجاجة هرسها، وإنه لهذا أوقف العربة ونزل منها ينظر. وأنا كدت أصرخ:

ـ لماذا وقف؟ لو لم يكن توقف، لو لم يتلكأ ما كان مات أبدا!!

لكن عم محمد داود قال إن الدجاجة كانت سوداء ذهبية الريش، وإن عطية أمسكها، رفعها فاختلط بهاء ريشها بالدم والتراب، وإن أهل القرية أقبلوا، أحاطوا به انهالوا عليه بالعصي حتى سقط على الأرض فاقد النطق. الأصابيح بعد عطية صامتة باردة والناس يتلكئون في الجوانب بلا عزم ولا عزيمة أين عطية؟ هل طواه الموت حقا؟ أم إنه كان حلما ذلك الأب القادر يسحب في أعقابه قلوبنا الألف الخافقة في مضاء لا ينحرف، يقودنا ذلك الأب في غارة على الصمت، يقودنا إلى الحظة تحقق كامنة خلف غباء الأعطال متلفلفة حول تعقيدات الأجهزة.

كلما ازداد صخب هذه الدنيا زاد صوته في ذاكرتي جلاء، وكلما تنكرتني الأشياء نبت عن ذوقي وعبست في وجهه كلما زاد حنيني لابتسامة الحسن الوسيم، كلما ازداد صمت الطرقات بالسيارات زاد تعلقي بعربته الأجرة القديمة. عطية أبو العينين داود.

القاهرة في ٢٨/٧/١٩٨٦

طبلة السحور

والرجل يمضي بها في ليل الحارات كتلة من الظل في شفيف العتامة، والقرية كلها قلوب مشدودة الجلد مسلمة للأصداء العميقة الغليظة، الإيقاع مبهم قادم من أعماق الوقت ومنته فيه، ديمومة مدورة باهظة نابضة، بينا رق الفؤاد المستلب نهب للصوت وللتذكر.

إنني لما رجعت من غربتي الطويلة مضيت بظهر البلد مترددا متحذرا خجلان، أقرئ السلام مداهنا متزلفا، ويجيء رد السلام مرحبا جهيرا، لكن السمع لا يخطئ جسم الصمت متكورا في قلب الصخب. تنتكس اللهفة ويبور القصد الحسن.

وقد وجدت أن دور قريتنا تغيرت أشكالها ومواقعها، والحارات التى عرفتها وألفتها ضلت الآن بين الدور وتحيرت. والناس ليسوا الناس. الكبار هرموا والشبان اكتهلوا، والكل ضاعوا في دنيا ازدحمت بخلق كثيف من أطفال وعيال وصبيان وبنات يخيفني ومض عيونهم بالنظرات وصخبهم بالضحكات، وكيف تغيم ملامح وجوههم كلما مررت بسحابات تساؤل وارتياب حتى إني قبل مقدمي عليهم يمتلئ قلبي باجتماعهم واقفين في الباحات أو جالسين في ظل الحيطان. صاروا غرباء عليَّ أهلي وناسي بما جدَّ على قديم سنتهم من بدع في ارتداء الثياب، وبما طرأ على رصانتهم من نزق في الحديث والإيماء والإشارة، صار لأهل قريتي مثال في الحسن وفي التأنق واللطافة يغيب عنى رسمه وتتنافر ملامحه وتشذ عن تعقلي صفاته.

وفي الغيط تغيرت المحاصيل والمواسم والمناوبات، وخدمة الأرض وما يستخدم لذلك من آلة. أمشي. أنظر. لا تجد قدماي طريقا إلى إلف الأشياء والأنس بها. لكنني أرى شابوري على البعد. لمحته سارحا وعلى رأسه خرقة يتقي بها الشمس. أسرعت لحقت به. ياربي إن صديق الطفولة والصبا ما زال على حاله أيام كنا نلعب معا، وبينا فتكت السنين بي في غربتي، مر الزمن عليه خفيفا لم يعلم على كيانه علامة، وأنا أجدبت فروة رأسي وابيضت لحيتي وشاخ جلدي وتغضن حول عينين ضعف بصرهما.

كنا أصحاء وكان الشابورى معلولا، فأي علة في العلل تلك التي حفظت محلها من عوادي الزمن؟ الملامح الطفلة والعود القصيم والأطراف الدقيقة الهشة، وذلك الذي استودع سر الطفولة والاكتهال في تكوين قريب مطاوع، ناء مراوغ. كلمت رفيق اللعب

القديم: «هل نسيت عهدنا يا شابوري؟» نعم: كان الشابوري أحد رفاق لعبي: لم يكن كباقيهم، لكنه كان واحدهم على أي حال، كان فقط معلولا جمعت العلة فيه مزيجا عجيبا من الهرم والطفولة، جمعتهما في بدن ذابل هش وجلد ناعم متغضن، وملامح كئيبة عجوز، فهو صبي يملك سر السنين، ورجل فاقد بطش الرجال. طفل بلا طفولة، وكبير بلا حول. قال مجاوبا سؤالي: «ما نسيت العهد إنما تلهينا عن التذكر هموم المعاش والانشغال بالزوجة والعيال!» كان يلعب معنا، ينزق مثلنا، يجن ويخاطر، يخرف ويهرف، يثقل ويسخف، يهمد ويبوخ، يكيد ويسخر، ونحن نكيد له ونسخر منه، وأحيانا نفرح به ونحبه، وأحيانا نلاحقه ونؤذيه.

لكنه يبقى دائما مخصوصا بحاله نائيا بحقيقته. لا تكون معاشرته وصالا ولا يكون لمسه يقينا. جوهر له صفات غريب منطقها على إدراك الحواس.

سألته: «أما زلت تدور بالطبلة يا شابوري؟» فإن أباه الفقي الذي مات وتركه وأمه العمياء أورثهما حصة شائعة في طبلة البلد، على الشابوري الابن أن يدور بها في الحارات ساعة السحور أياما معلومة من شهر رمضان. الحكاية خالطت أوقات لعبنا. وهى الآن تشحب عبارتها وتهمد صورها ومشاهدها في همود نفسي وجوعي وظمئي ومعاناتي اليوم الرمضاني القائظ، والحكاية في عقلي اختلط معناها بمعنى الشابوري اقترابا من إدراكي واستعصاء على فهمي. أنظر له أرقب إجابته على سؤالي وهو يقول لي: «أدور بالطبلة في أيامي والشركاء كل في أيامه!» قلت: «وما زلت تمر ببابنا أيضا؟»

كنت أفيق من نومي على فجيعة الضحى العالي، وأن أحدا لم يوقظني للسحور. يعصر الفوت قلبي. أقفز من فراشي على ظهر الفرن إلى قعر الغرفة، فإلى وسط الدار. أجري إلى أمي، أجذبها من طوق ثوبها، آخذها إليَّ من انشغالها، أصرخ بها: «يا أمي! أمي! لم لم توقظيني للسحور!؟» وأبكي، موصول قهري بنهر دمع حارق في داخلي، أبكي: «آه يا أنا» تواسيني أمي منفطرة القلب من أجلي وضاحكة عليَّ: «يا بني! هذا ما أكلنا منه في سحورنا! ها هو! هنا! خذ!» وأكره أمي كما لم أكره شيئا من قبل. إنها لا ترى لهفتي وشغفي، تنكر شوقي وتستخف بحنيني. أصرخ بها: «لا أريد طعاما! لا أريد طعاما! أريد أن أصحو للسحور وأن أرى الطبلة!» تكلمني أمي معذبة الملامح بين الضحك والرثاء «إذن الليلة يا بني أوقظك للسحور! الليلة يا بني الليلة إن شاء الله !» لا تعزيني الكلمات. أبكي حزني لما فاتني وأقول لها: «هذا ما تقولين في كل مرة، ولا أصحو

للسحور أبدا آه يا أنا!».

تذكرت كل ذلك وأنا معلق البصر بملامح وجه شابوري أرقب جوابه على ما سألته، أما زال يمر ببابنا أيضا؟ والشابوري قال لي: «نعم، ليس لي إلا أن أفعل!» صمت هنيهة كاسفا، لكنني عدت متشبثا، أسأل حنانا: «وإذن تتذكرني وأنت بإزاء بابنا؟!» قال: «أتذكرك!» سألت مهتاجا ملحا: «هل تشوقت أو دعوت؟» قال: «ظننت دائما أنك بخير في غربتك!» تنهدت مرخي الجفنين مكسورا أهمس لنفسي أنني لم أكن أبدا بخير في غربتي.

لكنني تذكرت شابوري بقوة الآن، الذي عرفته فيه والذي لم أعرفه عنه، تذكرت شبحه يترقص حاملا الطبلة مرسوما بالظل على العتامة الفضية ارتعدت من داخلي. إنني في رمضان هذا لم أسهر. أمضي من غير سحور إلى جوع النهار. شردت. والرجل استأذن ومضى.

وقفت على رأس غيطي. الشجيرات هزلانة ضاوية شاحبة على طول الخطوط في فداني الصغير.! استعصى عليَّ سر عجزها وآفتها فقلت راجعا، أمشي بجوعي في النهار الرمضاني القائظ. جائع بلا ورع ولا نية، فقط لأدفع عن نفسي مذلة أن آكل في نهار الصيام والناس حولي جوعى. أمر على دوارنا، أقفرت شرفته من أبي وأصحابه، وعلى الأرائك البلى والتراب.

أرقب المغرب ضجرا ملولا. إن هذا ليس موعدي، يمضي بي إليه الوقت قهرة واستلابا. اصفرار الشمس هذا على الفروع وأعالي الحيطان إنما هو شحوبي وكآبة نفسي. هذه الساعة قبل غروب الشمس وأفول النهار ساعة حسنة، وكان ينبغي أن تكون هادئة، لكنها تروعها وتزلزلها من أساسها مكبرات الصوت تجأر بأشرطة التلاوات والمواعظ المرعبة.

ساعة حسنة، أريد أن أخلصها من مخالب الضجة. أريد أن أرى أبي واقفا في هذه الشرفة قبالتي، في أثير شفقي أحمر، في جو من تلاوة الشيخ أحمد المبحوح الصوت. تلاوة خفيضة في كل سمع، في كل بيت وفي كل قلب. أريد أن أرى أبي قائما هناك ينظر ساعته الفضية، ثم يتملى لون الوقت حوله، فإذا ما أذن انتدب الشيخ أحمد للأذان. لكن الشرفة قدامي مقفرة أراها، والأرائك علاها التراب، وأنا صموت تهرس الضجة سكينة نفسي حتى قمت إذا آن أوان طعامي.

جلست صامتا في وسط دارنا الموحش معلق البصر بالمصباح الكهربي المشنوق من حبله في السقف. في الحائط الرف الطيني حيث وضع في الأيام القديمة مصباح الزيت الملمع الزجاجة فصحت في نوره الأشياء. الآن يختنق الضوء بضعف التيار فينكرني المشهد الذي حولي.

هذه الجدران لا رأت ولا سمعت ولا وعت. هذا الصمت المنصوبة سرادقاته المتربة في الباحة أزلي لم يجرب أنسا. هذه الدار ليست دارنا ولا تشبهها، إلا كما يشبه القبر عنفوان حياة صاحبه وتوهجها. جلست في الباحة تمتد أمامي شواهد قبور التذكر وأنا الثاكل الوحيد.

في الزمن القديم كانت السهرة الرمضانية تبدأ في دوارنا بعد العشاء والتراويح والحضرة والذكر في الجامع الكبير. وإذن يجلس أبي في الشرفة يسامر ضيوفه. ويرتل الشيخ أحمد فقي الكتاب آيات القرآن من على دكته في آخر الردهة. ويصنع العم حسن القهوة في ركنه قريبا من الفقي.

الآن أسأل نفسي عن السحر في تلك الأماسي القديمة؟ أكان يفيض عليَّ من فرحة الأب بضيوفه في الشرفة؟ أم من مجلس المقرئ على دكته وإلى جانبه من يفرد المصحف الكبير على حجره ويتتبع السطور بعينه، قدامه يوش موقد الكيروسين، عليه الإبريق، وهناك من يساعد بغسيل الفناجيل أو جلب الماء أو المسامرة بحديث طيب؟ من أين أتى السحر في تلك الأماسي القديمة؟ درت بسؤالي من مجلس إلى مجلس، كان الدوار سعيدا والشياطين قد كبلت وأمن الليل، أمن كحضن الأم.

قمت إلى مرقدي هذا على ظهر الفرن في دارنا هذه. لم أكن راغبا في الخروج. لم يكن شيء بقادر أن يحفزني إليه أو يغويني به، حتى ولا تلفت الصحاب يرمقون مطرحي الخالي في مجلسهم في المساء الرمضاني ويتساءلون. إنني كثر تخلفي حتى اعتادوه. وأنا إن لحقت باجتماعهم بقيت صموتا وقمت مبكرا. ينظرون في أعقابي كاسفين. إنهم عجزوا عن أن يخلقوا لدنياهم الجديدة في قلبي تقبلا، وعجزوا عن أن يخلقوا لكآبتي في صخب دنياهم إنصاتا وفهما.

أطير إلى دارنا فزعا كبومة تخيفها الأصوات والأضواء. أسرع الخطى تحت رجوم مكبرات الصوت تجأر بالتراتيل والغنج، بالموعظة الحسنة والدعارة. أفر من الضحك والزعيق، من خبط أوراق اللعب في الطبال. أدفع بابي أفتحه. أجتاز مقبرة وسط الدار إلى مرقدي هنا

على ظهر الفرن. أنام كل ليلة مبكرا. أمضي عبر الليل إلى نهار رمضان دون طعام، أجوع حتى يؤذن بالأكل في دورة مرهقة مملة.

ابتسمت مكتئبا وأنا أتذكر طبلة السحور. كان الليل دليلي إليها. الليل الرمضاني اليقظان بالنور والتراتيل والمؤانسة كان سكني إلى الخفق الحبيب، إلى الإيقاع العجيب، الضرب على الجلد المشدود. لم أكن بعد قد شهدت الطبلة في عمري أبدا، وإن كنت عرفت دائما أنه منذور قلبي للرنين المروع. قدر مقدور على النطفة حتى وهي مازالت عاطفة ونية. قدر أحياني وأبقاني في الليالي القديمة سهران مراقبا، وهزمني النوم قبل الساعة السحرية، أفقت من نومي على فجيعة الضحى العالي.

حتى ليلة فتحت عيني على وجهيْ أبي وأمي يحيطان بوجهي جهمين مرهقين مهولي الملامح بالضوء الشاحب والظلال. كلمني أبي يسحبني من لجة النوم إلى شاطئ اليقظة: «يا بني استيقظ! ها هي ذي طبلة السحور! استيقظ يا بني!» لقد أيقظاني ليلتها للمرة الأولى. وإذن فقد سقط الفوت وانفك طلسم العجز وأدركت الطبلة.

كان ذلك قبل سنين طويلة طويلة تفصل ما بين طفولتي واكتهالي. وليلتها رفقا بي أمي وأبي رفقهما بمريض. أغلق باب وسط الدار وراءنا. وأبي كلمني: «كانت هذه طبلة السحور يا بني!» لم أدرك أيسأل أم يجيب، اختلط في عبارته الاستفهام بالتقرير حتى غاب عن العبارة البيان. كانت بُهْمَةٌ شاحبة صفراء تشملنا على قلوبنا ونحن نجوز إلى الغرفة وسط الدار المضوأ بالمصباح الزيتي الغبش الزجاجة.

وصوت الطبلة ابتعد، أوغل في البعد كمسافر في رحلة بعيدة، يصعد في الطريق إلى الأفق مواليا القاعدين وراء ظهر مرسوم بخطوط الحول والعزم والكبرياء، ويترك لهم قلقا مرهونة به عقولهم وأفئدتهم حتى يئوب.

سألتني أمي: «هل تأكل يا بني؟» أجبتها فاترا عزوفا: «لا! لا يا أمي!» لأنني كنت قد غفرت لها أنها لم توقظني قبل ذلك لسحور. لا ضير. إنني كنت مدركا موعدي على كل حال. ذابت مرارة الفوت في معاناة تجربة اللحاق. وليلتها أويت إلى فراشي مرهقا وقريرا.

وغربة كانت قد أوحشت بيني وبين أبوي حتى ما ساغ لي قبل النوم أن أنزق أو أشاغب. دخلت تحت غطائي وديعا. سألني أبي

وهو يدثرني: «هل نوقظك للسحور كل يوم يا بني؟» قلت له هامسا: «إنني بعد ذلك سوف أستيقظ لموعدي وحدي!» ثم أغمضت عيني مصطنعا النوم، وأبي وأمي تركاني ومضيا لسحورهما ولشئونهما الأخرى.

وليلتها جافاني النوم كما يجافيني الليلة أيضا. وليلتها آنستني الأصوات ودبيب الناس في الدار وقرقعة المواعين وأنفاس البهائم وأحلام الدواجن. والليلة تحيط بي الوحشة ويحيط بي الصمت يثقلان على قلبي ومن تحتها تنبض أصوات التذكر.

إلى الصبح حملت رغبتي في أن أرى الشابوري متكورة في قلبي تعدم شهيتي وتفسد مزاجي وتلجئني إلى صمت عميق. حتى تسللت خارجا وانطلقت باحثا وأدركت الولد في طريقه إلى الغيط وعلى رأسه خرقة يتقي بها الشمس. قال إنه جامع لأمه ملوخية لطبيخ اليوم، وسألني إن كنت أصحبه، وأنا لم يكن بوسعي أن أنفصل عنه.

مشينا معا نتسلل بين أعواد الذرة العالية على أرض معشبة طرية مفروشة ببقع الشمس، نجمع أعواد الملوخية الخضراء الطفلة الغضة، يفزع تسللنا الجرادات النطاطة، تقفز من عود إلى عود وأنا أضحك مع الشابوري وأثرثر وقلبي مثقل بسؤالي حتى تكلمت: «رأيتك أمس بالطبلة!» قال: «وأنا رأيتك أيضا!» حنقت حتى اختنقت بحنقي. صحت. به: «إنك لم تشر ولم تحي!» قال: «أخجلني أن أبويك كانا هناك!» وإذن فإنني أيقنت أنه لا جدوى. كان الشابوري عاريا من حقيقة ليلة الأمس. سألت ملامحه وعينيه وإيماءه، واجهني بالاستنكار والبراءة في ملامحه وعينيه وإيمائه حتى خالجني الشك، هل أتهم الشابوري أم أتهم نفسي أم الصبح والصحو يبددان الحلم؟ أم إنها أمانة الرؤيا وقلوب أضر بها داء النسيان؟

يريد طريقانا أن يفترقا، لكنني لم يكن بوسعي أن أنفصل عن صاحبي، مشيت مع شابوري حتى دارهم. انحدرت إلى وسط الدار من مدخل يشبه فتحة جحر الأرنب. قبل أن يسعني تمييز ما حولي في العتامة امتلأت خياشيمي بروائح الكعك، الدسم والاختمار، غريبة ومتضاربة. ثم بانت لي الكومة على حصير يحيط بها من حولها الشركاء في الطبلة.

تلك هي إذن صدقات الكعك السنوية لطبلة السحور، وهى هنا جمعت كومة لكى يقتسمها الشركاء فيما بينهم، وها هي ذي أم الشابورى تطرق متنصتة، والكل صموت يراقبون ما اجتمع لهم من

صدقة شاردين. حزنت لأننا بعد لم نخبز كعكنا ولم نرسل إلى هذه الدار صدقتنا. لكنت عرفت كعكاتنا وسط الكومة. ولربما أوشك أن أعرف كل دار بما أرسلت. الخبيز هو الدار. فإن التبس عليك فشم وتذوق. إنك ناطق اسم التي خبزت وأنت تبصق ما قضمت. ابتسمت حين تذكرت كلمات أمي تحكي عن الناس وما خبزوا للعيد مادحة وقادحة. الآن أرى ما حولي. الشابوري يضع حزمة الملوخية في حجر أمه ويجلس إلى جوارها صامتا. وأنا ألمح الطبلة في الركن فأقوم إليها يكاد قلبي يتوقف عن الخفقان لهفة واستثارة.

مرخي حبلها جنبها في تعب، ملقاة هكذا جنب الحائط وإلى جوارها العصا الغليظة وقشرة الغاب. تقدمت حتى تقرفصت عن كثب. ثم تزحزحت مغيرا موقعي كل حين لأراقب الطبلة من زاوية أخرى. وكلما أدركت كم هو بسيط ذلك التكوين، وجلف غليظ حتى ليوشك أن يكون قبيحا شائها، كلما ازدادت إحاطتي بذلك الشيء حنقت بما انتكس حلمي به، وارتعبت أن أكون مخدوما يضللني عن الحقيقة بصري وبصيرتي.

قمت أتحسس الجسم الأسطواني المفرغ، ألمس نعومة الرق وخشونة الخشب. ثم رفعت الحبل بحذر شديد. وضعته حول رقبتي، وفي انحنائي التقطت العصا في يميني وقشرة الغاب في يدي اليسرى. ثم أقمت قامتي بطيئا فارتفعت الطبلة معي من على الأرض خفيفة مطاوعة. ألصقت قشرة الغاب بالرق الأيسر، ثم رفعت العصا لأعلى وأهويت بها على الرق الأيمن فكانت ضربة مكتومة أزت بعدها قشرة الغاب للحظة حتى التفتت أم الشابوري ناحية الصوت وزعقت: «كف عن إزعاجنا يا ولد!». وضعت الطبلة مكانها برفق، يائسا أكثر مما أكون خائفا.

تسللت خارجا والشابوري لحق بي. وقف قدام بابهم وأنا وقفت إلى جواره لحظة شاردا ثم سألته: «طبلة السحور.. ما هي؟» قال الشابوري على الفور دون أن تتغير ملامحه: «إنها ذلك الذي رأيت في الركن من وسط الدار!» قلت له: «نعم!» لم يكن في حديثي مع الشابوري بعد غناء عدت إلى قدام دارنا.

وأنا الآن أريد أن أكون وحيدا مع يقيني وشكي. إن المسألة تخصني وحدي. مضيت أتسكع أريد أن ألعب وأتقافز لكني يثقل جناحي قلبي، وأريد أن أبعد وأوغل، لكنني أبقى قدام دارنا حيث وقفت أمس ومرت بي الطبلة.

ألم تشهد ذلك واجهة دار الحريري قبالة دارنا؟ أسألها الآن عن حالها

ساعتئذ، تطل عليَّ كئيبة مرهقة دائخة تحت حمل الشمس، ذهلانة نسيانة، أسأل شمس الظهر الباهرة الضوء عن عتامة الليل الفضية، تعشيني وتؤذي أشعتها عيني. لا جدوى. في ذلك اليوم من أيام طفولتي البعيدة كان الخرس يحيطني.

لكنني تساءلت، أليست الحقيقة الموجودة داخلي أكثر الحقائق يقينا؟ لماذا إذن أبحث عن برهانها حولي؟ لماذا أشرط يقيني بما ليس من جوهره؟ الأليق بي أن أنصرف وأصمت وأغمض، وأن أبتهل لإيماني، ذلك هو كبريائي ورقبي مواعيدي، لا تأخذني قبل إدراكها سنة ولا نوم.

أذكر الآن ذلك اليوم من أيام طفولتي، أذكره الآن وأنا كهل وحيد منفي في قعر غرفة في دار موحشة. نعم. كانت مشاهد السهرة الرمضانية في دوارنا هي علامات طريقي إلى دركي. كنت أدور بين المقرئ وصانع القهوة ومجلس المتسامرين، ألبث في كل ركن آنا ثم أقوم، يتشبث بصري بالمشاهد أن تغور، تغرق في الضباب ويسطو النوم على يقظتي وولعي. ما أجلس حتى أنهض، العيون من كل الأركان تراقب ترنحي وثقل أجفاني، أقيم قامتي، ألزم انتباهي، أبقي على الذكر والترديد. فلقد عرفت في تلك الليالي القديمة أنني إن غفلت غفوت، وإن نسيت نمت، فيكون الفوت. هكذا حتى سمعت الصوت. خرجت له وحدي.

دار الشابوري بالطبلة في لياليه، ودار شركاء آخرون في لياليهم، وفي كل مرة قبعت قدام دارنا، مقرفصا في ظل الجدار ممتلئا بالعتامة الفضية الجليلة موصول القلب بالصوت. يظل يعلو ويعلو حتى لا يكون شيء إلا هو. حينئذ أرى حامل الطبلة ينكشف عنه انحناء الطريق ظلا قاتما على الأثير الفضي يترقص ترقصا عجيبا، ويبادل ضرب العصا على رق أزيز قشرة الغاب في الرق الآخر، ويقترب فإذا ما حاذاني جمدت وتضاءلت حتى لكأن الضرب والأزيز على الناحيتين من رق قلبي المشدود، وحتى تصير الطبلة النواة من ظاهرة الكون، والبذرة من نمائه وينعه.

دار الشابوري بالطبلة أو دار بها غيره من الشركاء رجلا كان أو امرأة لم أسأل عن الناس ولم أسألهم. قعدت لموعدي كل يوم قدام باب دارنا أشهد الرنين يستحوذ على حواسي جابًّا ما سواه، ثم يتجاوزني الصوت حتى يغيب لا ينتقص شيء من عمق تجربتي ولا يرد شرط على سحرها.

ثم إنني كبرت. فرحت بنفسي أنمو، أقوى على ما لم أكن أقوى

عليه، أطول ما قصرت عنه قبل ذلك حيلتي، وأمشى في الأرض مرحا ومختالا فخورا. لكنني عجبت دائما للمرارة تخالط فرحتى بنفسي وتكبر معي بمقدار ما أكبر! لماذا؟ إنه كان المأمول ربما، اقتدار الكبير أن يحنو على الطفل الذي كانه وأن يقدم له على كل سؤال عذبه إجابة مرضية. لكن الواحد يكبر، يرحل عن شطآن طفولته، عن ذاته الغضة متروكة على الشاطئ المهجور معذبة بأسئلتها. يبحر الواحد مبتعدا لا يشفي الترحل الوجيعة القديمة.

إنني على كل حال كبرت، وأصبح لي مكان في مجلس أبي وقول في سمر جلسائه، وكثير مما أولعت به طفلا بعد لا يليق بي، أن أرقب الطبلة، أتلهف عليها وأجرى وراءها فرحانًا بها مخفيا عن الناس انشغالي بلغزها، لكن انشغالي المخفي ما زال بعد حارقا، يسمع المتسامرون صوت الطبلة ويبتسمون، أسأل الوجوه الكهلة المبتسمة، أليس في كل مخيلة طفل موءود بسؤاله العصي، يظل في حضنه نابضا بلا جواب؟ إنني كبرت حتى قُبِلْتُ، لكنني بقيت أعجب للمرارة تخالط فرحتى بنفسي وتكبر معي بمقدار ما أكبر. حتى عزمت على السفر.

اغتسلت من تراب دارنا ومن وحل حقلنا ولبست ثوبا جديدا ومشيت. ولما أراد ناسي أن يعانقوني كنت حذرا، خفت أن يتركوا بصمات قلوبهم على نصاعة بزتي، أبعدتهم عني برفق واستقبلت سكتي. سافرت. من حقيقتي إلى حقيقتي ارتحلت، من عبء المعاناة إلى نعمة التذكر فررت.

هأنذا أرقد على ظهر الفرن حيث رقدت طفلا في غرفتنا في دارنا القديمة. كم غبت عن هذه الدار؟ خرجت يافعا ورجعت كهلا في سنين بلا عدد. فما الذي ناداني إليه؟ وما الذي ندهني عنه؟ وإذا كنت قد بنت عن مكاني، فبم عجزت عن إجابة مسائلي؟ أم بم عجزت عن فهم إشاراته؟ هذان هما طرفا حقيقة سفري، وهذان انبهما عليَّ واستغلقا على تعقلي وإدراكي. وإذن فقد كان العجز على أية حال، وكان التبرم والتقلق والعزم على الخروج.

لكنني عدت. أبى ترك لي في قريتنا دارنا والفدان الذي بقى في أرضنا وحصة شائعة في دوار عائلتنا، وأنا هنا لأرعى مصالحي، لأرى في أمر حقلي وداري. دار مقفرة وحقل بائر. هذان هما العمر، وأنا أقف قدام لغز عمري حائرا عاجزا، وإزاء الخراب في الدار وفي الحقل، أبأنني غبت؟

إن الذي حولي مشتق جوهره من الذي بداخلي، أدرك القرابة

الوشيجة. وحينما أنشبت الآفة مخالبها في قلبي عدت بالخراب على داري وحقلي. لكنني عدت. كنست مطرحي هذا وفرشته. درت في الدار أزيل التراب عن المشاهد فإذا تحته الصمت والهمود، عدا البين على الذي تركت وخلف لي الفراغ، فأي صلوات قدام قبور الذكرى، وأي ابتهال وتسابيح حتى يحل طلسم الصمت ويعود لي السمع والبصر والفؤاد، وأسترجع قرابتي بالأشياء؟

الوقت يمضي بي إلى هدأة في الليل تسودها مادته الجليلة نقية من شوائب الأصوات. أسلمت نفسي لليل يملؤني بجوهره السحيم. ألم تكن هذه الهدأة في الليل موعدي؟ كيف أخذني عنها النوم ليالي وليالي؟ لكني هأنذا الآن. الأشياء تصمت حولي فيصحو داخلي وينبض. تخمد الحقائق خارجي فتتوهج حقيقتي وتزدهر. تسيل الدموع دافئة على وجهي. هذه الدموع ليست فيض كآبتي وقهري، إنها تنهمر من حزن رائق، من حزن شاف تئن أعضائي تشوقا إليه ونعمة به. أفرح بنفسي عائدا لنفسي. أنتبه في رقادي فأمتلك البهجة وتأتيني النقرات على رق طبلة السحور تولد بعيدة على حافة أقصى ما يطوله وعي.

إن الرنين الرائع لم يخرس أبدا، إنما أنا الذي نسيت، وأنا أذكِّر الآن تصرخ داخلي فرحة مبلولة بدمعي، فرحة تنشئني إنشاء، طفلا غضا أهتف باكيا مهتاجا: «يا أمي! أمي! لم لم توقظيني للسحور؟» وجه أمي حنون كما لم يكن وجه أم، تكلمني معذبة الملامح بحنان وجهها: «يا بنى! كم أشفق عليك من ساعة ليلية غريبة في الأوقات!» أنتحب لأمي مفطور القلب بوجيعة الأمانة الثقيلة المقدورة. أقول لها: «يا أمي! هذه الساعة موعدي، والضرب على الرق علامتي، والفوت مقتلي!» تغمض أمي عينيها وتطوح وجهها إلى اليمين وإلى اليسار تعالى تباريح الفكر والظنون، تقول لي: «آه يا بني! كم أشفق عليك من اللحاق إشفاقي عليك من الفوت! يا بن رحمي! حشت عنك الأقدار بيدي، بينا أرضعك لبان قدري!» وصوت الطبلة يقترب، إيقاعها الغريب بعيد غائر سحيق يتسلق من العدم حافة الكون اللانهائي، يدب في شسوعه مقتربا من قلبي وئيد الخطو، لكن الصوت في عروقي وفلذات لحمي، أدنى إليَّ من نبضي ومن خوفي، يأخذني إليه، يلغي خواطري، يخلي رأسي من الفكر الأخروى.

أتوسل لأمي الحانية بوجهها على وجهي، وأبي الجهم الرحيم، الحاني كما كان أبدا. قال لي معاتبا: «ألست يا بني قلت إنك مستيقظ لمواعيدك وحدك؟» ندمت على حمقي ورأيت جريرتي. ذللت وهنت. قلت معترفا: «لقد كان ذلك غروري يا أبي، وكنت ظننته

كبريائي، موَّهه عليَّ حسن قصدي، فلا تأخذني بجهالتي وقلة تجربتي! خذا بيدي يا أبي وأمي!! إنني إن فاتني موعدي ذبلت وضويت، نفقت مجردا من الانتصار بالموت!».

يزداد صوت الطبلة اقترابا، ويزداد خوفي أن يأبى أبي عليَّ مساعدته، أنظر متوسلا حتى أرى إقبال أبويَّ عليَّ. أسلم يدي ليدين حانيتين، أبي وأمي عن يميني وشمالي، يد أمي صلبة خشنة ويد أبي سمينة ناعمة. وجه أمي فيه تعب النهار والهم بمواعيد الليل والقلق من أجل غد، وجه أبي فيه أنفاس من قراءة الشيخ أحمد المبحوح الكسير الصوت. أقوم. وهني مسنود من يميني وشمالي بحول أبي وصلابة أمي. أقوم. رجلاي خائرتان، لكنني معلق طائر على متن حنان أبوي. غرفتنا تزحمها أنفاس نوم إخوتي وأخواتي ورائحة إناء البول، وأنا أرقص معلقا فرحان والطبلة تهوي إليَّ.

المصباح الكهربي صحا على قوة التيار التي اكتملت في هدأة الليل. ازدهى النور على وجوه مخلوقات وسط دارنا، إخوتي وأخواتي، معيزنا وخرافنا والكلاب، الحمائم والدجاجات والبطات السمينات. كذلك بقرتنا السمراء الفريدة، وجاموستنا العديمة المثال، الاثنتان أطلتا من باب الزريبة على وسط الدار، نظرتا صامتتين دهشتين. زجرتا عجليهما بين أرجلهما أن يحمقا، يثبا أو ينطا. الكل أحاطوا بي، يختلط الضحك بالزعيق بالثغاء والقواق والنباح، ومن فوق ذلك كله صوت الطبلة قادم، يأخذني من الفرحة إلى الفرحة الأعلى. انفتح الباب الكبير فانفرش الضوء شاحبا مرتجفا على أرض الشارع في جلال العتامة الفضية. أتأمل ظلي معلقا بين ظلي أبي وأمي ناكسا منصتا. الصوت يرن على كتلة واجهة دار الحريري قبالتي، تنفطر الملامح الحجرية وتعاني الجدران قدامي كأنما في صميم غليظ الطوب قلوبا شقيقة لقلبي. يقترب الصوت، أدرك اقترابه، وكيف سيكون حضوره وشهوده، وكيف سيبتعد مرة أخرى، يغيب في غور سحيق حتى يشبه البدء الختام، يلتئمان بلا ثغرة فينفيان الغياب. وأنا أستحضر اكتمال الدورة، أعيش الرقبى والتحقق والانصرام في تعاقب ملهوف وفرح وأسى.

والصوت يقترب، قادما عليَّ من كل صوب، متفجرًا فيَّ من داخلي، يهزني، يرجفني، ينثرني رمادا في كل حبة منه صوت ورجع، شوق ودمع. إنني أنا هذه العتامة الفضية الجليلة، ندى بارد الأعضاء وخائف يسع هذه الدنيا خوفي. أفرد ضراعتي على شسوع العالم، مغمض العينين، شامخ الأنف ممدود الذراعين، مبسوط الكفين عرقان ودامعا.

والرجل يقترب. يحمل الطبلة على كرشه، مربوطة من حبلها حول كتفه وإبطه، يضرب رقها بعصا في يمناه، بينما بيده اليسرى يبسط على الرق في الناحية الأخرى قشرة غاب تئز في الجلد كلما حمي وطيس الضرب. والخطو احتدم متناسقا مع إيماء اليد ودبيب الأقدام في تشكيل مصر موشك منقض.

لا فرار. جامد في مكاني أنظر، والرسم على صفحة العتمة الفضية ينبعج في عبث مزر بأصول الأشكال وأناقة الرسوم، وهو أيضا يتراقص بلا رصانة، ويتقافز في خفة. من أين إذن ذلك التكبر الثقيل الخطو الجهم الملامح المصعر الخد، أبأنه من صفق الرق بالعصا تلتحم السماء بالأرض في دوي مروع؟ خفيت العلة واحتدم الصوت يمتلك الحواس حتى الذهول وحتى يشتبه جوهرا الصمت والضجة، وحتى ما يمتاز سكون الليل عن عربدة الطبلة. خرس كلاهما، خرس مقطوع اللسان مفعم القلب بمعنى لا سكة إلى استكناه لغزه.

حينما صار حامل الطبلة في شباك بصري عرفته. في دوخاني وتشتت وعيي عرفته. نعم! إنه الشابوري بعينه. بكل طفولتي ضحكت، بكل شقاوة الطفولة تقافزت معلقا في يدي أبويَّ، تساءلت عن هوان الطبلة حتى يحملها ويدور بها رفيق اللعب الأبله السخيف هذا؟ ثم إنني مما تفكرت فيه انكسفت. رصنت حتى رأيت أنه ليس للطبلة سوى هذا الكيان الشاذ العجيب يستنطقها سرها ويروع بها الدنيا في ساعة هامدة متفكرة من ليل رمضاني إن غمض جفنه لا ينام قلبه.

لكن لا. ليس هذا الشابوري الذي عرفته، وهو أيضا ليس الشابوري الذي عجزت عن معرفته. إنه حالة ثالثة مشتقة مما يلابسنا من حال يستبهم كلما اشتد الدوي في غياب حتى الذهول، وحضور حتى لانتفاء الماضي والآتي، وحتى يكون كل التعبير تساؤلا ملحاحا يدق بقبضة من حديد على حافظة الدنيا نشدانا لإجابة منسية.

مجذوب في ذكر أم مأخوذ في زار تدق له العناصر عاصفة إيقاع ترتج عليه الأرض حيث نقف. راقبت قدمي شابوري وكيف تتقدمان تطآن ظلي، وكيف داسا قلبي وأنا أنظر لا أريم. ثم إن الطبل مضى. لم ينصرم، إنما آل إلى محاق في دورة مقدورة أبدية. رفعت عيني أسأل واجهة دار الحريري قدامي، جامدة في العتامة الفضية. قبضت على يدي أبي وأمي مرتاعا، وهما حدبا على ارتياعي. آه! لقد أشبه البدء الختام وانتفى الغياب.

ضغط أبي على يدي وحنت أمي بوجهها على وجهي. كلمني أبي

قال لي: «كانت هذه طبلة السحور يا بني!» حررت يدي برفق من يدي أبويَّ. وقفت وحدي وهما انسحبا إلى غياب يحيط به تذكري وتشوقي وتحناني. وقفت وحدي لا ظل إلا ظلي. كلمت ذكرى أبي: «نعم يا أبي! وأنا قد أدركت موعدي!» قال أبي وهو محجوب عني: «هل نوقظك للسحور كل يوم يا بني!» قلت: «إنني بعد ذلك سوف أصحو لموعدي وحدي!».

دموع دافئة تسح على وجهي وأنا راقد في فراشي على ظهر الفرن في غرفتنا في دارنا القديمة وبقايا صوت الطبلة ما زالت في أذني. قمت، اعتدلت جالسا أنصت للرنين المبتعد وأتأمل ما حولي. هذه دارنا. دار موتانا ودار الأحياء منا، يختلط الأشباح بالأشباح، الكائن بالذي كان. يترافدان والنهر لا ينضب ماؤه.

جررت إلى صفحة طعامي. أمضغ لقيماتي مالحة بطعم دموعي. تنهدت أهذي: «إنني لم آكل أطيب مما طبخته لي أمي، لكن الواحد يأكل أيضا!» أكلت ونويت. من غد أخرج. يمتلئ قلبي بوسط دارنا، أحبه كما أحببته أبدا. وسوف أنظر في أمر فداني الصغير. رقدت مغمضا يقظان وصوت الطبلة ما زال هناك. تنهمر الدموع من عيني. أهمس متسائلا في حرقة بكائي: «ما هي طبلة السحور؟ طبلة السحور.. ما هي؟»

والرجل يمضي بها في ليل الحارات كتلة من الظل في شفيف العتامة والقرية كلها قلوب مشدودة الجلد مسلمة للأصداء العميقة الغليظة. الإيقاع مبهم قادم من أعماق الوقت ومنته فيه، ديمومة مدورة باهظة نابضة، بينا رق الفؤاد المستلب نهب للصوت وللتذكر.

القاهرة في ١١/١٠/١٩٨٦

الظنون والرؤى

القضية

- الدعوى

زفر مقهورًا

ـ أنا لم أقتلها..!

فك اللفاع الصوفي عن رقبته قليلا ليتنفس. الناس يقولون عن هذا اللفاع، إنه يأكل من رقبته فتنحل يوما بعد يوم. كلهم ذاهبون إلى مأتمها. يحس تزاحم خطوهم وأنفاسهم وخشيش جلابيبهم حوله. راجعون من صلاة العشاء. لذعه البرد والخوف فتشبث باللفاع، يلتف حول رقبته مثل حبل المشنقة. انقضت عليه نوبة السعال حتى كادت عيناه تخرجان من محجريهما..

ـ أنا لم أقتلها...!

ويوشك السعال أن يقذف بروحه خارج صدره. استند على حائط قليلا حتى استعاد أنفاسه. عيناه المليئتان بالدموع لا تبصران ما حوله لكنه مشى يدب إلى مأتمها.

دار بعينيه من أسفل حاجبيه مستطلعا الوجوه الناكسة الصامتة. طرف محاذرا ناحية قارئ القرآن. محجرا عينيه عميقان مطموسان بالظلال. ملأه الوجه الأعمى بالخوف. أدخل رأسه بين كتفيه. كان وجهها أيضًا مخيفًا. كانت ساقاها نحيلتين كحديدتين. كانت إذا تسير تحجل. ارتعد كأنما يسمع خطوها الحاجل يطارده في عتامة الزقاق ليلة أن سرقت نقوده.

ليلتها تحسس جيب جلبابه فلم يجد النقود في المنديل. استدار مرعوبا صارخا:

ـ سرقت مالي يا امرأة؟!...

ومضت عيناها في الظلام كسكينتين وهو تضاءل أمام غضبها. صرخت فيه:

ـ امش من قدامي. ملعون أبوك. نجس مالك!

اختنق. احتبس نفسه تماما. تعلق بوجه قارئ القرآن المخيف نظره. السعال انقض عليه مرة أخرى يمزق صدره. دارت وجوه المعزين ناحيته

والقارئ سكت وهو قام بسعاله خارجا ينشد الهواء. استند على حائط وظل يسعل حتى برد جسمه وتثلجت أطرافه وأحس برأسه يذوب. انهار جالسا بجوار الحائط.

ليلة أن ضاعت نقوده ذهب إلى إمام الجامع وبكى بين يديه:

ـ إنها كانت ماشية في الحارة على إثري. وصرة النقود سقطت مني. هي التقطتها بلا شك. وهي المتهمة بلا شبهة؟!

وإمام الجامع أطرق قليلا ثم قال:

ـ فليقض شيخ المندل في الأمر بعلمه اللَّدُنّي...!!

- القضاء

تعذب إمام الجامع عذابًا أليمًا ليقوم واقفًا من مجلسه على الدكة. طويل نحيل كعود القصب. يفرج بين ساقيه. شيء ما مدلى بين وركيه يثقله بطريقة أليمة. وجهه أصفر كالميت. عيناه مائجتان. مضى تاركا المأتم. يسير خطوًا قصيرًا مضطربًا مثل طفل يتعلم المشي.

يحس عيون المعزين في ظهره، وطنين صوت قارئ القرآن الأعمى. خائف لم يعتد بعد ظلمة الشارع. الأركان مشحونة بغموض غريب. تداخل في نفسه. يمشي خطواته المتعثرة. يتجاسر الومض في جنبات العتمة. الخوف يسري في أوصاله. يتصورها عيونًا تومض بالإدانة. يكاد يموت خوفًا. بذل جهدًا ليحرك موات شفتيه. تخرج الكلمات من فمه مرتعشة. آية الكرسي تدثر قلبه بالأمان. انطلق يقرأ متشبثًا بالحروف.

يا لسر الكلمات. ارتفعت همساته بالتلاوة وازدادت هزات رأسه عمقا. غمر روحه الأسى فتحدرت دموعه غزيرة ذليلة. كم سهر وحيدًا في الليل. كم سهده سر الكلمات، لكنهم لا يفقهون. هؤلاء الفلاحون. البقر العمي القلوب.

اعتادت عيناه العتامة فأصبح يرى. وقف مستندًا على عصاه ناحلا مفرج الساقين ينظر إلى الأمام بعينين مريضتين وحوله تقف أكواخ الطين السمراء صامتة تتدلى على جباهها عيدان الحطب ثقيلة الأهداب بالندى. همس محدثا أكواخ الطين كأنما هي الناس قعودًا على حصر المسجد الجامع:

ـ كانت لها عينا شيطان مريد. كانت تحجل كقردة. لم تكن أبدًا امرأة صالحة. حطب جهنم. حقت عليها كلمة الله بما سرقت..؟!

- التنفيذ

جاء الناس جميعًا. ضجيج هائل. وقف إمام الجامع وسط الحلقة نحيلا مفرج الساقين مستندًا على عصاه وبجواره شيخ المندل. رفع هذا ذراعيه إلى أعلى فسكت الناس تماما. مد يده فقبض على معصم طفل صغير. مات الولد خوفًا. وضع صاحب المندل على الكف الصغيرة المبسوطة قلة هجينا لم تبل أبدًا بماء. ترك القلة في يد الطفل المرتعشة المبسوطة ورفع ذراعيه ووجهه إلى السماء وبدأ يتلو كلمات غريبة غير مفهومة لأحد. وجهه معروق مخيف. صرخ في الحاضرين:

ـ فليعترف السارق بجرمه قبل أن تحل به الفضيحة. وإلا فإن القلة سوف تعرفه بسر الكلمات. وبسر المندل..!!

تقبب الصمت كأنما هو منصوب على شواهد قبور طينية.

بدأت القلة تهتز، ترقص، تميل، والولد منقاد لها من ساعده النحيل. تأخذه سائرة به إلى داخل الحارة والناس خلفها زحام صامت لاهث الأنفاس حتى دار المرأة السوداء الصغيرة. دار كالجحر بلا بهيمة ولا عيال.

وما استقرت القلة على الدار حتى صرخ الناس. صرخة واحدة. صرخة وحش متعطش للافتراس. التصقت المرأة بالجدار تصرخ مرعوبة. تقدم إليها إمام الجامع:

ـ ردي المال إلى صاحبه يا سارقة!!

وصراخ جمع الناس وراءه.

ـ سارقة. سارقة!!

والمرأة السوداء الصغيرة لا ينقطع نحيبها المرعوب الملتاع.

عاد الناس إلى الباحة على رأس الحارة. وقف الجميع متحلقين حول إمام الجامع والشيخ صاحب المندل. أخرج هذا قربة. ظل ينفخ فيها متمهلا وئيدًا، والقربة تنتفخ رويدًا رويدًا، تتجسم في شكل حيوان نافق منتفخ.

وشيخ المندل تكلم خاطبا:

ـ علقوا هذه القربة في دار قوم صالحين. سوف تحل لعنتها على السارقة. تنتفخ وتتعذب حتى الموت..!

وقد كان. وعلى هذه الصورة، على صورة حيوان نافق منتفخ، وجدت المرأة السوداء الصغيرة في دارها ميتة بعد أن اختفت أيامًا لزمت فيها

الدار لم تبرحها.

هكذا ماتت وها هم الرجال في مأتمها ناكسو الرءوس يسمعون القرآن من غلام مفقوء العينين.

- الحقيقة

كانت امرأة طيبة، سوداء صغيرة طيبة. لم يعرف أحد بنت من ولا إلى من تنتمي. هكذا كانت. صبارة وحيدة لا تعرف من زرعها. لكنها كانت طيبة، تبكي وتضحك كالأطفال وتخمش من يؤذيها كقطة. تدور سحابة يومها على السكك تجمع السنابل الساقطة من أحمال الجمال وتجمع الروث والحطب لوقود كانونها.

وهو..؟ لا حول ولا قولة إلا بالله. وماذا كان بوسعه أن يفعل..؟ كانت النقود في جيبه طوال الوقت. المال المسروق ملفوف في قماش المنديل ومعقود عليه عقدتين. لكن يا ستار. ماذا كان بوسعه أن يفعل..؟

عيناه مغمضتان ورأسه ناكسة وصوت قارئ القرآن يأتيه من بعيد. كأنما الله يعاتبه. وكأنما ثقل صرة المال الحرام في جيبه تجذبه تهوي به إلى العذاب. الناس تضطرب بالأمر اضطرابًا شديدًا وهو جامد مشلول، من ساعة ما لقط الصرة من الأرض في عتامة الزقاق وهو جامد مشلول لا يسعه أن يقدم على فعل.

نظر ناحية الرجل الذي يسعل بشدة. ود من قلبه لو أن روحه خرجت مع إحدى سعلاته ذلك الإبليس المرابي. ما ينقصه لو ضاع منه ملء منديل وعنده في طاقة الجدار كوز مليء بالجنيهات. كم فرح عندما لقط المنديل من على الأرض عند كعب هذا الكلب. وهو الآن يقبض على الصرة بشدة موجعة وكفه تنضح عرقا.

يوم المندل ذهب مع الناس ليرى. صرة المنديل في جيبه تقبض عليها يده. القلة تمر به. قتل ألف مرة بفأس ثلمة. لكن القلة اجتازته ومشت نحو دارها. يا ستار. ما أتعس الناس الضعفاء المقطوعين.

ماذا كان يمكنه عمله..؟ كانت القربة منفوخة معلقة في وسط دار رجل صالح والناس لا ينامون من الرعب. وهو قعد في دهليزه مفتوح الفم مفتوح العينين جامدًا لا يطرف إلى أن أعلن صراخ النسوان موتها وتنفست القرية الصعداء... ها هو في مأتمها وصوت قارئ القرآن يأتيه كالنواح.

نواح يجتاح داخله. رعب يسحقه. يتفصد لحمه كأنه مريض بألف علة غريبة على الحكماء. هب واقفا. انطلق لا يلوي على شيء إلى بيت

المرابي. كان متقرفصا في وسط داره يسعل يذهله السعال عما حوله. ألقى في حجره بصرة المنديل وهرب لم يعرفه أحد.

- والناس نسوا

فإن للأيام القائظة أصائل ناعمة. وساعة العصر تكون الباحة على رأس الحارة ملعبا للنسمات الطرية. وبائع القماش يأتي ويحل صرته عن الأثواب الباهرة الألوان. والنساء حوله يضحكن ضحكات مكركرة ذات ذيول.

وساعة العصر يأتي بائع الأباريق ـ ذلك الجسور ـ أسود الساعدين أسود الفخذين عظيم الهامة عظيم الآلة. يقيم الأباريق حوله كأنهم أطفال سود ساكتون. يعابث النساء ذلك الجسور وهن حوله مائتات ضحكا.

وفي قيعان الدور تتعرين. يتدفق الماء الساخن من الأباريق يلذع الأجساد العارية لذعًا جسورًا. تنبعث تحت وقع الماء على الأجساد الرجفات والشهقات. ثم تمضي زرافات النساء إلى محل الزار يرقصن على لحن الدفوف الوحشي في الجلابيب الملونة حتى الغياب. إنهن كن قد شيعن نعشها حتى آخر الحارة وصرخن وراءه حتى انقطعت أنفاسهن.

تحت السقوف الساخنة

- يا سادتي

ليست الأشياء هكذا دائمًا، ومقاييسكم ليست مطلقة، ومن كومة القمامة قد تنبثق زهرة خارقة البهاء، أو قد تسبح على وجه البركة المتعفنة الراكدة الناشبة فيه نباتات الماء. إنني مرات عديدة وقفت بإزاء مثل هذا الجمال حائرًا.

حقًا إننا نملك شوارع تكتسح المسافة، وسدودًا تلزم الأنهار شطآنها في خجل، وموسيقى تنفي عن الروح الضعة، لكن تأملوا. حياتنا هذه كانت في البدء أكداسًا من الهلام عائمة في مستنقعات شاسعة. ينبغي علينا إذن أن نتفكر، أي طاقة هائلة تحتويها الحفر المبلولة والزوايا المعتمة.

من هنا أكتب لكم. الحارات تتحدر نابتة من الشارع الكبير كالشرايين على ظهر ورقة الشجرة. البيوت متزاحمة وسط أكداس القمامة. البيوت كلها جديدة، مبنية بالطوب الأحمر ولها سقوف من الأسمنت المسلح. بيوت بسيطة العمارة، بل إنها جهنمية. السقوف الأسمنتية الواطئة تتحول في وقدة الظهيرة إلى ألواح من نار قريبة من رءوس السكان. ويخيل إليَّ أن قشرة الدماغ ربما يصيبها بعض التلف من تسلط هذه الحرارة عليها. بل ربما اختلط عمل المراكز المخية. لا أجزم بذلك، فلست متخصصًا.

الناس في شبابيك البيوت مثل مقل مريضة حائرة في نقر المحاجر. وهم أمام أبواب البيوت شاحبون مبقعو الوجوه، يضحكون أو يبكون بعصبية وزعيق عال. وإذ يتعاركون يخمشون ويجرحون بقسوة غريبة. تسيل الدماء الحارة قانية. فجأة تجمد مسودة على الجروح إذا ما ضربتها الشمس.

أكداس من القمامة في كل مكان. فالناس طوال النهار يرسلون العيال بالقروش إلى الدكاكين يأتونهم باللفائف الصغيرة. يفضونها، يلقون بالبقايا من الشبابيك ويأكلون، كأنهم جميعًا معدة واحدة لها مليون فم ومليون يد تناول ومليون فتحة إخراج. أهذا هزيم التمطق أم دبيب الحياة الجبارة التي احتوتها أكداس الهلام العائمة في المستنقعات الشاسعة في الزمن القديم.

هنا رأيت كوثر. قبض الحزن قلبي. يا إلهي كم من العمر راح. لو كانت يدي قادرة على أن تطول النجوم، أو تخط أكثر الكلمات عذوبة. لو كانت الدموع

تظل تهطل حتى تغسل كآبة القلب.

يا سادتي من هنا أكتب لكم. في قلبي وعقلي وروحي أجد كوثر، العينين والغديرتين والأنامل.

- الفرح

من الشبابيك تطير الضحكات والتحيات والتنادي. خبر الفرح مثل نسمة طرية تطير الكلمات الحلوة والغدائر والشيلان وذيول الفساتين وتشيع في الوجنات اللون وفي العيون البهجة. دخلة العريس على العروس الليلة ومكبر الصوت يرن في جنبات الدنيا بالموسيقى والغناء. والناس تمشي في جماعات في اتجاه الحارة حيث العرس.

كوثر طائرة في وسط الشارع. يدوس شبشبها في الوساخة والبلولة، يتلوث، لكن كعبها يبقي نظيفًا. تلوح بكفين سمراوين خشنتين من الشغل والشمس، لكن الأظافر مطلية بطلاء وردي من عند أبله حسنية امرأة سي رمضان. يا ربي كم هي فرحة. قلبها مربوط بخيوط إلى كل هذه الشبابيك المطلة منها وجوه صويحباتها مهتاجة بأخبار العرس.

كل آن تنزل واحدة. تمشي كوثر على رأس الجماعة السعيدة. كلهن ذاهبات إلى العرس. ملن من الشارع إلى الحارة. الحبال مشدودة بين واجهات البيوت على الصفين تحمل المناديل الملونة والرايات وعقود من مصابيح الكهرباء. مكبر الصوت مروع حتى ليكاد القادم يسقط على ظهره من عنف الزعيق. لكن العروسة جالسة جنب العريس على كرسيين منصوبين على تخت عال يلمع على جباههما الضوء وحولهما الآلاتية وأمامهما تقف الراقصة والحارة مزروعة عيالاً ونساءً ورجالاً وزعيقًا. خليط الغناء والعزف والضجة يقذف به مكبر الصوت عاليًا إلى السماء فما يميز السامع منه شيئًا.

العروسة جميلة. يا ربي ما أحلى الزواج. كانت منذ يومين واحدة من صاحبات كوثر، ثم جاء الحظ حط عليها، خطفها من وسطهن. العريس في شركة البلاستيك. شاب زين. من يوم الخطوبة يأتي بمظروف أجره كل مدة أسبوعين، يلقيه في حجر عروسته بختم كاتب المصنع. تفتح العروس المظروف بيدها لتجد الأجرة كاملة لم تنقص مليمًا. وضعوا القرش على القرش حتى استطاعوا أن يشتروا كل شيء. اليوم دخلتهما. ما أحلى الزواج. قلب كوثر مُشَبَّع بالفرح مثل قرص عسل النحل.

لكن سرعان ما آن أوان الدخلة. زفت ست سنية الراقصة العريس والعروسة إلى غرفتهما مشت أمامهما ومعها الآلاتية وهى ترتدي

الفستان الحرير الوردي المزين بالترتر اللامع وذيله يجرجر على أرض الحارة حتى النهاية. ثم عادت الراقصة لتجلس على التخت وحولها الآلاتية. ترى الكآبة بعد ذهاب العروسين مختلطة حتى بضوء الكهرباء وبألوان المناديل والرايات وعلى وجوه الناس. لحظة مليئة بخيبة الأمل. العروس للعريس والجري للمتاعيس. هما الآن في سرير العرس. آه ما أحلى الزواج.

أحاط الشبان بالتخت زاعقين زائطين يطالبون الراقصة بأن تبدأ. كوثر تعرف ست سنية تقابلها أحيانًا ذاهبة إلى الدكان أو عائدة منه. تبادل البنت الست التحية مبتسمة عن أسنان ذهبية. تفرح كوثر بالابتسام. تعرف الآن أن الشباب يريدون أن يروا ست سنية ببدلة الرقص. خنق الخوف قلب البنت قليلا. تمنت ألا تخلع ست سنية رداءها الحريري وتبقى عارية بتلك البدلة المدندشة.

أم آمال فرحة بأخواتها البنات الثلاث. شامخات متفجرات بالصبا. أجسادهن ملفوفة في جلاليب اللينوه المشجر الخفيف حتى لتبدو السراويل ومشدات الأثداء. أبو آمال وأصحابه مخبرو الشرطة يدخنون سجائر الحشيش ويقرقعون بالضحك. كل آن يخرج واحد منهم مسدسه من تحت جلبابه البوبلين الأبيض ويطلق منه الرصاص في السماء. يعقب ذلك عاصفة من زياط الجدعان والبنات. سي رمضان بشركة المقاولات واقف مع حميه سي خليل عضو الحزب. على البعد يرتكن على الحائط سي حسن الشرطي الذي دركه في العجوزة. يدخن شاردًا ولا يكلم أحدًا.

صاحبات كوثر حولها يضحكن مرحات ويتغامزن على كل شاب حولهن ويختلفن فيه، هل ينوي الزواج أم لا، وأي واحدة منهن قد تروق له. تضحك كوثر معهن لكنها تعود للشرود متأملة الناس حولها، عائدة مرة أخرى إلى مراقبة الست سنية الراقصة متسائلة في خوف، أتراها تخلع ثيابها فعلاً. في هذه اللحظة رأت كوثر أمها مقبلة من أول الحارة. ما زالت نضرة كأنها الأخت الكبيرة. إذا حازت جماعة سي رمضان حيتهم. قبض هذا على يدها وجذبها إليه أوقفها إلى جانبه. تقلص قلب كوثر في صدرها.

خلعت ست سنية فستانها الوردي وبقيت شبه عارية ببدلة الرقص المدندشة وسط الجدعان المحيطين بالتخت يزعقون بها زعيقًا عاليًا. طيات لحمها شائخة متهدلة في تناقض مع وجهها المطلي بالأبيض والأحمر. تأملت كوثر ست سنية طويلاً وهي مقهورة، ثم تحولت عيناها إلى أمها. ما زال سي رمضان قابضا على كف الأم وهي واقفة إلى جواره. لاقت عيناها عيني بنتها. خلصت كفها ومشت ناحية كوثر. مشيا معًا عائدتين لا تريان في ظلام الشارع بعيونهما العاشية من أنوار الفرح. تتخبط الأقدام في الحفر المبلولة وفي أكوام الزبالة. ضجة مكبر الصوت

تدق الرءوس بلا رحمة. تحدرت دموع كوثر على خدودها دافئة.

كوثر يا بكرية أمك، لماذا تبكين؟ يا لك من بنت رقيقة ودمعتك قريبة.

- السوط الفولاذي

إحدى عينيه ثقل جفنها حتى انسدل وظلت مغمضة. لا يدري أحد متى بدأ هذا، ولا هو نفسه. ربما مرة غمضت هذه العين فكسل عن فتحها وتركها هكذا. ربما قال في نفسه إن الأخرى كفاية. يشتغل في مصنع الزجاج. ينقل هناك الأشياء الثقال من مكان إلى آخر. هذا عمل لا يلزمه تحديق كثير. لم يفتح عينيه وهو يؤديه؟ أحسن أن يغلقهما، خاصة إذا كان الحمل ثقيلاً.

له حذاء غليظ متهرئ. مشى يدب في الطريق على أكداس القمامة. حذاء قديم في قدمي عملاق قديم يتدفع في مشيته عائدًا إلى بيته. طوال عمره يعود إلى بيته في هذه الساعة تعبًا. طوال عمره. اشتغل عاملاً زراعيًا ومبيضًا للنحاس وأشياء أخرى. الأمر لا يختلف كثيرًا. يروح لشغله باكرًا ويعود في المساء تعبًا. يا له من عمر. ليس له شهادة ميلاد. لم يشغل نفسه بهذا. من أول الزمان وهو يدب رائحًا وآيبا على طرق متسخة بالبقايا. من أبوه؟ من أمه؟ كيف كانت دارهم وهو طفل؟ لا يذكر هذا الآن ولم يحاول أبدًا أن يتذكره، فما تجدي الفروق. السنون السود حشرت الناس هنا. رجال شعث غبر ونساء كالبقر العجوز جاءوا من كل القرى، كدسوا في دور تعذبهم بالحر وتعذبهم بالبرد، في بقعة أقصيت عن المدينة وأبعدت عن رحمة الله، يعود إليها كل مساء من عمله موثق العاتق بالعناء.

ولقد كثر اللغط هذه الأيام حتى ليحس بغربة حقيقية، يتكلمون كثيرًا هؤلاء النحيلو المعاصم. وهم يملكون الآلات التي تجعل الأصوات عالية نافذة لا تستطيع أن تغلق من دونها الشبابيك. في كل نافذة دكان، على كل حائط، على كل مئذنة، على كل سطح دار يوجد مذياع أو مكبر صوت. الناس فرائس هذه الضجة، تستخرجهم من قيعان الغرف وتسيمهم العذاب بالخطب والأذان والغناء والإعلان عن البضاعة. يلقون إليك بالبيانات، ينهون إليك آخر الأخبار، يطربونك، يعظونك، يدعونك للصلاة ويحذرونك من معاص لا تعرفها. أين تهرب يتحدب الجسد العملاق من الخوف. أعضاء الحزب ذوو الأسنان اللامعة واللثى الزرقاء. هؤلاء الذين يملكون بطاقات يضعونها في جيوب قمصانهم الشفيفة.

ثم انطلقت فرقعات السوط الفولاذي كطلقات الرصاص. تترى بإصرار وقسوة وحشية. يتحدب الرجل متحاشيا السوط الطائر فوق رأسه. يزداد تحدبا ومذلة، والسوط طائر في الهواء كأفعوان مصنوع من فقرات فولاذية

تدوي فرقعاته وتظل تدوي حتى يقعي الرجل مهيضا مكسورا يعوي:

ـ السماح يا عمي!

عندئذ ألقى المجذوب بالسوط على ظهره. حلقات من الصلب تبدأ في حجم القبضة ثم تصغر وتستدق حتى تصير في النهاية قدر حبة الشعير. السوط منسدل على قامة المجذوب حتى الأرض. يضحك ضحكات بشعة. تلمع أسنانه في الضوء الشاحب. ملامحه مجنونة بالتشفي. مد يده فتناولها الرجل، قبلها في خضوع وعاد يواصل طريقه نحو بيته.

يدب في حذائه المتهرئ. ذليل تسح الدموع في داخله. تذكر ابنته كوثر، بكريته ووحيدته. ليته اشترى لها شيئًا طيبًا.

لا تتعبي عينيك بالتحديق في العتامة قلقا على أبيك يا كوثر. إنه سيأتي على أي حال.

- جدار الخوف

شحمة أذنها تفرقت ثلاثة ألسن صغيرة. لم يبق الآن مجال لقرط، وهى كانت تهوى القروط الثقيلة. طاقتا أنفها هائلتان. تشرع وجهها لأعلى وتشهق، ثم تئوب ناكسة الرأس تعبث في ملء جيب مرولتها من قروش الألمونيوم. تجلس على كرسي بجانب منضدة رخامية صغيرة. يأتي ولد نحيل. تلقي إليه بفردتي شبشبها من قدميها. يأخذهما الولد وينتحي بهما ناحية من الرصيف كيما يعكف على طلائهما.

من مكانها هذا ترى امتداد المنازل على جانبي شريط القطار. منازل صغيرة مكدسة أسمنتية السقوف. أسراب الناس ـ على البعد ـ صغار سود كالنمل يدبون يعبرون شريط القطار من ناحية إلى الناحية الأخرى بلا كلال. كل آن يندفع قطار على الشريط داويًا مزلزلاً قاطعًا أسراب الناس بقعقعة الصلب الخرافي القوة. يجزع الناس. يقفون على الجانبين متراجعين. لكنهم يعودون مرة أخرى، يدبون يعبرون من ناحية إلى الناحية الأخرى. وهي معهم، من مكانها هذا تتبعهم بعينيها. ثم يزلزل القطار ويجمد قلبها خوفًا. حتى يذوي الضجيج مبتعدًا. حينئذ يستريح خوفها وتعود تعبث بملء جيب مرولتها من قروش الألمونيوم.

لحظات الخوف تلك صنعت أيام العمر. أيام عصرت القلب بأصابع من حديد. يرحم الله رجلها. كان خشن الصدر عظيم الساعدين ثقيل الوطء. كان يلم مزق نفسها في الليالي السود. كان يقبض على معصمها بكفة الضخم ويمضي بها وبالعيال يجوب أرجاء النهار مفزوع العينين يحفر في الشقوق من أجل العيش. ثم إنه كان يشترى لها كل آن قرطًا، فكم كانت تهوى

القروط الثقال. لحظات الخوف، والدمعة الدافئة بعد انفثاء الفزع. يا له من عمر.

تدير هذا المقهى الصغير على محطة شبرا الخيمة. تقدم الشاي لراكبي القطر البطيئة. رجال طيبون وقطر قديمة تتلكأ قليلا هنا، ثم تمضي تجرجر حديد أطرافها مقرقعة وهي من مكانها هذا على الرصيف ترى امتداد المنازل الشاسع. لها تحت هذه السقوف الساخنة بنين وحفدة يدبون رائحين غادين مع هذه الأسراب السوداء. كثيرًا ما يأتون يرفعون إليها وجوهًا تعرف فيها ملامحه. يرحم الله رجلها، تدس يدها في جيب مرولتها وتعطيهم قروشا من الألومنيوم.

كان يلم مزق نفسها في الليالي السوداء، ثم مات. العزاء أن الصبح يطلع بعد الليل الموحش. تلبس شبشبها وتسعى إلى المحطة، إلى الأنس بزبائنها من ركاب القطر البطيئة. رجال طيبون يرشفون الشاي وينصتون لها تحكي تضحك عن أسنان تالفة وهي تسأل: ما نحن؟ وتقول وهي فرحانة: بذرتنا يد مباركة. نحن كثيرون ملء الأرض. يحصد فينا الموت بمنجله، ومن ورائه تخضر الربة، ما التفت إلا صادفت وجهًا لصيقًا بوجهك. ثم تضحك وتشرب شايها وتضع قدميها في شبشبها الذي طلاه الولد حتى أصبح يلمع. تطرف ناحية الطابور الذي تراه على البعد يزحف عابرًا شريط القطار في تصميم. عزم رث مترب مصمم لا يتردد. تجد في قلبها بقايا نشوة قديمة. يرحمه الله رجلها..شعث نفسها في الليالي الموحشة.

فجأة انطلق على القضبان قطار سريع. ضجة ترتج لها أرض الرصيف تحتها وهي جالسة. هبت واقفة وكوب الشاي في يدها. القطار طائر بجناحين من ريح محمل بتراب أعمى عينيها. صرخت:

ـ استر يا رب....!

شق القطار الطابور العابر قسمه. ضحية جديدة سقطت. رشق خنجر الفزع في قلبها. ولولت كما لم تفعل في أسود أيامها. يا رب كل شيء. كيف عرفت أن القتيل هو أحد أبنائها كان ساعيًا إليها.

فتحت للابن الذي فقد ساقه دكانا، فهو لا يستطيع أن يعمل. كل يوم بعد أن ينتهي يوم عملها تمر عليه في دكانه. تقف قبالته طويلاً، تتنهد ثم تمضي إلى بيتها. كوثر أيتها الصغيرة غير المجربة، لا يوجد رجل برجل واحدة. إنما يفقد الرجل ساقه ويبقى عمرة يتألم.

- اللص

الناس أمم مغسولو الثياب، قريرو الوجوه بالمذلة، يمشون نحو المسجد في الشارع المفروش بالقمامة. مكبر الصوت يدوي بكلمات خارقة كأنها فرقعات صوت المجذوب، والناس يمشون حتى المسجد. يخلعون أحذيتهم ويخطون على الحصير الرطب. يسلمون أنفسهم للعتامة الساجية، صامتين كأنما على رءوسهم الطير. استمعوا للموعظة. صلوا وحينما انتهت الصلاة تلفتوا بحثا عن نعالهم. حينئذ صاح صوت خائر ملسوع:

ـ الفاتحة يا رجال يا مؤمنين. اللهم احرق قلب من سرق مذياعي. اللهم احرق قلبه كما حرق قلبي!

وتحركت الشفاه والقلوب تقرأ الفاتحة، وتستمطر اللعنة وغضب السماء على اللص. فهؤلاء الناس لا يخشون شيئًا مثلما يخشون اللصوص والنساء ذوات الصدور والأرداف والعيون الجسورة.

أما هو فإن له دكان بقالة صغيرة، يقضي النهار مستندًا بمرفقه على طاولة البيع. بيده الأخرى يمسك عكازه. العيال النحاف الشاحبو الوجوه والنسوة والبنات ذاهبون إلى دكانه وآيبون من دكانه النهار بطوله في مسارب كمسارب النمل الأسود.

لم يسمعه أحد أبدًا يتكلم. له عينان واسعتان وشارب رقيق وذقن مزغبة. وحينما تلقي يد نحيفة قرشًا فإنه يرن على رخامة طاولة البيع الموضوعة في فتحة الباب. حينئذ ينظر هو إلى الوجه الخائف في حنان صامت. يتناول القرش ويلقي به في الدرج يدور حول نفسه على رجل واحدة في دكانه الصغير. ثم يظلع متحركا إلى رفوف البضاعة. يأتي بالمطلوب يطرحه على البنك في سكون.

مسارب الأقدام على الأرض المحملة بأكواب القمامة لا تعدم الحياة أبدًا. ذاهبون إلى الدكان أو آيبون منه. يحملون المشتريات في الأيدي، والقلوب ترتجف بالهمسات كأسلاك البرق، في الغرف الساخنة السقوف يتكلمون بصوت أكثر ارتفاعًا، لكنه أيضًا خائف ومرتجف:

ـ هل رأيت ذلك الذي كان واقفًا معه عصر أمس؟

ـ ذلك الولد في القميص الأحمر؟

ـ نعم. كانا يتكلمان ويتلفتان حولهما في حذر..!

ـ يا خوفي أن تكون عيونهم على سكني..!

ـ ما الذي عندك تخافين عليه..؟

ـ وعاء الطبخ النحاسي الكبير..!

وتصمتان. يستطيل الصمت المتوتر. ثم فجأة ينفجر صراخ ملتاع في ناحية من نواحي الحي. ينهمر الناس على مصدر الصوت. هناك يتكدسون جمهورًا زاعقًا صاخبًا حاقدًا. وفي بؤرة الجمع تقبض سواعد قوية على شاب نحيل زائغ العينين يحمل متاعًا مسروقًا. يرغم على أن يحمله على رأسه كشاهد لا يكذب على ارتكابه الجريمة. تنهال عليه اللكمات والصفعات ترضه وتلهب أصداغه وتطير الشرر من عينيه. المجذوب وسط الجمع يفرقع سوطه في نشوة. الفرقعات كطلقات مدوية. ثم تتحرك الزفة بالولد المتهم بالسرقة إلى مخفر الشرطة. هناك يتركونه ويرجعون، الذين قبضوا عليه وسلموه، ينتشرون في الشوارع بين البيوت مكونين نوبات صخابة. جماعات صغيرة كل واحدة تحيط بشخص يحكي ويحكي بفرحة غليلة يلحق بالحلقات العيال والبنات والنسوة العجائز ينصتون مبهورين بارقة عيونهم بالدهشة والخوف.

لكن الناس أيا ما كان الأمر لا يكفون عن الاحتياج إلى قطعة صابون أو إلى ما ثمنه بضعة قروش من الجبن الأبيض أو إلى ملء صحن من العسل الأسود. لا يكفون عن التردد على الدكان راجفين بالهمس كأسلاك البرق. وهو لا يغير من متكئه على رخامة طاولة البيع. الحنان الصامت في عينيه الواسعتين لا يشوبه اهتزاز. وإذا ما امتدت إليه يد بقرش دار حول نفسه على رجله الواحدة. ثم يظلع مستندًا على عصاه، يأتي بالمطلوب دون كلمة. ثم يعود إلى سكونه الأول.

تمشي كوثر ناحية الدكان قابضة على فلوسها في يدها. تضحك جدًا، فهي لا تعرف كيف تتزوج البنت رجلاً له ساق واحدة. لكنها تقول في نفسها لا بأس، ما دام طيبًا وفالحًا. وإذا خطر لها ما يقوله الناس عنه، هزت كتفيها في عدم تصديق. مثله لا يسرق. في عينيه طيبة وتعفف كأنه على صغر سنه أب أو أخ كبير. كم تسعد إذا اشترت منه شيئًا. لا يقول ولا يجادل، إنما يفعل ما يستريح إليه القلب. سوف تتزوجه. وإذا لم يقل لها سوف تبادئه هي بالكلام. تضحك جدًا إذا تصورته معها في حفلة العرس يمشي يظلع بساق واحدة مستندًا على عصاه. لكنها تقول لا بأس، القلب يوده والروح تهواه. تمشي ناحية الدكان قابضة على فلوسها في يدها.

رأت ناقلة الجنود تقف في الشارع الكبير. تدفق منها المخبرون والشرط وركضوا في الحارة الضيقة. انقضوا على الدكان. مزقوا كل شيء إربًا. كسروا كل إناء حطموا كل زجاج. دلقوا كل سائل وكبوا كل جامد. صرخوا وزعقوا ولكزوا بلا حساب. نشروا الرعب في دائرة شاسعة. لم يكن ثمة من يصرخ سوى كوثر.

الناس في الشبابيك كمقل حائرة في عيون مرتاعة. الناس مزروعون في

الأرض دوائر دوائر حول الواقعة يرون الاجتياح بلا حراك. والأعرج بين يدي الشرط كخرقة. عجنوه عجنًا. تمزق الثوب. سال الدم. طمست العينان بالكدمات. طار عكاز الأعرج. وحمل المضروب، يمضون به مدمدمين. يقفزون من كل ناحية على الناقلة. زمجرت هذه زمجرة هائلة وانطلقت كإعصار من حديد.

أغلق باب الدكان. وضع عند اجتماع المصراعين شريط من القماش وختم بالشمع الأحمر. الناس يمرون من الحارة محاذرين. ينظرون خائفين إلى الشريط من القماش والختم المرسوم على الشمع الحكومي. ثمة خراب. خراب حقيقي. وفي تضام المصراعين بإحكام معنى العمى والهمود.

لا تراعي يا كوثر. ناس كثيرون يلقى بهم في السجون هذه الأيام. وكلهم سيعودون. سيعودون يوما ما. وإذا كنت قد تزوجت بآخر فسيجد هو أخرى. سيجد ابنة الحلال التي تسعد قلبه.

- أحدهم

يأتيان إلى بيتهم كل يوم، سي خليل عضو الحزب وسي رمضان بشركة المقاولات. يأتيان عصر كل يوم. يجلسان على الكنبة الموضوعة في مواجهة السرير في الغرفة الوحيدة. يمددان سيقانهما ويلقيان برأسيهما إلى الوراء حتى تستند على الحائط. سراويلهما حسنة الكي والقمصان ناصعة شفيفة، وفي جيب سي خليل على الصدر يبدو مستطيل بطاقة عضوية الحزب. يشربان ويتكلمان ويتبادلان نظرات غامضة. يتقلص قلب كوثر إحساسا بريح المؤامرة لكنها تحاول أن تصرف همها.

حينما يتكلم سي خليل يكون جادًا وحاقدًا رهيبًا. يكشر جلد وجهه الأخضر عن لثة زرقاء وأسنان لامعة يبدو أنه يدعكها بالكربونات كل يوم. الأب يتكوم على أقصى الكنبة. عملاق له عين مغمضة والأخرى تطرف ناحية المتكلم في حذر.

حينما يتكلم سي خليل ترتجف أهداب كوثر السمراء الطويلة. أحيانًا يستأثر بها القلق فتمسك طرف غديرتها من على صدرها لتلقي بها على ظهرها بأناملها الوردية الرقيقة. الدكان الآن مغلق بلا رجاء. والقمامة تكدست في المربع الصغير الذي كان نظيفًا أمام الباب. وإذا مرت كوثر بالحارة ألقت نظرة شاردة. لكن صاحبة قالت لها ألا تعود تمر من هنا أبدًا. لقد ألقوا به وراء عين الشمس حيث لا يعود. لقد كان ضد الحكومة. الأم جالسة على الحصير ترقب سي رمضان صامتة مهمومة شاحبة. وقلب كوثر مقبوض.

لكن سي خليل أحيانًا يبتسم. يكون فمه غريب القبح، لكن وجه كوثر يشرق حينما يطلب منها أن تسقيه. تقوم خجلى. تقف أمامه حاملة قلة الماء وعيونها السوداء رائقة بالسرور. يمد يده. تلتف أصابعه الطويلة حول أنامل البنت الممسكة بقلة الماء، ويثبت نظراته في عينيها. تغض بصرها وتسحب أناملها من تحت أصابعه. قلبها يرتجف في صدرها كفرخ مبلول. ترى في عيني سي رمضان نظرة عارفة متواطئة متآمرة. وعلى وجه الأم هلع أبيض مكتوم تعود كوثر إلى جلستها دائخة خائفة.

يأتيان إلى بيتهم كل يوم. تجلس كوثر على الحصير جنب أمها مستندة على كتفها. ساقاها مطويتان متحاضنتان رائقتان كالعسل مرسومتان باعتناء. وجهها ونهداها مشوقان مرتفعان نحو سي خليل. كلماته تخيفها وتحيرها. نكاته الجنسية العارية تدغدغ حلمات أعصابها. يضحك سي رمضان. الأم صامتة ضائعة. الأب العملاق متكوم على أقصى الكنبة مستخذيا مداهنًا يطرف بعين واحدة.

قالت كوثر في نفسها، ماذا؟ إن على البنت أن تتزوج، أن يكون لها رجل تخدمه وتعيش في كنفه. والبنت لا تصنع الرجل بيدها ولا تسويه على عينها. وكل واحد فيه عيب. ومن عيَّب الرجال لم يجد أحدًا. والدكان لن يعود ويفتح أبوابه أبدًا.

ساعتها كانت الغرفة خالية والقلب تعمره الوساوس. وهى كانت واقفة أمام المنضدة التي في الركن تصنع لنفسها شايا. الماء في الإبريق يئز وموقد الكيروسين يطن. أتى لم تحس به داخلا. كان وحده. لف ساعديه حول خصرها الرقيق. ألقت بكتفها الدقيقتين في رحبة صدره. أراحت كل هواجسها. ثم استدارت له وألقت بنفسها عليه. نهداها حران طريان ينامان على قفصه الصدري. ضمها إليه بشدة. حملها يمشي بها وئيدا ناحية السرير. كانت فرحة، عيناها مليئتان حبًا. قالت له:

ـ تتزوجني...؟

تراخت قبضته على جسمها شهق مذهولا:

ـ أتزوجك.. أنا؟

قالت له رقيقة عذبة:

ـ نعم.. أحبك طول عمري ـ أخدمك بعيني!

تركها تماما ووقف قبالها شامخًا بأنفه. عدل ثيابه. تأكد من بطاقة الحزب في جيب قميصه. كلمها حاقدا رهيبا:

ـ آلا تعرفين من آنت... ومن آنا؟

وغامت ملامحه بسحابه اشمئزاز قاتمة. حينئذ أنشبت كوثر أظافرها في وجهه. انبثق الدم من سحجات الأظافر. صرخ وتخبط متطوحًا في الغرفة حتى وجد الباب انطلق خارجًا يجري كالمطارد وهو يصرخ وكوثر تشيعه بأحدث ما عرف الشارع من شتائم. لكن ياللأسف. إن الشاي كان قد اندلق على الأرض.

أكداس الوجوه المبقعة الشاحبة في الشبابيك. أكداس الناس على أبواب البيوت. كوثر تمشي ناحية الدكان. إنه مغلق بالشمع الأحمر وأمام بابه تتراكم القمامة والناس حذروها ألا تمر من أمامه لكنها تمشي إلى هناك لا تلوى على شيء.

كوثر أيها الحلم الرائع. حلم الرءوس الدائخة من سخونة السقوف. تمشين على العيون المريضة. تمشين على القلوب المقهورة. لماذا أنت حزينة. ماذا يهم ما ثمنه قرش من الشاي.

- الشرطي

سي حسن الشرطي. دركه في العجوزة. الشوارع هناك هادئة. العمائر شاهقة. وحينما يطيِّر الهواء ستائر الشبابيك الهفهافة، فإن أضواء متلألئة تسقط على أشياء صنعت كلها من الكريستال والمخمل.

هناك يسود سكون غريب، يتدفق في أوردته وشرايينه طراد جنسي عنيف. يقف حسن في ركن معتم. يتلفت وقلبه يخفق بعنف. تمرق العربات مارة به بلا صوت. لا هدير للمحرك ولا دخان أسود كثيف يأتي من الذنب. عربات تمرق لينة على الأرض كالأفاعي. في داخل العربات رجال ونساء، ضحكات خشنة جشاء وأخرى ناعمة الجرس وربما لهاث مبهور وصرخات صغيرة. حسن في ركنه المعتم يتحسس غدارته الباردة. لا يكاد يشيع بناظريه عربة مارقة ماضية حتى تسقط نظراته على أخرى آتية على البعد متسللة.

وقع الخطى هنا غريب محاذر يحاول أن يتكتم خفق النعال على الأسفلت. الأشباح تقطع دوائر الضوء ثم تندفع إلى عتامة الأركان. رجال يلاحقون نساء. نساء يقتدن رجالا بمقاود غير مرئية وتجرين لاهثات مرتجفات الخصل. حسن في الركن يرقب مبهورًا. يتسمع. تتضور كل خلية في جسده حنينا. الصرخة لها لون خاص، جرس خاص وطعم خاص. ليست مذعورة مستغيثة، بل طاغية ساخطة مغناجة. يسرع حسن خفيف الخُطَى ـ هو الآخر ـ متجنبا دوائر الضوء موغلاً في الزوايا العتمة. وجدهما هناك. نظر لهما مبتسما في ود. الرجل جاوبه بوجه مشحون

بالازدراء والقرف. والبنت صاحت بعصبية وتدلل:

ـ يا شاويش..!

تحسس حسن بعينيه الشفتين والخدين وكحل العينين وقمتي الثديين ينحسر عنهما طوق الثوب. تسللت إلى المشهد فجأة عربة أجرة دلف إليها الرجل والمرأة وحسن مذهول جامد في مكانه. يغزه في باطن كفه أظفر طويل ويجد في يده جنيها. ورقة لها رائحة خاصة يقبض عليها بشدة.

في ذلك اليوم بالذات حينما استدبر حسن الشارع الكبير ملقيا بنفسه في عتامة الحارة انقض عليه الحزن من كل ركن حتى كاد يبكي. ضلوعه تئن حنينا للوضاءة. الكريستال والمخمل. ذلك العبير. دوائر الضوء والعتامة. الصرخات والضحكات الوسوسات في الأركان. لكن لا جدوى. بلا رجاء. مشى في الحارة يخوض القمامة والروائح النتنة تخنقه.

كل صباح حينما يعود من خدمته الليلية ترسل له جارته أم آمال أختها الكبرى تحمل له طعام الإفطار. البنت متوردة الخدين مكحولة العينين قوامها ملفوف في ردائها من اللينوه المشجر الخفيف الذي يشف عن سروال ومشد الثديين. البنت تنظر لحسن وتطرف في تدلل:

ـ الفطور يا سي حسن!

ثدياها نافران من طوق الثوب، أبيضان ناصعان بطريقة خاصة. أغمض حسن عينيه. ثم فتحهما مرة أخرى. البنت تكلمه:

ـ هنيئًا لمن أخذ عقلك يا سي حسن!

قلب حسن ينتفض في صدره. هذه البنت لا تمت إلى هذا المكان. ترى هل تغزه الآن بأظافرها الطويلة في باطن كفه؟ تكلم متحشرجًا كأنما يأتي صوته من جب سحيق:

ـ ضعي الطعام تحت السرير.. لا رغبة عندي في الأكل!

انحنت البنت. زحفت على أربع. يا له من وضع. سقط حسن على ركبتيه خلفها. أحاط خصرها بكفيه. هبت واقفه. هب واقفًا هو الآخر. يقفان متقابلين. عيناها مرعوبتان. أرادت أن تفر أمسك بها. أرادت أن تصرخ أغلق فمها ببسطة كفه. حينما احتوى طراوة جسدها في يديه اكتسحته رغبة عارمة في السحق. ابتسم وهو يضغط بإبهاميه على قصبتها الهوائية حتى انهارت متكومة على الحصير المفروش على الأرض.

من مرقده على السرير رآها متمددة على الحصير. الثوب منحسر عن فخذها. مكتنزة لكن وجهها غريب في عتامة الغرفة. النهار يتقدم والشمس تصعد إلى السماء تصب على السقوف الأسمنتية نارًا. يسخن السقف في غرفة حسن ويقترب من رأسه المطروح على وسادة السرير. جسده ينضح بالعرق وخياله يختلط بالبشاعة. خنفساء تدب متمهلة مخيفة المنظر. تزحف القشعريرة على جسم الشرطي. أين يخفي الجثة.

لكن منديل رأس القتيلة الأحمر كان قد طار من شباك غرفة الشرطي. طار. حلق عاليا. أزواج العيون في الشبابيك خائفة. والمنديل حط على الأرض. أخذته كوثر، تأملته شمته، عرفت الجناية وأطلقت صراخًا عاليا. وحينما قبضوا على حسن بكى كطفل.

لماذا أنت مقهورة يا كوثر وشاحبة كالموتى. لا يكون سوى المكتوب يا كوثر، لا يكون سوى المكتوب.

- رمضان الفتك

يومها مشى حموه إليه وهو جالس مع ثلة أصحابه يلعب الورق في المقهى. هتف به رافعًا صوته فوق ضجة اللعب واللغط والمذياع.

ـ تعال اشرب القهوة عندي يا ولد يا فتك..!

حدث في الضجة فجوة مساحتها شعرة فاتت على كل قلب إلا قلب رمضان. حمَّى اللعب وحميا الشباب وطبع يرى في التردد معنى العدم، كل هذا دفع الفتك لأن يهتف دون أن يلحظ أحد تردده:

ـ تحصل لي البركة يا منصور أفندي..!

في غرفة الجلوس عند منصور أفندي لحظ رمضان بطاقة المدير على المنضدة أمامه. لم يمد يده ليأخذها قبل أن يعرف الشروط. رفع عينيه إلى الباب فإذا حسنية داخلة تحمل صينية القهوة. كان هذا هو الشرط الأول إذن، تفرض عليه زوجة دون مشيئته. لكن لا سبيل للتراجع. سأل منصور أفندي بأدب:

ـ الآنسة حسنية مخطوبة أو متزوجة..؟

ـ والرجل قال:

ـ البنت في انتظار العدل...!

عُيِّنَ رمضان سائقا بشركة المقاولات. يسوق شاحنة محملة بالأسمنت إلى موقع العمل في مشروع الصرف المغطى. هناك ينتظره الزبائن يبيع لهم حمولة الشاحنة. مراقب البناء في الموقع يوقع بالاستلام ويجعل نصف خلطة المسلح من التراب وينال نسبة من ثمن البيع. يحصل رمضان على حقه ويسلم الباقي لحميه عضو الحزب وسائق المدير ونائبه في مثل هذه الأمور.

كان هذا هو الشرط الثاني إذن بعد أن تزوج رمضان حسنية. وضع يده على رزمة الجنيهات في جيبه ومضى يخوض أكوام القمامة في الشارع ويحيي الناس الجالسين أمام أبواب البيوت. سيجد حماه منتظرا على المقهى في الشارع الكبير. سيناوله الرزمة وهذا يضعها في جيبه وينفث دخان سيجارته ويواصل كلامه، على وجهه التكبر والتقزز والقرف. رمضان تقلب أمعاءه رائحة القمامة. شيعته حسنية حتى باب البيت بذات الوجه المتكبر المتقزز القرفان. تلك الصفراء المطلية الشفتين والأظافر، ما كان ليتزوج مثلها. إنه الفتك تعرفه الدنيا كلها. ما كان ليتزوج مثل هذه الصفراء أو يعمل من الباطن عند مثل أبيها، لكنه زمن نذل. وهما يمسكانه من عرق رقبته بقبضة من حديد حتى ما يستطيع أن يلتفت إلا إذا أرخيا له القبضة.

سيقلب منصور يومًا. قلبه أسود من الغل. سيقلبه ويدوسه بحذائه ويأخذ الأمر كله في يده. إنه الفتك يعرف نفسه وتعرفه الدنيا. سيلقي بالمرأة الصفراء من النافذة ووراءها حُق البودرة والهدوم النايلون ويكون مرة أخرى سيد نفسه وسيد بيته. لا يعرف كيف يتم هذا كله، لكنه حالف ولن يرجع عن عزمه.

أخذ منصور رزمة الأوراق المالية وضعها في جيبه دون أن يعيره التفاتة. فقط أشار لصبي المقهى أن يحضر شايا لزوج ابنته. ورمضان لوح بيده رافضًا وشاكرًا وحموه لم يكرر العزومة. كيف تكون الأماسي في القهوة دون الفتك، دون صيحاته وخبطه بالورق على خشب النضد أمامه. لكنه يشتاق إلى أم كوثر. يجلس على الكنبة وهي على الحصير عند أقدامه مرتجفة مذعورة العينين. إن هذا يغسل عن قلبه مذلة النهار بين زوجته وحميه. تلفت حوله مستئذنًا من رفاق المقهى. يعرف أن خليل لن يأتي معه بعد أن خمشته كوثر أسالت دماء وجهه. دارى ضحكته وهو يرى خليل يتجنب النظر إليه.

هذه القطة الناعمة الصغيرة كوثر. سترقد أمها تحته يوما مفرجة الساقين تتأوه من اللذة والوجع على السرير النظيف الملاءة وكوثر جالسة على الكنبة هالعة الوجه من الخوف والإثارة. سيكون ذلك يومًا. وحينما يشبع من الأم ستسقط في حجره البنت. وسيخرج يومًا من الشقة وفي يديه سروالي البنت والأم يلقي بهما في وجوه هؤلاء الجالسين أمام البيوت ينظرون في عجز وبلاهة وحقد.

أسرع الفتك إلى بيت أم كوثر. الوقت أول المساء ولمبات الكهرباء على أبواب البيوت تزداد كل لحظة ازدهاء. دفع الباب الخارجي دخل إلى الطرقة الصغيرة. أمام غرفة المسكن الوحيدة أم كوثر جالسة على الكنبة وحدها. أغلق رمضان باب الغرفة وأطفأ النور وحمل المرأة إلى السرير. الأمر أسهل مما تصور وأروع مما رأى في كل الأحلام. وفجأة سمعت ضجة خافتة وكاد رمضان يشل من الفزع.

صوت باب المسكن يفتح. قفز رمضان من السرير واقفا وسط الغرفة. جلست الأم في السرير تشد قميصها على فخذيها.أضاءت كوثر النور لترى وجهين شوههما الفزع. ارتمى رمضان على الكنبة يبكي كالمرأة والأم قفزت تقبل رجل كوثر وتُعْول كحيوان يذبح:

ـ استري عرض أمك يا كوثر..!

الكل خدعوك يا كوثر.. لم يقل لك أحد إن الدنيا هكذا قبيحة.. لم يقل لك أحد.

- خاتمة

أمي تدور ـ ورائي حاملة حذائي ورباط رقبتي، وأنا أمام المرآة أبكي نفسي، شحوبي وموات وجهي. عبارات أمي كعديد الندابات، تعلقني كل يوم على الصليب وتدق أطرافي:

ـ يا ولدي ماتت كوثر.. ذهبت إلى هناك ورأيت أمها تبكي دمًا..! إذن فماذا؟ يصب القار في روحي حتى تتشبع به كل أخيلتي وتسود الرؤى. أمي تواصل عديدها:

ـ يا ولدي أهرقت الكيروسين على ثيابها وأشعلت عود الكبريت.. دخل عليها أبوها والنار طائرة فيها.. لفها في حرام الصوف وبرك عليها.. لكن النار كانت تأكل فيها من داخل الحرام..!

آه.. يخنقني الحزن حتى ما أرى.. لطخت أعلام كل الذكريات بالحداد.. وأمي ترص سطور البكائية الأليمة:

ـ بقيت أمها جنب سريرها الليل كله وفي الصباح ماتت.. في المستشفى..!

وأنا سوف أجرب موتها كل يوم وأحضر جنازتها كل مصرع حلم من أحلامي، أقرأ عليها سورة الأحد وأتلو قداس الرحمة.. وأمي قدر وجيعتي المكتوب:

ـ يسقط لحم وجهها المحترق يا ولدي.. وأمها جنبها.. كانت البنية حلوة.. تسأل أمها وهي تحتضر.. هل أحرقت النار وجهي يا أمي؟ لا تدعيه يتأملني إذا أتى لزيارتي يا أمي! خوفي أن أبدو قبيحة في عينيه يا أمي.. كانت تحب الأعرج صاحب الدكان يا ولدي.. كان طيبا.. سجنته الحكومة يا ولدي..! الأب أراد أن يزوج كوثر لرمضان الفتك.. ظل لحم وجهها يتساقط حتى ماتت.. كانت عروسًا كالقمر..!

لا يرى أحد داخلي الرجراج كمح البيضة. ذلك بأن لي عوينات مذهبة الإطار، وإذا أتكلم أرص الكلام باعتناء. ولذلك فأنا مدعو للشهادة. مشيت رصينًا ثابتًا منهارًا. إنني لأذكر أنها كانت إذا ابتسمت لي يولد الفرح في قلبي.

أنا مدعو للشهادة. صعدت السلم العريض إلى المبنى القديم ثابت الخطى، مائت في داخلي. في كل ركن يقف شرطي مسلح. وفي كل زاوية يتلصص بصاص بعينين يريان ما تحت السطوح الخارجية. بهوادة تسللت متفاديًا النظرات النافذة وصعدت سلمًا يقطع النفس. جلست على الدكة أمام المحقق. أطرافي متثلجة. أكاد أهوي وترتطم جبهتي بحرف المكتب أمام المحقق. لكنه ابتسم لي. شجعني. وأنا قلت له كلامًا كثيرًا هادئًا.

عُرض المتهمون. في أيدي مخبرين يمارسون عملهم باقتدار وعجب. يعجنون الأولاد عجنًا. يسحقونهم في الأرض بكعوب الأحذية. الأولاد يولولون كالنساء. آهات وحشرجات كأنهم مشرفون على الموت. لكنهم لم يسلموا سر قلوبهم. وأخيرًا جاءوا به. الأعرج صاحب الدكان. يا إلهي كيف استطاعت عيناه أن تستأثرا باهتمامي حتى ما أرى جراحه. في العينين كوثر. كوثر في العينين كأجمل ما كانت في كل أيامها على ظهر الدنيا.

قمت واقفا. مشيت خارجًا. المبنى قديم يهتز تحت الخطو. نزلت السلم وحيدًا لكنني عارف متيقن. عيال مباركون. عيال مباركون.

كوثر أيها الحلم. من أجلك كتبت.

برلين الغربية ٥/٣/١٩٨٢

عن البنات

عن البنات أحكي، عن الشعر في داخلي، عن الرؤى الضبابية المرتجفة في أعماقي، عن الشوق واللهفة والضحك والحزن والجنون، عن الحبور، عن فساتين طائرة الذيول، عن شفاه تواقة، عن عيون مفعمة بالجسارة الهشة والغزل، عن الوحدة، عن الأرق في صميم الليل الناعس.

في طريق عودتنا إلى قريتنا من المدرسة في المدينة نزلنا من قطار لننتظر على المحطة قطارًا آخر. الانتظار طويل. تحدرنا من على الرصيف نازلين نقصد الحقول. مشينا معًا إلى الجميزة العجوز. كانت تضحك مغرقة في الضحك. تداري وجهها بكتابها المفتوح في يدها وتضحك. حقيبتها تتطوح في يدها الأخرى. حذاؤها الأسود المترب وجوربها القصير. ساقاها بين الجورب ونهاية الثوب عاريان. خطوها رشيق متوثب.

الجميزة تحتها مصلًّى. سور طيني يرتفع مقدار شبر ويدور حول فرش من القش. أرجحت هي حقيبتها في يدها إلى الأمام وإلى الخلف ثم أفلتتها. طارت الحقيبة استقرت وسط فرش القش. وهي ضحكت ملقية برأسها إلى الخلف وشعرها ساقط وراء ظهرها وثدياها قبتان صغيرتان تحت قماش ثوبها المدرسي. خفت أن تسمع دقات قلبي. بهرني هدير الدم في عروقي. اندفعت السخونة إلى وجهي.

لكنها كانت أمامي تملأ الدنيا تقافزا وضحكا. الكتاب مفتوح وأصبعها يشير على الصفحة. أنا جالس على السور القصير الغليظ. جذور الجميزة تمشي تحتنا جسيمة نافرة. على وجه الترعة الساكن البني في ظل الجميزة تنتشر دنانير ذهبية من ضوء الشمس. فروع الجميزة الثقال فوقنا محملات بالورق، أوراق زرقاء متربة متجعدة الحواف. ثمة خيوط عنكبوت لا ترى، لكنني أحسها بالغة الرهافة، حريرية ناعمة، طائرة باحثة، تلصق بالرقبة أو بالوجه أو بظاهر اليد.

تقفز على رجل واحدة. تدفع بسن حذائها شقفة على الأرض مهتمة غاية الاهتمام. وجهها قاني الاحمرار. أصبعها على صفحة الكتاب. صحت بها غاضبا:

ـ كفى لعبًا..!

كركرت ضحكا بلا نهاية. تلوت من السرور مثل سمكة. ثم ألقت

بنفسها إلى جواري لابدة في جنبي. أشرت بأصبعي على السطر:

ـ اقرئي..!

نظرت إليَّ متوسلة تفرش كفيها على صفحتي الكتاب الموضوع على ركبتي. أناملها وردية. هتفت:

ـ اشرح لي..!

صوتها طفلي متدلل. وجنتاها متوهجتان. عيناها مفعمتان شقاوة. قلت لها:

ـ هات مبتدأً وخبرًا..!

انتصبت واقفة أمامي جادة. سارت رائحة غادية متفكرة وكفاها متحاضنتان خلف ظهرها. عادت وقفت أمامي تغالب الضحك. ثناياها مغروزة في شفتها السفلى. ترفع حاجبيها تدللاً ومكرًا. تقول:

ـ لا أستطيع..!

أعرف كيف يخفق قلبها تحت ثديها الأيسر. حجرات القلب الأربع، الصمامات وتدفق الدم من الأوردة وإلى الشرايين. درست ذلك. قلت لها بأناة وحكمة:

ـ قولي مثلا.. حمدي ضخم..!

دهشت. سكتت مبهوتة. روعها ذلك التعبير الحقود على وجهي. تساءلت هامسة:

ـ من حمدي هذا..؟

غرست كلماتي في لحمها ببرود ساخر قاتل:

ـ حمدي.. هو ذلك الذي نمت في بيته بالأمس..!

بدأ اللون يهرب من وجهها رويدًا. ارتجفت وهي تهمس:

ـ لا شيء من هذا.. إنما قالت لي ماما احملي هذا الثوب إلى امرأة خالك في المدينة واقضي الليلة عندها تستريحين من السفر يوما.. نمت مع امرأة خالي في السرير.. هو كان في الغرفة الأخرى.. لا شأن لي به.. حتى لم أتبادل معه كلمة.. لم تكن هناك مناسبة..!

كان وجهها قد صار أبيض شمعيا مثل وجوه الموتى وتهدلت خطوط جسمها مثل ثوب قديم. مالت تناولت حقيبتها. الكتاب مغلق تضم عليه يدها الأخرى. تركتني وسارت دون أن تنظر ناحيتي. تكور الندم في حلقي يكاد يخنقني، لحقت بها:

ـ من فضلك..!

لم ترد عليَّ. بقيت سائرة خطواتها ثقيلة وقدماها يحفان بالأرض والحقيبة تميل بكتفها. ألححت عليها:

ـ أنا لم أقصد..!

دموعها انهارت على وجهها لا تنظر ناحيتي. أضم قبضتي وأفردها بعنف:

ـ أرجوك أن تفهميني..!

عيناها كأسان من دم. المنديل متكور مبلول في يدها. حبات العرق خضَّلت منابت الشعر على جبينها.

نحن ننتظر القطار الذي سيأخذنا إلى قريتنا. رحلة العودة بعد نهار صاخب مترب. ابتعدت عني مختلطة بالناس الواقفين في الانتظار. لا أستطيع أن ألحق بها وأكلمها وسط الجمع. عيناي تسرحان مع قضبان القطار إلى بعيد. لم يأت بعد. رفست بسن حذائي زلطة على الأرض طوحت بها بعيدًا.

l

وضعت قلبي في خطاب أرسلته إلى القاهرة. قلت لصديقي إن كل ما حولي أسهم تشير إلى أسفل، وإنني أهمي وحدي في الليل، وإن الظلام، ظلام الليل الريفي أسود ثقيل مسيطر تئن تحته الجنادب وأنفاس النائمين والرؤى المريضة الشائهة المجنونة.

l

كانت آتية توًا من عند الكوافير يسبقها عطرها، عطر مصري رخيص. وجهها لامع بالدهان وشفتاها قرمزيتان بالطلاء. عيناها آيتان، بنيتان مكحولتان في وجهها الأبيض الوردي، مثل عيني دمية غالية.

هي وصديقتها ملأتا بيتنا صخبًا. تسلمان، تسألان، تضحكان، حريصة

على ألا تتلف تسريحة شعرها تهز رأسها في خيلاء وفرح وخصلاتها الذهبية ترتجف في اتساق.

أنا على سريري قبالة باب غرفتي المفتوح متمدد في العتمة أتفرج على المشهد في الصالة كأنها خشبة مسرح. أعرف أنها لن تبادر بالسؤال عني. ساقي ممدودة على وسادة لا أجرؤ على تحريكها وإلا انطلق ذلك الألم المتكور فوق الإبهام جحيما يتأجج في الساق كلها.

الدمل في إبهام رجلي متورم مليء بالصديد. نبض الألم في جسمي منتظم الإيقاع بلا تردد. أنا دائخ محموم. هزة واحدة وينطلق الألم كنباح كلاب مسعورة ويتصبب جبيني عرقا وتكاد تزهق روحي.

أعرف أنها لن تبادر بالسؤال عني. إنني محموم مليء بالقنوط والتقزز والغثيان. لكنها سوف تسأل. كل من حولها يتوقعون منها ذلك، يحاصرونها ويدفعونها إليه. ها هي:

ـ أين هو..؟

قالوا لها:

ـ معتكف.. مريض..!

تصورت أن العيون تبتسم لها وأنها تمضي إلى غرفتي تدوس على الابتسامات الماكرة.. جاءت إليَّ تحسست جبيني.. كفها بارد نديٌّ بالعرق. جئن كلهن وراءها، وقفن حولها يحطنها بعيون مبتسمة. قالت:

ـ جبينه دافئ قليلا..!

اتسعت الابتسامات حولها. رفعت كفها بسرعة وبدأت تمسحها بمنديلها. أرقب العيون تحاصرها ونبرتها تتوتر قليلا. كلمتني:

ـ لكن الأمر ليس خطيرًا.. أنت فقط تتدلل..!

ثم هبت واقفة وانطلقت خارجة وهي تهتف:

ـ فلنتركه وحده..!

وخرجن جميعا إلى الغرفة الأخرى. أغمضت عيني على نبض الألم

في جسمي. يأتيني لغطهن من الغرفة الأخرى. هي أعلاهن صوتًا، حادة ضائقة، تتكلم جملاً قصيرة عصبية واضحة حاسمة.

بدأت المسألة بيني وبينها ذات مساء في عرض مسرحي. أضواء وحبور ونساء معطرات معنيات بوجوههن. حينما أطفئت القاعة تسللت يدي إلى ما تحت بلوزتها. تحسست نعومة قميصها وطراوة لحمها. غرست أظفرها في يدي تذودني وهي تتنفس تنفسًا سريعًا مسموعًا. وحينما زارتني للمرة الأولى اصطنعت رقة متناهية ورجوتها أن ترتب مكتبي. فعلت هذا باهتمام وأمومة. تفكرت وأنا سائر إلى عملي في الصباح أنها عذبة وجميلة العينين.

لكنني الآن دائخ فاتر محموم. لغطهن يأتيني من الغرفة الأخرى. اقترحت واحدة أن يذهبن لزيارة صديقة. أما هي فأعلنت في جملة قصيرة حاسمة أنها ستبقى إلى أن يعدن. حينما انصفق الباب وراءهن حل الصمت. أخذت هي كتابا وجلست على كنبة في الصالة تقرأ. من مكمن أتأمل ساقيها بيضاوين جميلتين وحذاؤها جديد رخيص. فجأة قامت أقبلت عليَّ. وضعت كفها على جبينى:

ـ مازلت دافئًا..!

أمسكت يدها، شددت قبضتي عليها، جذبتها، دسستها في ثيابي:

ـ من هنا حرارتي أعلى..!

جذبت يدها فزعة. قالت مرتبكة كأنما تلقي محفوظًا أمام مدرس في الفصل:

لا يجس أحد حرارة المريض من هنا..!

انطلق نباح الألم المسعور في جسدي.. انكفأت على بطني أعض الوسادة بأسناني. ساكن تماما أنتظر تراجع دفقة الألم. مددت يدي أدسها بين ساقيها:

ـ أجس حرارتك..؟

نحت يدي بقوة:

ـ أنا لست مريضة..!

مددت يدي إلى صدرها أدخلها في طوق ثوبها. أمسكت بمعصمي

تمنعني. قبضت بشدة على ياقة ثوبها وجذبتها نحوي لأقبلها. إذا اقترب وجهها مني تقززت من طلائها ومن عطرها. قبلتها في رقبتها دون اشتهاء وهي تتنفس فحيحًا. أطلقتها وهي زفرت غاضبة:

ـ ما هذا..؟

قلت في برود:

ـ هل ضايقك هذا..؟

ـ طبعًا..!

ـ إذن اغربي عن وجهي..!

ـ سأمضي ولن أعود مرة أخرى!

ـ أحسن..!

قامت إلى أريكتها وأخذت الكتاب في يدها. أكاد أبكي من ألمي. أمزق الملاءة والوسادة بيدي وأسناني. أكاد أتقيأ أمعائي من قرفي منها وعلمي أن تهديدها فارغ وأنها ستأتي مرة أخرى. جاءت. وقفت جنب سريري ساكنة:

ـ مازلت دافئا..؟

لم أستخلص من رنة صوتها أي معنى. كدت أصرخ سخطا عليها. قلت لها ببرود:

ـ تحسسي بنفسك..!

وضعت كفها على جبيني. قلت بنفس البرود:

ـ ليس من هنا..!

قالت بصوت عال كأنما تنهي إليَّ معلومة خطيرة:

ـ لا يجس أحد أبدًا حرارة المريض من هنا..!

انفتح الباب ودخلت الباقيات. امتلأت الصالة صخبًا مرة أخرى. ذهبت هي انضمت إليهن. وحينما استأذنت لتنصرف لم أعن باستبقائها. لم أعن بأن أواعدها. كنت واثقا أنها ستأتي من نفسها مرة أخرى. لكنها

لم تأت. لم تأت بعد ذلك أبدًا.

l

قلت في الخطاب الذي أرسلته لصديقي في القاهرة إنني انطلقت في الشوارع كالمجنون طائرًا على صخب الآلات المروع. كل آن ألهث في مسماع التليفون صارخا. أؤكد أن المسألة لا يمكن أن تكون هكذا. وأنني بذلك أفقد فرصتي، أموت، أختنق في غرفة غاز فسيحة. التقطت أذني من مسماع التليفون أصواتا باردة رصينة معاتبة لائمة، متعالية متهمة. يومها عرفت أن الأمور صعبة. فلنصبر. ولنشكر الله أننا نعيش. كانت كلمات خطابي لصديقي دامعة.

l

انطلقت العربة على الطريق الزراعي في نهار رائق. أجلس بجوار النافذة. كل آن نلحق بشاحنة كبيرة. يدور إطارها الهائل جنب شحمة أذني يهدر ماحقًا مثل حجر الطاحون. يقبض الرعب على قلبي حتى نتجاوز الشاحنة فأزفر مرتاحًا.

هي تجلس في المقعد الأمامي. قصة شعرها غلامية تكشف عن رقبة جميلة طالعة مما بين الكتفين في اتساق آسر. لكنه يجلس إلى جوارها ذلك الآخر العريض الكتفين الحليق الرقبة. اهتمامي مركز بقوة على تلك المسافة بين كتفيهما، لو ضاقت ملليمترا واحدا في محاولة منه للاقتراب منها، فربما انقطعت أنفاسي حقدا. لكن المسافة بينهما باقية لا تنتقص من أطرافها.

راكبان شابان نحيلان أبيضان لا يكفان عن الثرثرة. صوتان دافئان مستبشران. أحدهما تقلع طائرته فجر غد والآخر يصحبه مودعًا. يهمسان ضحكات عميقة السرور. أيديهما تتحسس متاعهما القليل الرشيق. الركاب يحيطونهما بصمت كامن متسائل.

في الطريق مالت بنا العربة على ظلة ممدودة. راحة قصيرة. تبعثر الركاب حول طاولات المقهى. أما هي فقد بقيت في مكانها لا تريم. اقتربت منها ممتلئًا شهامة ونبلاً:

ـ ألا تنزلين لتستريحي قليلا..!

ـ متشكرة..!

ـ أترغبين في شيء أحضره لك..!

ـ شكرًا..!

ـ عفوًا..!

مشيت ممتلئًا رضا عن نفسي. وجهها وعيناها واسعتان سوداوان مكحولتان. يا إلهي. وجه ممتلئ بالسلام والصفاء والوسامة مثل رسم في كتاب قديم.

وصلنا إلى المدينة. ميدان المحطة حولنا يهدر بالصخب. كل راكب يخرج حافظته ليدفع للسائق الأجرة. فتحت هي الباب بجانبها ونزلت. من نافذة العربة بجواري أدخلت رأسها ونظرت إليَّ. بين أنفي وأنفها ثلاثة سنتمترات. عيناي امتلأتا بلون وجنتيها وحلاوة عينيها. همست لي:

ـ ممكن تدفع الأجرة عني..؟

ـ جفلت برأسي إلى الخلف:

ـ لأ..!

عيناي تحدقان في وجهها الوسيم تفتشان عن سر تلك الجسارة الباردة الواثقة:

ـ آسف جدًا.. لم أحتط لمثل هذه الطوارئ..!

انسحبت متراجعة لم تختلج في وجهها عضلة. أرقبها من خلف الزجاج فرحًا لأنها لم تستغفلني وتضحك عليَّ. تقف ثابتة معتدة بنفسها أمام ذلك الشاب المسافر بالطائرة غدًا. تحرك شفتيها بهمساتها. يخرج هو من حافظته ورقة نقدية كبيرة ويعطيها لها في وداعة وحياء. دفعت أجرتها ومشت تسير في الميدان ثابتة الخطوة. فتحت باب العربة ونزلت مسرعًا ألحق بها:

إلى أين..!

ـ شارع البحر..!

ـ في طريقي..!

ـ ..!

ـ تسمحين لي أوصلك..!

ـ شكرًا..!

ـ تلك هي عربة أجرة..!

ـ طيب..!

نظرت خلفي.. ما زالت حافظة النقود مفتوحة في يد الشاب المسافر. ينظر في أعقابنا بعينين عبيطتين. أخذتها من ذراعها وجريت نحو عربة الأجرة المنتظرة. هي الآن في حوزتي. تنفست الصعداء في مقعدي. ضحكت لأن السائق أمامي يتحرك حركات فاقدة الاتساق أمام عجلة القيادة. الأشياء رائعة ومليئة بالفكاهة أحيانا. سوف أحيط الثمرة بكل العناية حتى تسقط بكل بهائها في حجري. ركبتاها عاريتان بجواري. ليس فيهما عظام ولا خطوط متكسرة نافرة، بل انحناء ينساب في نعومة ورقة. يا لوسامتها وجلالها. مسافرة دون مليم في جيبها، وعلى وجهها كل ذلك الوقار كأنها وليٌّ صالح لا يملك إلا التوكل على الله. وشوش الضحك في صدري كأجنحة العصافير:

ـ نميل على بيتي عشر دقائق. نغتسل.. نستريح قليلا.. ثم أوصلك..!
قلت ذلك وتحفزت لخوض معركة طويلة لإقناعها بالفكرة.. لكنها قالت بكل بساطة:

ـ لا مانع..!

ـ على اليمين يا أسطى..!

أعطيت السائق أجرته. مشيت بها ندوس على العيون التي تحدق فينا. جسدان متعارفان متساوقا الخطوة كأنما ألفا السير معًا سنين طويلة.

صفقت باب مسكني ورائي. هذه هي شقتي، فرحتي الصغيرة القريرة. لكم هي متربة، كأنما تأسى لأنني هجرتها طويلا. تلفتت أبحث عن الفتاة. ها هي ذي تجلس على كرسي إلى طاولة الصالة. ابتسمت لها. هاأنت يا أختي الصغيرة في بيتي، في كني، عليك أن تتقدمي الآن إليَّ مثل هرة صغيرة أليفة وتلبدي في حضني. سوف أربت عليك، أمسح على أكتافك المستديرة، على رقبتك، على صدرك الطالع في شقاوة متوثبة طفلية خجلى. سوف أضمك إليَّ، أريح خدك العاري على رقبتي المسكينة، أعتصرك بين ذراعي، أجعلك تغمضين عينيك على ارتجافات مدهشة وتغوصين في الزمن إلى آماد سحيقة:

ـ ألا تغسلين وجهك..!

نظرت إليَّ. عيناها حلم. كل شيء ساكن. الصور المتربة على الجدران تطل في فضول قامت مترددة تنظر حولها باحثة. يا إلهي كم هي رائعة القوام:

ـ الحمام على اليمين.. لكنك سوف تبلين ثوبك. انتظري أحضر لك قميص نوم..! جريت إلى غرفة نومي. أخرجت من خزانة الملابس قميصا عاري الكتفين. طوحت به سقط في يديها ضمتهما عليه ونكست رأسها ساكنة. ضحكت بصوت عال من حيرتها:

ـ يمكنك أن تدخلي الغرفة وتغلقي على نفسك..!

ثم مشيت تجاوزتها جلست على كرسي إلي طاولة الصالة..دخلت هي الغرفة وردت الباب وراءها. حقيبة يدها أمامي على الطاولة. فتحتها. ليس فيها شيء على الإطلاق سوى أصبع طلاء الشفاه وقلم الحواجب ومنديل متسخ. إلى جوار الحقيبة كان ثمة شيء ملفوف في ورقة جريدة. فضضت اللفة. وجدت قميص نوم من النايلون الأحمر. دق قلبي بقوة. أي فتاة هذه. حدقت بقوة في باب الغرفة المردود بيني وبينها. هي تخلع ثيابها وراءه الآن. قمت مندفعًا نحو الغرفة. دخلت. وجدتها عارية تماما. صفقت باب الغرفة خلفي. طوقت ذراعيها العاريتين بذراعيَّ. ضممتها إلىَّ. صدري يكاد ينفجر من دقات قلبي. تتملص مني وأنا أحكم ذراعي حول خصرها. ألهث بقوة. أمرغ وجهي في عري رقبتها. تدفعني في صدري. ألصقها. أعضها. أحملها مندفعًا بها إلى السرير. فجأة وبحركة بالغة العنف انفلتت مني قافزة بعيدًا مثل نمرة. وقفت في الركن تنظر إليَّ بعينين شرستين. رفعت أصبعها مهددة وهي متوهجة الوجه ثائرة الشعر.

ـ إذا اقتربت مني صرخت حتى يأتي الجيران..!

أدركت أنها جادة تماما وأنني إذا اقتربت منها خطوة فإنها سوف تصرخ حتما. جلست على السرير مغمضًا عيني على سعار كالجنون وأنا أهمس:

ـ طيب.. طيب..!

أحسست بها تخرج. فتحت عيني رأيتها تسير إلى الحمام مرتدية قميص النوم الذي قدمته لها.

أراه معلقا من شريطين رفيعين على كتفيها الرائعتين. قمت متثاقلاً إلى المطبخ أتأمل شعلة موقد الطهي. أنصت لهسيس الماء الوشيك الغليان في إبريق الشاى. حزين مثل طفل يسافر والداه ويتركانه وحيدًا.

عدت بالشاي. وجدتها ساكنة على كرسي في غرفة النوم. وضعت الصينية على كرسي آخر وجلست على السرير. صمتنا ورشفات الشاي المتباعدة. أنهت كوبها ووضعته بهدوء ثم رفعت إليَّ وجها مغسولا رائع العينين وهمست:

ـ أريد أن أرتدي ثيابي..!

شملني حزن صوفي بعيد الغور.. قلت همسًا لا يكاد يسمع:

ـ سأبقى هنا.. لا تخافي..!

قامت متمهلة. انحنت قليلا. تناولت ذيل قميصها. جذبته إلى أعلى. مالت خصلته من رأسها. مدت ذراعها بالقميص أراحته على مسند المقعد. ارتجف ثدياها ارتجافة رقيقة من حركتها ثم سكن. في داخلي حشرجة وانية ونحيب حارق ونهر من دموع. اتجهت إلى المشجب لتأخذ رداءها. همستْ:

ـ ابق هكذا قليلا..!

وقفتْ. استدارت لي. قمتُ. ركعتُ على ركبتي أمامها. نظرتْ إليَّ بعينين جميلتين لا تطرفان. أغمضتُ عينيَّ دفنت وجهي في طراوة بطنها محيطًا خاصرتها بساعديَّ. هي وضعت كفيها على كتفيَّ. فتحت عيني مشرعًا وجهي لأعلى. قمتا ثدييها سمراوان يدور حولهما زغب رقيق. عيناي تلثمان في وجل، تصعدان إلى صفاء عينيها. نكستُ بصري. أمسكتْ هي بذراعيَّ تنهضني مثل قسيس يمنح الغفران لمسيحي مؤمن. ثم مشت إلى المشجب ارتدت ثيابها. خرجت إلى الصالة أخذت حقيبتها من على الطاولة. كذلك قميصها الملفوف في ورقة جريدة. نظرتْ إليَّ. هزتْ رأسها مودعة. فتحت الباب. خرجت. أغلقت وراءها برفق.

l

قلت في خطابي لصديقي إن السرير في الزنزانة كان صدئًا شائها معوجًا، وإن جسدي كان متقوسًا بعنف، وإن الحيطان كانت محدقة، مهوَّلة بالليل والظلام ورسوم خرافية داعرة وكلمات ملتوية الحروف

ترقص رقصا همجيًا وتقول أكثر الأشياء كفرًا وجسارة. وإنه من بعيد كانت تأتي إليَّ صرخات ممتلئة رعبًا وقهرًا ومهانةً وعارًا. وكانت تأتي إليَّ ضحكات جشاء كالحناجر. وكان الليل يدور بي في جنون. ليل أسطواني مفرَّغ ليس له قاع. أسقط وأهوي، أهوي بلا نهاية. كان كابوسًا مروعًا.

أنا ربٍ هذا القطيع. هم أهلي وأقاربى. دعوتهم من القرية ليكونوا ضيوفًا عليَّ في بيتي في المدينة. فرحون بي. يفرشون لي الاهتمام والمودة فأدوس بحذر. أنا بينهم مثل نبي صغير طيب حكيم رصين. لكنها هي كافرة بين المؤمنين. وجهها يحمر من ضحكها المكتوم. عيناها تبرقان شقاوة ولعبًا. فاجأتني جسارتها. فاجأني نماؤها. يا رب الخصب كم كبرت. الجلباب الريفي من الحرير الأسود ينسدل على استدارة وامتلاء مذهلين. كأنها فرس رائعة. بنت الأمس هذه. لكنهن البنات. تغمض عينيك عن الواحدة ثم تفتحهما فإذا البنت قد تخلّقت امرأة ريانة متفجرة العود. بدأت أعتاد قلة تهيبها مني. يملأ قلبي ضحكًا وجهها الطفلي وعيناها المفعمتان شقاوة.

تفرق جمعنا. انحشرنا في القطار المزدحم متباعدين مندسين بين أكداس الخلق. تعالت صيحاتنا من هنا وهناك حتى اطمأن كل فرد منا أنه استعاد صلته بالقطيع. علا صوتي منبهًا ألا يحاول أحد دفع أجرة الركوب. هذا واجبي نحو ضيوفي. عارض واحد هنا وآخر هنا معارضة فرحة تحاول فقط إثبات دوري وقيادتي.

هدأ الهرج وانتظمت سرعة القطار وسادت كتلة الراكبين سكينة متوجسة. إنصات شامل لبحات قلب القاطرة الفولاذي ذات الإيقاع الحاسم المتجهم. أنا شارد. روحي تبحث في ذلك الإيقاع الساحق عن لحن ما. لحن شرس غجري مفعم بالحزن والبسالة. عيناي منطلقتان في تلك المهمة المظلمة خارج النافذة تبحثان عن ضوء وحيد.

فجأة أحسست شيئا. جسد البنية مرتكن على جسدي.! اجتاحني توتر حاد. عاصفة باردة اكتسحت كسلي وشرودي. أصبحت يقظًا كشفرة مرهفة. ماذا..؟ هل قصدتْ هذا..؟ هل هذا ممكن..؟ أرجل حشرية ميكروسكوبية تمشي في جسدي تدب دبيبًا مصممًا لا يرحم. أي خطأ في الحساب يسقطني في الفضيحة، يمرغني في الوحل، يجللني بالعار.

وصلنا. الركاب يدبون طابورًا بين صفي المقاعد نازلين. هي أمامي. وضعت يدي على قمتي كتفيها. اقتربت منها حذرًا مترددًا. استعجلت

ترددي دافعة حجم ردفيها ليلبد في حضن فخذيَّ بلا أدنى خطأ في التصويب. تراجعت مرعوبًا أرتعد بعنف يكاد قلبي يقف عن الخفقان. لو سبقت سياق استجاباتها ملليمترا واحدًا فإنني أسقط في هاوية سحيقة.

طوال الليل لم أنم. يقظ العينين في الظلام الحالك. من بين جميع النائمين يصلني صوت أنفاسها وتقلبها في مرقدها. ماذا..؟ أتقصد ذلك حقًا..؟ هل هذا ممكن..؟ خائف إلى النخاع، وفرح إلى النخاع.

وطوال النهار لم أفلتها. عيناي عليها يداي عليها. ألمسها أمسكها. أدفعها في كل موضع. تميد. تتلوى. تقفز جارية. خفيفة ضاحكة ضحكًا مكركرًا مجلجلاً من قلب لم يعرف بعد كدرًا.

قد أموت موتًا حقيقيًا بلا مجاز. قلبي يكاد يقف. نفسي يكاد ينقطع. لكنني سوف أعرف الآن حالاً. غير ذلك لا يعنيني أمر آخر. خالست انتباه الجميع مقامرًا بكل شيء. جذبتها اندفعت نحوي مشرعة صدرًا عمره أربعة عشر ربيعاً.

كنز من الخصوبة. مغمضة العينين مفتوحة الفم تلمع ثناياها. تتلوى في حضنى. تهصر صدرها في صدري. أقبلها تخمشني. أسنانها تصك أسناني. مجنونة أو مجذوبة. شفتاها. أسنانها. ريقها. فتوة جسدها.

ثم قفزت مبتعدة. نظرت إليَّ مهتاجة الوجه ثائرة الشعر. زفرت زفرة عالية فرحة. طفلة وجدت كنزًا. أطلقت ضحكا مكركرًا صافيا طويلا. جرت تركتني جامدًا في ركني. أفقت بعد قليل. سويت ثيابي. مشيت أدور في البيت ثقيل الساقين لا أعي ما حولي تمامًا ولا أعرف ما إذا كنت أحلم. انفردت بها من جديد:

ـ قولي لي..!

ـ عن ماذا..!

ـ عن القطار.. إنك ارتكنت عليَّ..!

ضحكت ضحكًا عاليًا متواصلاً وعيناها مغمضتان شقاوة. شهقت:

ـ أنا...؟

ثم فرت هاربة. لاحقتها لا أعي غيرها:

ـ قولي لي..!

ـ عن ماذا..!

ـ حينما قبلتك.. غضبتِ؟

-صرخت دهشة:

ـ أنا...؟

يا رب الأشياء كلها أريد أن أعرف. أريد فقط أن أعرف. لكنها أطلقت ضحكها العالي ثم خطفت نظارتي وجرت. جريت وراءها دون تفكير. لا أستطيع اللحاق بها. أجري أطاردها. تفلت مني كسمكة. البيت عاصف بالضحك. انطلقت خارجة من باب الشقة. أسرعت وراءها. صعدتْ سلم البيت قفزا. قفزتُ خلفها. ضحك الناس يبتعد. دخلت غرفة الغسيل على السطوح. استدارت واجهتني تقدمت منها لاهثا أكاد أسقط إعياء. قبضت على ذيل ثوبها وملصته عنها. تخلصت من الثوب وعادت منتصبة أمامي عارية فارعة لاهثة متوردة. ألقيت بثوبها على الأرض. أخذت قطع الملابس المنشورة على الحبل ألقيت بها على أرض الغرفة أصنع فراشا. رأت ذلك أغرقت في الضحك مغمضة العينين مائلة الرأس. جمدتُ مترددًا. ألقت بنفسها عليَّ منحية ترددي. نزعت عني جلبابي. احتضنتني عاريا إليها. تعتصر من كياني كل ما فيه من وجد.

نزلت السلم تجري وأنا أجري وراءها. الناس يستقبلوننا بالضحك المجلجل. هل يحتفلون بعرسنا. تجري وأنا في إثرها. في الأركان نتحاضن. خلف ظهور الناس نقبِّل. نلعب. نلعب لعبًا خارق الحيوية والإمتاع يصهرني، يطهرني، يعيدني إلى البهجة السلبية.

l

ومازلت أحيا. تملأ الرياح قلع مركبي. في الصباح أبتسم لطلعتي الوسيمة في المرآة. ثم أخرج. أشرع وجهي للذعة البرودة الصبحية. يتدفق الشعر في داخلي. العالم مليء بالبنات. فساتين طائرة الذيول. شفاه تواقة. عيون مفعمة بالجسارة الهشة والغزل. كانت خاتمة خطابي لصديقي فرحة.

l

برلين الغربية ٢٥/٣/١٩٨٢

شجرة الحبِّ

- الأم

بائعة البلح. امرأة شامخة، أثيثة الشعر، تكاد تدرك غدائرها عجزها. عيناها صحنا عسل، شباكان مفتوحان على المتاهات الغريبة. وهي امرأة لينة الصوت مبتسمة ماكرة.

يقولون إنها متاع متاح، وإن من له زند وحبل وقلب جسور، قادر على أن يجتني شهدها. أما هي فإنها ميادة، تدور تنادي على بضاعتها، تملأ القلوب بالحنين، إذا عبق الكون بغبار فضي شفيف واستضاء القمر وترقرق الأسى كالخرير لا منطلق له ولا مستقر، ونامت الظلال السمراء على اخضرار الضوء في الحارات. حينئذ يسمع وقع قدميها. ومن الرؤى المنسحبة إلى أبعد الأغوار يأتي صوتها:

يا من يجيب القناني يا بلح..

ياخـد العسل منـك...!

1

وإذا تخلد الأشياء حولها للسكون في غرفتها، ويتكسر ضوء المصباح الشاحب على بلادة الجدران الطينية في هزيم مكتوم، تنزع عنها قميصها. تلصق على قمم الأكتاف الناصعة الرخصة العرقانة ذوائب من دفقات الشعر الليلية السوداء. العينان جناحان محلقان اشتياقا. الثديان ناعمان ناعسان مكدودان انتظارًا.

أحشاؤها تنوح شوقًا. تقتم عيناها عذابا. تحلم برجال، وجوههم مذبوحة بخطوط الدموع على صدرها، تسقي حرقتهم من بئرها، تخبئ مخافتهم تحت جناحها. الظلال السمراء على الحيطان تسقط هاماتها مذلة وكمدًا.

حتى يتسلل ضوء الصبح من الشقوق عيونًا طفلية متلصصة خائفة. تلقي قميصها على نفسها. تقوم. تخرج إلى النهار. تعانيه إلى المساء. المساء الريفي في قيعان حارات مفروشة بمربعات الضوء القمري الأخضر. على واجهات دور طينية تتهدل عليها ذوائب الحطب، تنصت لخفقات الشبشب على تراب السكة.

تنادي على بلحها. تغني لبلحها. تغني أشواقها. الحنان الذي بلا حدود يعمر قلبًا وذراعين رخصتين ممتلئتين.

- الولد

لم يودع قدميه أبدًا صون الحذاء، مفرطحتين غليظتين، علمتاه السير الجسور. يسير وسط الطريق، لا يتسكع جنب الحيطان ولا يتخذ سكة مطروقة وطأتها له من قبله الأقدام.

لم يرتد طوال عمره سوى جلباب وحيد مهلهل لا يداري من جسده شيئًا. لم يتعود لحمه رفه الحزن تحت طيات الثياب الثقال. جلده أسمر خشن جاسر مثل ظاهر اليد وباطن القدم. جسده لم يعرف الخجل، أو الرجفة من اللمس، أو التهيب من النظرة معروض على العيون كالكلمة الوقحة العارية الجارحة الواضحة المقاطع والمقاصد.

لم يصدق أن في الليل عفاريت. ليله لم يكن أبدًا غرفة دفيئة مضاءة محكمة الإغلاق. لم يهدهده للنوم صوت حنون مرتجف بالخوف يحكي له الحكايا. كان ليله دائمًا عاريا شاسع الجنبات فارغا ترن فيه الأصوات كما ترن في علبة من الصفيح، ليله بلا مخاوف وبلا أحلام نجماته مرتجفات تحدق في دهشة وغباء.

وكلما اجتمعت حلقة العيال في المساء، وانشغلت قلوبهم بالمخاوف، وتعذبت ملامح الوجوه وتفنجلت العيون مبهورة برؤى موهومة، كان يجلس بينهم وحيدًا، خوفهم لا يصك قلبه. يتلفت حواليه متسائلاً أبله غير مصدق. ثم ينهض كاسرا إطار عزلته يغرق في صخب اللعب حتى يسقط العيال حوله إعياءً وهو أبقاهم عنفًا وأعلاهم صوتًا وأكثرهم توحدًا. يضرب، يشتم، يخالف، يجرب أكثر الأشياء خرقًا، والعيون حوله ترمقه إنكارًا وتخوفًا، وهو تطوقه الوحدة إلى الاختناق.

وحينما يوغل المساء يئوب العيال. يعودون إلى الدور في قيعان الحارات، إلى غرف تضيئها مصابيح راقصة الشعل، تملؤها أنفاس دافئة وروائح دسمة، أو ربما منتنة زخمة. يضحك. فهو لا يعرف الرجوع. داره حيث يقف يدق قدميه. وحيث يريح ظهره غرفته. وفراشه مصطبة جنب جدار في جوف ليل شاسع نجومه خرساء لا تقول فيغمض عينيه. لا يخاف، لكنه يشتاق لو يدخل في ركن دافئ حنون. لو يدفن وجهه في صدر مليء بالحب. لو يجرب الاحتضان. لو تحيطه ذراعان سمينتان تضمانه. لو كانت له أم تسخن أنفاسها على رقبته في الليل. آه من وحشة اليتم. تنحدر دموعه سخينة.

- شجرة الحب

ـ ما هذا يا ولد..؟

ـ سجرة الحب..!

الكلمة هكذا، من غير ثلاث نقاط، ثاقبة جاسرة غريبة. نظر العيال إلى وجه الولد مذهولين. صَعَّرَ هو خده لهم وشمخ بأنفه عليهم. تحلقوا حوله، عيونهم معلقة بجبينه. يتدافعون يتزاحمون يريدون أن يعرفوا، وهو قائم بينهم كتمثال معبود. هتف واحد من العيال ملهوجًا مشروخ الصوت:

ـ وكيف..؟

تقدم الولد إليهم برصانة. انبعجت حلقة العيال منفسحة تجاه خطوته. أخذ الطاقية الصوفية الحمراء من على رأس الصغير:

ـ هكذا..!

كوَّر الطاقية في قبضة يده اليمنى. استل منها ثنية صغيرة بين أصبعيه. أراح مؤخرة رأس الصغير في كفه الأيسر. أقبل على الجبين يحكه بثنية الصوف. صنع فيه سحجة مستطيلة تمتد مما بين الحاجبين صاعدة حتى منبت الشعر تتندى بسائل شفيف يميل إلى الاصفرار.

وإذا كان قد انتهى فإنه طوح بالطاقية التقطها الصغير وهو يتحسس جبينه الملتهب غير فاهم شيئا. داخ العيال بين الجبين المشجوج والولد المبتسم في استعلاء عيونهم مفنجلة دهشة. يسألون:

ـ ولا شيء أكثر..؟

ـ وفي الصباح كانت السحجة قد طابت وصار لونها بنيًا قاتما. وفي الصباح كانت جباه مشقوقة بسحجات بنية تمتد مما بين الحاجبين إلى منبت الشعر. على كل جبين شجرة حب. وجوه عالية الأنوف مجتمعة ماضية. تحلقوا في الأماسي يتكلمون في عذوبة القمر. أصواتهم رصينة وأحاديثهم شجية عن:

ـ سجرة الحب..!

الكلمة رائعة. والحب صوت ذو أصداء، أصداء مبهمة آتية من آفاق ضبابية محاطة بالمخاوف والارتجاف. ارتجاف يود القلب ـ من وراء الوعي ـ أن يستعيده، يجتره ويستطعمه.

- عن الرجال

وجوه العيال حيثما نظرت نحيلة رقيقة شاحبة غضة. عيونهم واسعة دعجاء كثيفة الأهداب تملأ القلوب حنانا. لكن الجباه إذا تشق بهذه

السحجات البنية، إن الرجال إذن يرتابون، تغيم آفاقهم بسحب الخوف.

وحينما تسخن الشمس في الضحى، وتتلوى البهيمتان تحت النير في محاولات أليمة، وسلاح المحراث يشق الثرى الهش، والرجل من فوق كل هذا يفرقع بسوطه في الهواء قادرًا مسيطرًا.

وحينما يترقرق مصباح الكيروسين الملمع ساجيًا حالمًا متعاليًا على صخب وسط الدار في العشية وقد تحلق الجميع حول قصعة الطعام متربعين، والأب الكبير في الصدر كتفاه عريضتان عاليتان ممتلئتان قوة...

وحينما تسكن كل الأشياء في قلب الليل، وتعبق الغرفة برائحة عرق أجساد النائمين المفروشة على ظهر الفرن، وتتردد الأنفاس في نظام مستسلم مريب بعيد الغور. حينئذ تترقرق في قلب الزوج، في الفراغ المكبوس بالظلال رغبة كالخاطرة الحزينة. يمتلئ خوفا. تتسلل يده إلى امرأة، تزحف الأصابع على طراوة اللحم. لدانة ساخنة مطاوعة مبلولة مخبوءة تحت طيات تكتم خائف متأثم...

الجباه المشقوقة بتلك السحجات البنية مما بين الحاجبين إلى منبت الشعر، في ضحى الشمس الباهر، في ضوء المصباح الساجي، في ظلام الغرفة العابقة برائحة عرق الأجساد، في كل وقت وفي كل مكان، يخرجون من كل ركن وجوها طفلة. يدفعونك، يحاصرونك ماكرين عارفين قساة لا يرحمون، تبرق عيونهم جسارة. يسأل الرجل متحشرجًا:

ـ ما هذا يا ولد..؟

ويأتي الرد معاجلاً وقحًا جسورًا:

ـ سجرة الحب..!

لم تعد لأحاديث الرجال طلاوة ولا للضحكات أصداء مجلجلة. وكثيرًا ما يرين الصمت على المجلس وتصَّاعد على العيال مشاعر حاقدة، مشاعر ذئبية.

- معلم الصبيان

يعصف به الغضب إلى الجنون. يحس ألما ثعبانيا يتلوى في عروقه، سرطانا ينهش في خلاياه. يغمض عينيه. يصر على أسنانه. يكاد يسحق قطعة الطباشير بين أصبعيه. يلتفت إلى العيال صارخا. هؤلاء الكلاب، إذا يستدير لهم يخرسون، تتطلع إليه صفوف وجوههم النحيلة الشاحبة وصفوف عيونهم المفنجلة بالذعر والبراءة. يجتاحهم بالعصا يمزقهم تمزيقًا. يولولون أذلاء غارقين في الدموع. تملؤه النشوة والارتياح وتفتر

شفتاه عن بسمة مهتزة مترددة. يستدير إلى السبورة تاركًا صفوف العيال في حراسة الخوف. لكنهم يعودون هؤلاء الكلاب إلى ذلك الهمس. ما يدير لهم ظهره حتى يسمع الحركات الغريبة واللغط المكتوم.

الحقائق بالغة البساطة والجد، وتلك الخطوط السمراء في الخرائط المعلقة على الحيطان إنما هي أنهار وجبال ووديان. وفي تلك الناحية من الدنيا ناس ذهبيو الشعر، عندهم قطر كهربائية مارقة وطائرات كالرعود. يشرح المعلم ويعيد الشرح، لكن العيال لا يفهمون. كلاب جرباء. يمرعون عقولهم في أكوام السباخ. تفترس دماءهم ديدان البلهارسيا التي تتسلل إليهم من أقدامهم الحافية تماما كما هو موضح في اللوحات المعلقة. لكنهم لا يتعلمون. يلغطون خلف ظهره ويلهون بالضحكات والدسائس.

يخرج المعلم يمشي في العصاري وإلى جانبيه مساعداه. يلقي السلام على الناس، ويرهف قرون استشعاره يتحسس الكلمات وملامح الوجوه والنظرات في العيون، أترى يبجله الناس أم يسخرون منه؟ بماذا يهمسون خلف ظهره؟ ماذا يحكي العيال لأهلهم عنه؟ يحكم جبته السابغة حول جسده، الجبة العظيمة التي لا يتخلى عنها أبدا.

يكره مساعديه، ذلك الطويل المنحني ذا الغليون الذي لا يخرج بيديه من جيبي بنطلونه أبدًا، وذلك القصير التائه النظرات الذي لا تكف شفتاه عن الارتجاف بالتسابيح. لو كان معه مدرسان أفضل لكان استطاع أن يصنع شيئا من هذه المدرسة التي هي حظيرة قميئة قابعة وسط أكوام السباخ.

الليل الريفي ترتجف في قيعانه الهمسات الغامضة. غرفة المعلم كئيبة الحيطان. زجاجة مصباحه مطموسة بالسناج. وقف عاريا أمام مرآة الدولاب العتيق. ساقاه رفيعتان متقوستان وكرشه كالقربة وضلوع صدره ناتئة وساعداه متدليان هزيلان. جسد حربائي. أسدل على نفسه جلباب نومه. مشى إلى سريره. أحكم اللحاف حول نفسه. يحدق في ظلام الغرفة خائفًا.

- يوم غير مجيد

في ضحى ذلك اليوم كان المعلم القميء المتغضن الوجه يحس بإحساسات مجيدة، حينما وقف على سلم المدرسة الوسخ المتآكل وإلى جانبيه مساعداه. في الباحة الصغيرة قدام المدرسة تحت ناظريه امتد صفان من العيال، رثين مهلهلين تقف وراءهما أكوام السباخ. على البعد وقف الآباء ينظرون. في الفضاء صمت معلق متدل مثل حبل المشنقة.

نزل المعلم الدرجات القليلة متمهلاً. عصاه الطويلة في يده. وقف بين صفي العيال. صرخ فيهم وهو يضرب الأرض بالعصا:

ـ فليخرج من الصف من على جبينه شجرة حب..!

الصفان يتلويان فزعًا. العيال يتزاحمون. يتدافعون بلا نظام. الأيدي تجتمع في ظهر واحد لتدفعه خارج الصف. ثم واحد وواحد وواحد. تجمع المذنبون مقعين حول قدمي المعلم مرتجفين صفر الوجوه مشجوجي الجباه بسحجات انسخلت عنها قشرتها البنية وانتثرت عليها رقطات بيضاء محمرة.

ارتعد جسد المعلم بغضب عارم. رفع عصاه إلى أعلى وانهال بها على العيال يمزقهم تمزيقا. تشق العصا الجلابيب الرقيقة عن الأجساد الطرية وتذبحها ذبحًا. الصراخ يمزق الصمت المعلق. الوجوه الطفلة معجونة بالرعب والدموع.

تأمل المعلم كومة العيال ترتعش محمومة وتتخبط عمياء عند قدميه مثل كومة قطط وليدة. استجمع أنفاسه المبهورة تعبًا ثم بصق عليهم استدار صاعدًا درجات سلم المدرسة القليلة الوسخة.

في ذلك اليوم استدبر المعلم العيال ليكتب الدرس على السبورة ولم يسمع وراءه لغطًا. لكنه كان كل حين يساوره الشك فيلتفت إليهم فجأة وبكل سرعة يريد أن يضبط التعبير المرتسم في عيونهم المسلطة على ظهره. في كل مرة كان يرى الرعب ملء عيونهم فتهدأ شكوكه إلى حين.

- ثمالات أحاديث

شجرات الجميز متباعدات على شطآن الترع، أمهات قاعدات هنا منذ الأزل. شجرات الصفصاف دلين غدائرهن في الماء عبر غبش جاثم على السطح الصقيل. الحقول امتداد شاسع من عيدان ناعسة. على الأوراق مخمل من أوائل الندى. الكون صفاء شفيف. كومة البيوت سوداء عند الأفق. كومة جراء ساكنة في حضن كلبة أم.

مجالس الرجال في الأماسي حزينة. الملافح أحكمت حول وجوه خددتها السنون. انعكست جمرات الموقد المحتضرة على العيون الخابية. نبشت في التراب أصابع معروقة مثل مخلب طائر نافق. يا للتراب، مصنوع من آلاف القلوب التقية وآلاف القلوب الشقية، التي ملأها الحزن، والتي استخفها السرور. لا جدوى. القدر لا يرد. لا غناء في السؤال أو الإلحاح في الجدل.

توزعت في الحارات تحت القمر بضعة ظهور محنية، وخفقت نعال الآيبين

على الثرى خفقًا مغرقًا في الوحشة. في الغرفة فتحت امرآة وحيدة عينيها على الظلام. المساء، الجوى وأنين الأحشاء. ليس أكثر حرقة من دموع امرأة وحيدة.

غنت البائعة نادت على بضاعتها:

يابن الطويلة يا بلح..

يا هز نخلتنا..

خسارة في التراب.

يا نايح..

الليل الريفي مائة ألف نجمة مرتجفة، مائة ألف عين عمياء، مائة ألف أذن مشرئبة. الطبيعة الساكنة حبلى بالهمسات والوسوسات. ربما هي جنادب تحفر بسيقانها المنشارية في طراوة الثرى، ربما هي فراشات غضة تثقب شرانقها أو لوزات تنشق عن نواراتها. في هذا الليل، ما أشوق كل المخلوقات للصبح، للنور تزدهي فيه أوراق النوار وأجنحة الفراش.

برلين الغربية ٢٢٤/٣/١٩٨

الموت والحياة

- الحزن

الملجأ القديم. إلى هنا كنت أهرب من وقدة الظهيرة في الخارج. من الرعب الكامن في العلاقة بين شمس الظهر والأشياء. علاقة صامتة مفعمة بهزيم مزلزل. كنت حينذاك طفلا. ولقد كبرت، لكن الرعب ما زال كامنًا في مخ عظامي. أتراه تسلل إليَّ من صمت الظهر أم من صمت الليل أم من صمت الظواهر إذا نزل الموت يمشي يبصم خطواته على حطب عرائش الدور عابرًا إلى البيت المعلوم، خفيًا عن الدنيا، مرتجف به قلب الدنيا، يلجئ رءوس الكلاب إلى وسائد سواعدها مرغمةً تعول إعوالاً ذليلاً.

الملجأ القديم، الغرفة الكبيرة في دوَّار الضيوف..... لون بني قاتم يسود. منضدة رخام على بساط حائل متهرئ. نقوش الجدران ووشيش المصباح الساهر ودائرة النور المتهدبة الحواشي. سرادق الدخان تكاد سجوفه تلامس رءوس الجالسين على الأرائك الكبيرة. رجال هرمو القلوب هرمو العيون هرمو الملامح. أسرة ريفية قديمة منذورة للثكَل. ها هم هنا احتشدوا يغالبون قدر الموت. هل يحوش جهد الأيدي الخشنة المعروقة غائلة العدم.

الصمت معقود مُوَقَّعٌ على خفق خطوات أكيدة آتية من غيابة الليل في الخارج. إنه «سليم» الذي ينتظرونه. رجل ذهل عن الدنيا، عن الحقل والبهيمة والعيال، ونذر نفسه لطب أوجاع الخلق ساعات الليل والنهار. يسرب وئيدا تحت ليل الحارات مأخوذا غائبا. يحقن ويقيس الحرارة وينبه إلى مواعيد الجرعات لا يغضب ولا يرضى، إنما تكتسي ملامح وجهه بصفرة غبراء شفيفة من الغياب. لا يسأل الناس عن خدمته أجرًا، ولا يستنكف أن تعطيه الناس عن هذه الخدمة أجرًا. تختلط النقود بعلب الدواء في جيبي الجلباب على جانبي قامته القصيرة حتى ليثقلان سيره الصموت.

الأرواح يخنقها كابوس الصمت. العيون ثابتة والقلوب معلقة بإيقاع خطو القادم المقترب. أتراه يوقظ موات أعماقي ترجيعُ سير سليم الأكيد. هل يسعني أن أمتلك بكائيتي وأن أجعل من حزني عزمًا. فجأة انفجر العم الكبير في العياط:

ـ آه يا إبراهيم..!

زعقت فيه:

ـ اسكت..!

سكت. أخرج منديله ومسح دموعه وقال:

ـ طيب..!

أخرج نظارته من جيب معطفه ووضعها على أنفه. أمسك بقلمه وعكف على علب الدواء وزجاجاته يسجل الجرعات والمواعيد. أي خراب يشيع في وجهه المجوف وفمه الغائر وملامحه القاتمة السمرة. أي خراب يحيط بنا، يحصرنا، يجتثنا واحدًا إثر واحد.

صحت عيناي على وجه سليم واقفا في فراغ باب الغرفة متجهة إليه أنظار الرجال. إنه موعد الحقنة. قام عمي الأصغر وقمت. خرجنا نصحب سليما من الغرفة إلى ردهة الدوَّار إلى الشرفة. تحدرنا على الدرجات نازلين إلى الشارع قاصدين بيت المريض عمي إبراهيم.

هذا الليل يعصب على عيني بالعماء، لكنني أعرف طريقي. أحمل قلبي المضيء على أرنبة أنفي مثل سمكة الأعماق السحيقة. هذا الليل يحضنني، يكتم عيني في طراوة صدره، لكنني أفتح على عتمته الرمادية شعيراتي الدموية كي تمتص منها لبن الجسارة. تمتص صرخات الذئاب الغبر ووقع خطى لصوص المناسر القدامى وكل الأصوات الجاسرة الغريبة الذائبة في هذه الأبدية الليلية وتودعها قلبي. حتى أكون قادرا على أن أكسر ترنيق التقى على وجوه الطهورين، وعلى أن أبول على الأسى المقدور في القصص القديمة. بذلك تتلبسني روح الساحر الزنيم فيسعني أن أبعث الشفاء في جسد العم المسجى.

نحن أسرة ريفية قديمة ملحدة ملعونة. حتى الذين يقيمون الصلاة منا ويقنتون، إنما هم ملاحدة إلى النخاع ومرعوبون إلى النخاع وممزقون في داخلهم. نحن مرضى حائلو الوجوه ولون العيون. نحن نحمل في عروقنا جرثومة غريبة تحكم على أجسادنا بالهزال وتحتم على أرواحنا بالكآبة وتعطينا خلفا ذابلاً مشوهًا. لكن هذا العم لا ينبغي أن يموت، لا ينبغى أن يموت.

فاجأ عيني ضوء غرفة المريض كأنه ضحكة ساخرة. ضغط على روحي جمع العمات الجالسات على الحصير في الأرض عاصبات رءوسهن بالطرح السوداء، يدرن بينهن حديثا غامضا وهن مزمومات الأفواه مثل بومات على فرع.غالبت وجلة قلبي وعقدت عزمي.

قفزنا ثلاثتنا على السرير أحطنا بالجسد المسجى. احتضنت رأسه بين كفيَّ. ما زال وجهه قاسيًا غضوبًا. شخيره لاهث متتابع. تحسست خشونة لحيته النابتة ودهنية بشرته المتقرحة وشفتيه الوارمتين

المنفرجتين عن أسنانه المتسخة. انحنيت عليه قبلت فمه. انهمر نهر دموعي لكنني بقيت مسيطرًا على نفسي.

عصر عمي الأصغر ساعد أخيه الغائب في غشية المرض حتى ينفر العرق الوريد. صحت في وجه سليم انتباهة مفاجئة حادة. دفع السائل الدامي في العرق. ازداد الوجه الموسَّدُ قساوة واغبرارًا. عرى من كل شبه بشري. ماثل قطعة جافية من حجرة غشيم. صدرت عن جمع العمات ولولة. لم أعرف من منهن التي تتكلم:

ـ إنه ميت ميت... تعذيب جسم الميت بإبر الحقن حرام..!

زعقت فيهن من مجلسي على حافة السرير.

ـ هو بخير.. أنا قلت.. حلوا عصائب الحداد السود.. يا طيور الشر..!

شيء ما في أرواحنا مريض. موصول بغرف الانتظار في عيادات الأطباء. بتلك القتامة العطنة. بصمت المنتظرين الذليل وتوجعات المرض. لأننا نروح هناك مدفوعين بالموت الكامن في أعماقنا متكورًا كالحسرة أو القنوط، نظاف الثياب على وجوهنا أقنعة أسى فطري مقدور. نسلم أجسادنا لأنامل الحكماء الصفراء الشفيفة، وتنصتهم المتوجس، وتأملات عيونهم الزجاجية. نسلم أجسادنا لهم في ساعات التذاذ حزين وخضوع خائف لناموس العرافة. ونحن نألف العقاقير. يستولى علينا سحر ألوان السوائل في الزجاجات. تستلبنا رهافة استدارة الأقراص ودقة تكوينها. نسيغ رداءة طعوم الأدوية ونصر على سوء روائحها في رغبة ملحة لتعذيب ذواتنا بحثًا عن السر الكامن في هذه الجواهر الغريبة.

ألهذا حملته إلى طنطا وهو غائب عن الوعي مغمض العينين؟ أكنت فريسة مسلوبة لتلك القسوة الجهمة في وجوه الممرضين ومساعدي معامل التحليل؟ لذلك الإرهاق الشاحب المترفع في سحن الأطباء؟ أهو قدر أن نحمل مرضانا إلى هذه البيوت القديمة العطنة في المدينة الوسخة قبل أن يموتوا؟ هل هذه الرحلة إلى طنطا طقس من طقوس الموت؟ ولولت العمات من خلفي وأنا أحمله على كتفي مسافرا به يتبعني عمي الأصغر:

ـ تعتل رمته على كتفك وتدور به على الأبواب في شوارع المدينة المشئومة؟ إنه ميت فما يجدي الدواء؟

أي طيور ليلية خفية الأسماء والهياكل، مستورة بسجوف الظلام، مدعوة لحتوفها، ماضية إليها، تنوح وتولول، تلقي على قلبي بنذر الشؤم. نعود ثلاثتنا بعد الحقنة إلى الدوَّار. أمشي بين عمي الأصغر وسليم. قبضت على ساعد هذا لأصل إيقاع داخلي المضطرب بإيقاع خطوه الرصين.

حتى لا تخترمني الأصوات التي تهوي في جب الليل تاركة وراءها ذيولا مستطيلة قبل أن تغيب في العمق السحيق. أثبت عيني على الظلمة أحاول أن أتحسس الكتلة المعتمة المقتربة.

ذلك دوَّارنا. أصعد درجات السلم إلى الشرفة أحس إحساسا رائعًا بالرهبة والأمان. هذا معبدنا وقلعتنا. هذا ما بناه لنا الجد الكبير. لماذا لم يشتر لنا حقولا شاسعة على رءوسها عششا وحظائر؟ أكان يعرف احتياج حفدته لهذه الصدفة الهائلة ليدَّرعُوا بها أن يهرق ماؤهم ويضيعوا؟ أكان هذا الجد نبيًا يعرف الآتي؟ أم إن جرثومة عطبنا الخبيثة نشبت أولاً في جرمه الهائل ثم انحدرت منه بالإرث إلينا؟

ولقد قصر الجد نسبنا في ورقة هائلة مطوية مسطور فيها أسماء الموتى ومحفوظة في علبة من صفيح صدئ في ركن من أركان الدوار. تشابهت الأسماء بالأسماء. اشتبه الموت بالحياة في قدر الثكل، في نبوءة نبي قديم. كان يحبس نفسه السنين الطوال في غرفة معتمة داخلية يصوم النهار ويقوم الليل. كان كثير التنصت على داخله. أدرك ضيعتنا بين معنى الموت ومعنى الحياة.

رغم ظلام الردهة الحالك أرى. يحضرني إحساسي القديم بالأمان إذْ كنت أهرب طفلاً من وقدة الشمس في الخارج إلى عتامة هذه الردهة ونورها الرطيب الملوَّن بألوان زجاج الطيقان وشراعات الأبواب.

ألقيت بنفسي على الأريكة في الغرفة الكبيرة. سار عمي الأصغر وسليم الهوينى كلٌّ إلى مجلسه. اتكأت على طراوة الوسائد. أسلمت روحى للنور المدخن والوشيش. هذه الغرفة هي ملجئي القديم. هذه الأشياء التي حولي وهذي الناس هي جسوم شواهد على كل ساعات الخوف والقهر. قائمة حولي أبدًا تتنفس التراب تحت قشرة غالبة من اللون الحائل.

أتتبع ذلك الإطار من الورود السائر أعلى الحيطان. أتراني أرى نقوش الجدران هذه أم أتذكرها. هل ينفذ بصري خلال سجف الدخان إلى النقوش أم تنفذ إليها بصيرتي خلال أيام زمن طويل. أحزن الآن كما حزنت طفلا من تحول الألوان وانمحاء الرسوم وضياع البهاء الذي كان يومًا. يفجعني الآن كما فجعني طفلاً سقوط البياض عن فراغات سوداء شائهة.

أتلهى بتصفح الوجوه الصغيرة في الصور القديمة المعلقة على الحيطان. مستورة هي عن عيني بالدخان، لكنني أعرف سيماء كل وجه وانكسار كل نظرة. أميز عمي الكبير بين صبيان مدرسته نحيلاً رقيقًا واسع العينين تكسف بهاء صباه سحبٌ من خجل ريفي. ها هو ذا الآن جالس على الأريكة قربي هائل حجم القدمين يرتدي عديدًا من الجلابيب والسراويل

ومعطفًا سابقًا قديمًا ويعمم رأسه بشتى أنواع الخرق. منحن على الموقد الموضوع على منضدة الرخام يصنع القهوة بانصراف شديد وأناة تامة ويناولني فنجالاً أستطعم مرارته وسكره. أحب ذلك الأب الكبير. يترقرق حبه في قلبي مثل دمعة.

أتراه يتفكر الآن في مثل هذه الحال، حيث يكون هو المريض المسجَّي على فراشه. في غرفته، وهنا يجتمع الرجال في ضوء المصباح الساهر الطنَّان تحت سرادق الدخان وأمامهم كومة من علب الدواء وزجاجاته، وفي قلوبهم الخوف والحسرة وعلى وجوههم الحداد؟ لهفي عليك يا عمي. أتأمل وجهه.

وأتصفح وجوه الرجال الآخرين، ينظرون إليَّ بعيون غاسقة. يثقل على عواتقهم يومان طويلان دون لحظة راحة أو إغفاءة نوم. يتململون في مجالسهم. يطلقون أجسادهم من إسار الجلوس. يتكئون أو يتمددون. تنتظم الأنفاس. يتراكم الرماد مطبقًا على مقل الجمرات. يخبو في الغرفة نبض الحضور. تضيق دائرة الضوء على المصباح الساهر ويضمحل وشيشه. تزحف العتمة من الأركان. تسود برودة الغياب.

فتحت عيني على ما حولي. خرجت من سكرة النوم الذي غرقت لحظة في جبه السحيق. رأيت الأسطى سليم واقفا وسط الغرفة تتهدب على كتفيه شراسف الدخان المضوأة بالضوء الخابي من المصباح المحتضر. قطبًا أو نبيًا مرسومًا بالكلمات الحكيمة على صفحات صفراء من صفحات كتب السيرة القديمة، يعظ ويحذر من الخطيئة. لقد صحا على موعد الحقنة التالي وها هو ينظر إليَّ بعينين ناطقتين بالعتاب. أحسست بمذلة الذنب حتى كدت أبكي. عدل هو ثوبه واتجه إلى الباب دون بنت شفة. همست خلفه ضارعًا.

ـ سأصحبك إلى هناك يا أسطى سليم..!

أعرفه فهو يسمع دون أن يجيب، وإن أجاب فهو خفيض الصوت مبهم العبارة. تبعته يمشي قصيرًا وئيد الخطوة. جيباه على جانبي جلبابه منتفخان بصنوف الأدوية والمحاقن والضمادات. أحكمت شملتي مخبئًا عظامي المرتعدة في كن الدثار. أبقيت عيني ثابتتين على القامة القصيرة المتدفعة في خطوة رصينة أكيدة وأنا مهتاج متهدج الأنفاس. الموكب غريب الخفق تطل عليه منحنية واجهات الدور المصلوبة في برودة هذا الليل.

انتهينا من الحقنة وقفلنا آيبين. إيقاع خطونا كدقات ساعة في ردهة مقفرة. نسير مثل ثاكلين في سكة بين شواهد القبور، نملك الوحدة والحزن والبسالة. المواجع مدفونة في جحور مضوأة دفيئة مخبوءة تحت ركام الصمت والبرد والعتامة التي يراكمها هذا الليل. سليم يعرف هذه

المواجع. ينفطر لها قلبه كأنه كلبة والدة تعوي في داخلها وأنا أسمع هذا العواء مسلوبًا لوقع خطاه إذْ يتركنى قدام السلم الصاعد إلى شرفة الدوَّار ويمضي هو إلى مرضى آخرين ومواعيد أخرى. ظللت أرقبه مبتعدًا حتى غاب عني مع انحناءة الحارة. حينئذ تركت الدوَّار خلفي وأسلمت نفسي للعتامة.

رجل عمي إبراهيم مريضة بعرق النسا، فهو لا يسير هكذا، بل هكذا. أحجل في الليل وحدي خطواته العرجاء المشئومة وأصيح وأضحك ضحكًا يجلجل في قلبي مكتومًا دون صوت. كان عمي إبراهيم يسير هكذا. كان الربع من كيانه ذابلاً الأرباع الثلاثة ناشطة نشاطًا معوجًا شائهًا هكذا. وأضحك ضحكًا يجلجل في قلبي دون صوت. أزعق زعيقًا مجلجلاً صامتًا واضعًا على وجهي قناع وجهه المريض المغبر المغمض المفرج الشفتين المتسخ الأسنان. تملأ قلبي غضبة أليمة وقهر لا يوصف متمثلة لي قومته في وجه واعظ المركز.

ذلك كان رجلا بشعًا قام يومًا بين الناس يعظهم ألا يناموا مع نسائهم في نهار رمضان والناس يسمعون صامتين أذلاء. لكن إبراهيم كسر الصمت هاتفًا:

ـ فلان فعل..!

صرخ الواعظ:

ـ كفارة الفعل صيام ستين يومًا متتابعات..!

قابل إبراهيم صراخ الواعظ بالصراخ.

ـ من يعمل بالفأس تحت الشمس من أجل قوت عياله لا يستطيع هذا الصوم!

قال الواعظ مصرًا:

ـ فليطعم ستين مسكينًا..!

قال إبراهيم منافحًا:

ـ إنه فقير..!

زفر الواعظ يائسًا:

ـ في جهنم وبئس المصير..!

قال إبراهيم معاندًا:

ـ ألأنه خالف حكمًا لا يعرفه..!

قال الواعظ مقررًا:

ـ تلك شريعة الله!

خالف إبراهيم:

ـ تلك شريعة حاكم ظالم لا يشبه الله في شيء!

صاح الواعظ بإبراهيم:

ـ يا كافر..!

شتمه إبراهيم:

ـ يا منافق.. تدفع لك الحكومة لتنشر الخوف واليأس بين الناس..!

والناس يسمعون الحوار الملتهب ذاهلين.

دلفت حاجلاً إلى الزقاق الحالك. من هذه السكة كان مشواره اليومي إلى المقهى يجر ذيل ثوب يكنس الأرض وراءه لا يجمعه حذر النجاسة. سرت أحجل خطواته. وضعت أقدامي في مواطئ أقدامه. المقهى كائنة في نهاية الزقاق. في داخلي هزيم الأصوات. ألهث وجسدي ساخن عرقان. استندت إلى الجدار مغمضًا عيني. انهارت ساقاي فتهاويت جالسًا جنب الحائط ومازلت أحس على وجهي قناع وجهه المتقرح المحتضر. من إغماضي أرى الشقوق في باب المقهى واشية بضوء المصباح الساهر في الداخل. يكبلني عن أي حركة عجز كابوسي جاثم على جسمي وعقلي وروحي. هكذا مات كلبنا الأسود منذ سنين. أسند ظهره إلى زاوية الزريبة وأغمض عينيه وظل متصلبًا يلهث حتى مات. راقبت ذلك كله مرعوبًا وأنا طفل صغير. لو كان قام ما كان مات أبدًا. لو كان هزم الموت مرة واحدة ما كان مات أبدًا. إن عمي إبراهيم يجب أن يقوم. إنه يجب أن يقوم.

أفلت من قبضة الكابوس لاهثا مبللاً بالعرق. واصلت سيري في الزقاق. ألسنة من برد الليل فتشت ثيابي ولدغت جسدي الساخن كالأفاعي. أسير في الزقاق تاركًا المقهى خلفي. إلى هذا المقهى كان يأتي كل مساء رافضًا أمسياتنا الكئيبة المضوأة بالفانوس في ردهة الدوَّار. كان يأتي إلى هنا يحشر نفسه وسط زمرة من الأوباش في وقدة الضوء المحبوس في فراغ الغرفة القليل. صراخ المذياع وطنين موقد الكيروسين

ودخان نار القوالح ورائحة دخان السجائر والجوزات. كان هو وسط صخب المقهى أعلى الناس صوتًا وأعنفهم خبطًا بورق اللعب على الطبلية. أترى يسع زخم الحياة في جحر المقهى أن يطغى على شحوب المرض في غرفة رقاده، وأن يرفد الفيض العارم هنا عروقه بالعافية والمروة؟

أنا قبل يومين حملته على كتفي هكذا. صعدت به السلم المتآكل الدرجات في المنزل القديم في طنطا هكذا. هناك في معمل التحليل عروا جسده. غرسوا في ساعده وظهره سنون الإبر. استقطروا الدم والنخاع تتلوث منه أصابعهم. أمسكوا الأنابيب بالمساكات المعدنية. طبخوا العينات. كتبوا الملاحظات. التفتوا إلينا بوجوه شاحبة متورمة وعيون مائية خلف زجاج النظارات. وأنا وعمي الأصغر تفطر قلبينا القروح في الجسد المسجى.

أتينا بالحقن والأقراص وزجاجات الدواء. رجعنا به هكذا. تأرجحت بنا العربة القديمة الهائلة الحجم على أرض شارع دائر الناحية والسائق النحيل يهزه الارتجاج على كرسيه. حاول رغم ذلك أن يركز بصره أمامه محيطًا عجلة القيادة بساعديه. وكان الناس على الجانبين ينظرون وأنا تصورتهم صورًا حائلة على حيطان قديمة. والمريض في الكرسي الخلفي على حجر عمي الأصغر.

سأحفز في ذاتي كل حرص وحذر.سأحشد في عقلي كل يقظة وانتباه. سأحفظ المواعيد ومقادير الجرعات. سوف أتقوس على جسده المسجى متوتر العروق راكزًا بصري. سأقطر في عروقه من سر هذه الجواهر الغريبة حتى يصحو. آه. تنهمر دموعي. أبكي قهرًا أبيدًا كالدهر.

بقيت وحدي ومن حولي ليل تعوي في جوانبه الكلاب. أصرخ في بئر ذاتي صراخًا مكتومًا بكلماته الأليمة.

ـ من يمت إنما يذبح ذبحًا. من يمت إنما يفنى ويندثر ويصير ترابًا. لا تبحثوا عن عزاء كاذب في الحكايات القديمة!

زحمت صدري غضبته المروعة. حدقت في عتامة الليل الفضية بعينيه المتقرحتين العاريتين من الأهداب. كأنما أرى في العتامة حولي أهل القرية جميعا ذاهبين إلى المسجد لصلاة الجمعة. كأنني أراهم يتركونه وحده خلفهم في هذا الخواء جالسا على كومة التراب أمام باب داره، عنيدا رافضًا أن يلحق بهم، وحيدًا وحدة مخيفة وستائر الليل الشفيفة الغبشة تنزل عليه تكاد تخفي عني رسوم شخصه وملامح وجهه.

أمشي في الليل متخذًا سمت الكلام وإيماءاته وأنا صموت. أقول في داخلي أن عمي إبراهيم لا ينبغي أن يموت. إنه اختار حياته هذه فقط وعاشها بكل مكنات عقله وقلبه وجسده وبصق على كل ما عداها،

بصق على كل ما ينقص من توترها أو يدمث خشونتها بالخوف والمهانة. لهذا فهو لا ينبغي أن يموت. إن موته لن يكون تغيرًا أو انتقالاً بل سيكون نفوقًا كنفوق البهيمة. هذا النسر المتوحد ذو القروح، لو كبس الصمت على مجلسه فوق كومة التراب أمام باب داره، فإن نقصًا فادحًا سوف يعتور الأشياء.

خطبت في الليل. زعقت بكلمات مجلجلة صموت. عبأت روحي بحقده المرير. شتمت الزيف والتلفيق. قلت كل كلماته المشحونة بكهرباء غريبة. ضحكت ضحكاته الصاخبة المريرة التي جعلت الناس يبيضون خزيا لكنهم يأتون إلى مجلسه يجلسون حوله مطرقين مسلمين رخاوة أرواحهم لنصال سخريته.

كرهوه إلى النخاع لكن أحدًا لم يطله بكلمة سوء. فهو لا يكذب ولا يسرق لأنه يخاف الخطيئة، بل لأنه يحتقر آلتي السرقة والكذب. وهو لا يزني لا لأنه غير شغوف بالنساء، بل لأنه يأوي إلى امرأته وهي امرأة وسيمة عذبة تصدقه المودة والرعاية، وهو لا يصطنع لنفسه حلمًا ولا وقارًا ولا زعامة ولا إنصاتًا للثرثرة والجدل ولا حكومة في الخلافات بين الناس. إنه وحيد وحدة أليمة، لا يحب أحدًا ولا يسأل أحدًا محبته. باحة داره نظيفة، لا محراث ولا فأس ولا حبل، لا بهيمة ولا مخازن للمعاش، يشتري قوت يومه بالقرش كأنه طالب علم يعيش غريبا في غرفة مأجورة.

لكنه لن يموت، فإن في روحه شيئًا شرسا شريرا موصولا بجسارة القاتلين القدامى وشيوخ مناسر اللصوص. تعيش بقاياهم إلى الآن في القرى البعيدة رجالا هرمين يرتحل إليهم، يجلس إليهم، يفرح بهم كطفل، يرتجف على حكايات أخبارهم ومساربهم تحت ظلمة الليالي السالفة القديمة.

لن يموت لأن في روحه شيئا خبيثا ملتويا شأنه يستعصي على الاستئناس أو المصالحة، يجعله يفترض سوء النية في كل قصد، والغش في كل فعل، والنفاق في كل ورع ، والرياء في كل محاسنه. ويجعله يتربص بالنازلين على القرية من وُعَّاظ أو بائعين أو سحارين يطبون للأمراض والعلل، أو متسولين أو مجاذيب أو أفندية من رجال الحكومة وعمالها يزرون معاطفهم على دخيلة نفوسهم. يثبت لهم عارفا رموز كل منهم. يسألهم ويجادلهم ويرد عليهم بحججهم يفتش جيوبهم ونواياهم، يعريهم، يسوطهم يطردهم خارج القرية ذلك الحارس الريفي القديم.

لن يموت لأن فيه سرا يصله بالحياة حتى يصير جزءًا من نسقها الشامل ترفده بزخمها وعنفوانها. سر يجعله عارفا بآفات الزرع وأمراض البهائم. ما يرى عودًا يذوي أو حيوانًا يتأمل إلا وتتغلب تصاريف الوجع على ملامح وجهه الصخرية. ينحي الآفة عن العيدان ويبيطر البهائم ما أخطأ مرة تشخصيًا ولا خابت مرة له وصفة. لن يموت...

جريت ناحية داره أراها على البعد. جريت لاهثا وبرد الليل يسفع وجهي. أتصورني أراه جالسًا على كومة التراب أمام الباب. أتصوره يكلمني. أتخيل شفتيه الوارمتين تتحركان حركة أليمة:

ـ أنا أحترق يا بن أخي.. نار الوجع تشب في جسمي.. نار..!

أجري ناحية داره وصوته المتألم يسوطني. شبحه قبالة عيني جالسًا على كومة التراب، أمام باب دار يتفحص قروح ساعديه ورجليه. أجري ناحيته لاهثا. أجاوب نداءه الصامت بالصراخ الهلع المكتوم.

دفعت باب غرفته داخلا مقطوع النفس من الجري. أقبلت عليه ممددًا في سريره. ولولت العمات وراء ظهري:

ـ منقارة اصفَرَّ.. وعيناه جمدتا بالحق..!

تأملت الوجه المسجى. الجفنان انفرجا عن مقلتين عكرتين ثابتتين. على أرنبة الأنف بقعة صفراء.. آه.. تلك غاية الألم.

قبلت جبينه. الموت حالة من حالات النفس والجسد، حالة أخرى. الموت قنوط إلى القشعريرة. استدرت في مجلسي على السرير أطل على جمع العمات الجالسات على الحصير في الأرض. ترينني وهن ناكسات أبصارهن في الحجور، متعاليات كسحب سوداء، ممتلئات بالحكمة الأبيدة.

منذ متى كنزن الماء لغسل الجثمان والدقيق لخبز المعزى هؤلاء العارفات بالمواعيد ومقادير الأفعال. متى يشق صراخهن الفضاء واصلاً إلى كل قلب ناعيا إليه الميت معلنًا عن طقوس العدم المرعبة.

بدأ صمتهن المتقب الأسود يسري إلى روحي ويحزم بالفزع على قلبي. يحاصرنني بلعنة صامتة كأنني ملحد نجس تسلل إلى قدس أقداس الموت. المصباح على رف الطين في الحائط يرمقني بعين طفل مشدوه. انزلقت نازلا من على السرير حذرا حتى مست قدماي الحصير. بقيت مقلة المصباح مرسومة على عيني وأنا أضرب في ظلمة الخارج.

مددت بصري عبر الليل وجدت عمي الأصغر واقفًا في شرفة الدوار غائرا كأنما يبعد عني بمسافات شاسعة. إنه يناديني وأنا أسمع صوته متوترًا مفعمًا برنة البكاء. نفس الصوت الذي سمعته متهدجًا نابعًا من حروف كلمات البرقية التي أرسلها إليَّ:

«عمك إبراهيم مريض وحالته خطرة واللقاء نصيب».

هكذا يناديني دائما. هكذا يتهدج صوته دائما يرن في سمعي وقلبي نابعًا من حروف الكلمات في رقاع البرقيات. أخرج مسافرًا إليه لا أحمل حقيبة متاع، إنما الخبر في جيب معطفي. رجل آخر يهوي. واحد آخر من تلك الأسرة المنذورة للعدم.

سرت ناحية الدوَّار مخلفًا دار عمي إبراهيم ورائي. تتحرك شفتاي بهمهات مبهمة. كم من الأيام مر. كم من الأيام بقي. ما جدوى السؤال. سنظل هنا نجيب على أسئلة الحزن بعيون غاسقة.

- الرؤيا

ننزل درجات السلم من الشرفة إلى الباحة أمام الدوَّار. العم الكبير وعن يمينه وشماله عمي الأصغر. وأنا. موكب بال مهزوم لكنه ثابت الخطى. الوجوه نابتة اللحى ذابلة العيون شاحبة، لكنها وسيمة بندوب الحزن منوَّرة بالمعرفة الأليمة قريرة باليأس إلى انعدام الرجاء.

الصبح يولد في قطرات الندى على أوراق كافورة الباحة، وعلى ذوائب الحطب المدلاة من عرائش الدور، يتعشعش على الأرض الرطبة. الصبح معتم له صوت يغزو الروح، مبلول كأنه امرأة مستحمة يقطر الماء من غدائرها. إيقاع مناحة النسوان يخالط الضوء الصبحي، يمشي في عروق الجسد إلى القلب.

مقدور أن نساق هذا الصبح إلى هذه الهزيمة الصبحية، إلى هذا الخراب الذي انكشفت عنه ستائر الليل، إلى هذه الغربة السحيقة التي تعمر المسافة القليلة بين مندبة النساء في دار الميت وبين سكون الرجال في الباحة أمام شرفة الدوَّار. غربة تقصينا عن الدنيا، تنفينا في عقر ذواتنا مرعوبين إلى النخاع.

لكننا نجيب بالكبرياء على سؤال الموت. كبرياؤنا المخزون في أرواحنا كالماء العطن في الدنان القديمة. كآبتنا المعشعشة في أجسادنا المتوحدة التي لا تتآلف. تنبو بها المضاجع في ليالي السهاد الطويلة. تشيح الوجوه أنفة وعجزًا. تتلون العيون بالقتامة. شاردة مهاجرة إلى الرؤى الغريبة التي تفلت من الخيال ولا يدركها التحقق، هاربة من البلولة المتخثرة في أجساد النساء، مرعوبة من حرقتهن المتشققة الشرقة. طهورون إلى الانقطاع نحن. نرمق مندبة النساء بعيون بيضاء لا ترى.

نتمنى لو أنا حملنا جثمانه بيننا، نداريه بفضول جلابيبنا، نلحده في ردهة دوارنا هاربين بموتنا وميتنا إلى عمق كتماننا، لا يرانا أحد ولا يشفق على فجيعتنا ولا يعرف نقصنا. لكنه ها هنا ستقام المعزى. سوف تكنس هذه الباحة وترش بالماء، وتجلب الأرائك من الدور وترص صفوفًا. سوف

تنصب أشباحنا كنواطير رثة، نسير بين صفوف المعزين على وجوهنا أقنعة الأسى الفطري المقدور. تومئ الرءوس بتحيات عميقة، تتحرك الشفاه بغمغمات مبهمة، كأنما نعتذر للناس عن مسائنا الكئيب.

كان يهرب إلى المقهى من أمسياتنا هذه في ردهة الدوار. كان يصرخ بالحقد الذي نكظمه في بطوننا صامتين. كان يضحك مرارتنا التي نطوي عليها قلوبنا خلف شفاه مزمومة. كان يحجل هنا خطواته الشائهة ونحن ننظر إليه. وكان يرقص رقصة السخط والعذاب ونحن قاعدون مكسورون عاجزون، نعرف أنه مربوط بالعطب إلينا، ننتظر عودته لنا، ميتا نملكه، نحمله إلى اللحد على عواتقنا، نلحده في عمق صمتنا، نبكيه بعيون لا تدمع وقلوب لا تخفق، نأسى عليه بوجوه مهدمة كواجهات الدور الهرمة.

لكنه مات موته الفادح الغريب. نصبت مناحة النسوان. ودفعنا إلى صبح منشور على فروع الكافورة، ننزل إليه من سلم الشرفة إلى الباحة. أطَلَّ علينا العم الكبير. على وجهه كبرياء جليل. ما أعظم الكبرياء على وجوه الموتى، إنه لا سبيل إلى انتقاصه أو هزيمته: مشينا أنا وعمي الأصغر إلى العم الكبير، فلما صرنا قدامه رفعنا إليه وجوهنا صامتين.

اقتيدت الحمارة. ما أشد انكسار وجهها، كأنما خلقت مطية لجلب تصاريح دفن الموتى. أخذها الرجل بعيدًا. ركبها. حرك ساقيه حركة رتيبة. بدأت الدابة تندفع على السكة بطيئة ثقيلة... وإذا ماجيء بتصريح الدفن واشتُرِي الكفن، فسوف يأخذ رجلان فأسيهما ويذهبان يحفران اللحد.

ـ هذا هو حال الدنيا..!

من قلب الصبح يقبل علينا عم بكر يمشي خطوته الأكيدة المتساوقة. إيقاع سيره يرن في قلبي جليلاً مسيطرًا حتى أُذْهَلُ عن مناحة النسوان. يشرع الرجل جبينه إلى الأمام. يداه في جنبه لا تتخبطان بحثا، إنما ترتجفان ارتجافة متوترة:

ـ سعيكم مشكور يا عم بكر..!

يرفع إليَّ وجهه الأعمى المترب الجبين من أثر صلاة الصبح. تنقبض ملامحه عذابا. تتقلص شفتاه عن ثنيتين تراكم على جذورهما الجير. يصافحني بيده الريفية الغليظة وهو يقول:

ـ غفر الله ذنبك..!

وأسمعه كما سمعته عمري يترسل صوته من تحت ستائر الليل في الهزيع الأخير مرتلا دعاء الفجر. دعاء نابع من قلب الليل. الليل نسيج من قلوب صغيرة متلألئة تصيخ. وأنا تحت ظلام الإغفاء وحبس الغرفة يحولني

الصوت إلى قطرة في محيط لا نهائي، يحولني إلى شيء من الأشياء الليلية، حصاة أو ورقة شجرة مثقلة بالندى منصتة.

عم بكر يعرف مواقيت الأذان دون أن يستشير ساعة. قلبه موصول بدورة الأفلاك وآناء الليل والنهار. ينصت مخليًا بين قلبه وبين المواقيت. تنشط به الرغبة إذا استشفت روحهُ تلك اللحظة المليئة بالترقب والتوجس، الخافقة بالشوق للترتيل في قلب النهار أو آخر الليل. عندئذ يمشي في الحارة خطوته الواثقة المتهاوية حتى يدرك المسجد فيصعد لكي يؤذن.

أهي مناحة النسوان التي روعت الصبح، أم هي لحظة في هذا الصبح فاجعة أدركها قلب عم بكر فحملته من داره في قاع الحارة البعيدة إلى مكاننا هذا أمام شرفة الدوار. لا أدري، ولا أدري أجاء عم بكر مؤذن الجامع إلينا ليكون أول من يقوم بواجب العزاء في رجل لم تعلم قدمه علامة على حصر الصلاة، رجل لم يرع حرمة الأوقات ولا قداسة المواسم، ولم يتطامن لصوت المصلين يرن في العتامة الرطبة خلف الإمام.

يقف عم بكر معنا، لا يتململ ولا يتلفت ولا يخبط في الهواء بيديه محاولا أن يتيقن أين هو، إنما ينتصب وسط هذا الصبح، مخليا بينه وبين قلبه، وعيناه المطموستان بالعمى مرهفتان شوقا أخرس أليما. يشخب الندى من الشجرة ويعلو الصبح، يبيض، تتسع مقلتاه دهشة وتوجسا وإنصاتا. صبح عري من الحياة الصبحية، عار من فرحة الحيوات الخارجة إلى لذعة البرد من دفء محابس الليل، صبح حزين كأنه يصيخ لحزننا يؤذن به عم بكر أذانا صامتا ويرتله ترتيلا:

ـ هذا هو حال الدنيا..!

ـ سعيكم مشكور..!

والناس يأتون، يسربون، يبصمون خطواتهم على الأرض الندية، يميلون على مكان الاجتماع ذاهلين عن عمل اليوم ينتظرهم في الحقل، وعن البهائم تتململ في مقاودها في الزرائب:

ـ هذا هو حال الدنيا..!

ـ سعيكم مشكور..!

الصبيان على بعد يرمقون الجمع. ودوا لو أنهم كانوا رجالا، وكانوا معنا الآن واقفين يقدمون واجب العزاء:

ـ هذا هو حال الدنيا..!

ـ سعيكم مشكور..!

وأصافح الأيدي الريفية الخشنة، أطالع الوجوه العارية من بهاء أقنعة الاحتفال. هؤلاء رجال ألفوا أن يلزموا الحقل والبهيمة حتى أصبحوا أشبه بفروع غليظة جافية لم تشذبها ممارسة طقوس الاجتماع والمجاملة. هؤلاء الرجال كانوا فرائس سخرية إبراهيم. كان يمزق جلودهم بكلمات كالسياط. كان يشتم غباءهم وجمودهم ووثنيتهم وانحباسهم كالعبيد في عالم شغلهم لا يرون غيره. كان يضحك من بلاهتهم وسقوطهم في أحابيل النازلين على القرية من متسولين أو بائعين، أو الأدعياء من مشعوذين أو أفندية أو رجال شرطة. كانت كلماته تطاردهم كأنها كلاب مسعورة تأخذ بتلابيبهم لا ترعى فيهم حرمة:

ـ هذا هو حال الدنيا..!

ـ سعيكم مشكور..!

وها هم يجيئون كذلك، أصحاب الوقار والتؤدة، رءوس العائلات. أعرف الوجوه والقلوب. هؤلاء الأتقياء الذين يمشون وئيدي الخطى، لا يستعجلون ولا يتلكئون. يقولون الكلمات الحكيمة. يحرسون سكينة أنفسهم. يرهفون إنصاتا متشوقا يستصفي من اضطراب هذه الحياة صغارها نغمة خاصة رتيبة مضطردة متساوقة جليلة، لا يزعجها تضارب مسارات الحيوات ولا اختلاط الرغبات والشهوات. يرامق هؤلاء مناحة النسوان ويغضون البصر عن الحرام ويغمغمون:

ـ هذا هو حال الدنيا..!

لم يكن إبراهيم يطيق هذه الأنماط الصقيلة الباردة الخالية من نبض الحياة الشرس المضطرب المتداخل. كان لسانه الفاتك مثل نصل مسموم، وكلماته المشحونة بكهرباء خاصة تجعل الرجل منهم يبيض خزيا. يمشي متعثرا وهو يعلم أن عيني إبراهيم المحمرتي الأجفان العاريتين من الأهداب مغروستين في ظهره، ويسمع الضحكات تجلجل وراءه تسخر من سمت وقاره وحكمته. ما زال في الهزيم المكتوم لهذا الصبح رنين صوت إبراهيم الغضوب. ما زالت مرارة حقده الهائل ترفق على كل الأشياء الصبحية:

ـ سعيكم مشكور..!

أصافح الأيدي التي صقلها إدمان المصافحة واستطعام دفء الاحتضان. أجد في الوجوه مهابة حزن عميق. ليست هذه أبدًا أقنعة يقضى بها واجب العزاء، بل هي وجوه روعها اختلال خارق في نظام مضطرد مألوف.

والناس يأتون، تكشف الشمس الصفراء المبلولة عن مسارب سعيهم إلينا، رجالا هرمين وشبانًا أحداثا، ناسا صاحبوه وناسا جانبوا مجلسه. جاء صعاليك المقهى النحيلو المعاصم، الذين يعملون يومهم وينفقون قروشهم على الورق. جاء الرجال الآخرون الذين يملكون السواقي على رءوس حقولهم ويملكون مخازن الحبوب تثقل حيطان دورهم. جاء حفاظ القرآن دون أن يأخذوا للمناسبة أهبة من جلباب أو عمامة. جاءوا فرادى ذاهلين لا ينظمهم موكب، ولا يوحد خطوهم وقار.

الناس جميعًا. احتشاد صامت ثقيل الوطء. يقفون تحت الشجرة في الباحة قدام سلم شرفة الدوار. يجلسون على الأرض بجوار الحيطان. الصمت رابض جهم. الوجوه يوحدها ملمح دهشة مرتاعة وعزم مجتمع ساخط. عم بكر قائم منتصب لا يريم. عكر الجبين مشرع الوجه. عيناه مطموستان فيهما كآبة التماثيل وصلادتها. شفتاه تلتويان دون صوت، كأنما هو يؤذن بالغضب في هذا الضحى أذانا أخرس تدركه القلوب وتنبض به وتجاوبه.

ـ هذا هو حال الدنيا..!

ـ سعيكم مشكور..!

يصافح الناس. ينظرون. ليس من أجلنا جاءوا، ليس من أجل واجب العزاء. ثمة شيء انكسر. سؤال فادح غابت إجابته، وكلما ازداد التحديق في صفاء الضحى ازداد العماء.

تنادى حفاظ القرآن من وسط الجمع دون صوت. قاموا. حفزتهم رغبة جارفة في مغالبة العماء بالترتيل. رغبة اجتاحت الحشد متنقلة بين القلوب المتراصة قلبا لصق قلب. مضى الحافظون يصعدون سلم الشرفة قليلين فاقدي الهندام ملهوجين، يتدافعون إلى الغرفة الداخلية المعتمة. ومن هناك بدأت تعلو حمحمة قلوبهم:

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾

تكرار متواصل راكض يخب به صوت الحفاظ، يصل إلى قلبي عبر العتامة الساجية الملونة في ردهة الدوَّار. ثم يتكاثف ويتزاحم كأنه وقع حوافر خيل الفرسان خارج من صفحات كتب السيرة. ثم يردد جمهور الناس السورة في نغم مكتوم كالزلزال يرتج له الضحى المشمس المترب الأنفاس. ما هذه قراءة الفقهاء الذليلة على أرواح الموتى. إنه نشيد قديم طُمِرَ في قيعان القلوب زمنا ثم هو الآن شلال هادر يكتسح الخوف والقهر.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾.

إيقاع لطم الخدود وضرب الأرض بالكعوب ومجاوبة الندابة بالصراخ في مناحة النسوان انضفر ساخنًا في جديلة صوت قراءة الرجال. ما هذا نواح ثكالى، بل غضب أكباد محروقة تهزج وجيعتها على رقصة محمومة وترفد نشيد سورة الصمد بلوعة حرى. تعتدل الموازين في قلبي. أقيم قامتي. أُخَلِّي بين قلبي وبين هزيم صدور الخلق الزافر بالهول، يطهرني وينقي من الأدران حزني. تترسل دموعي والناس ما زالت تأتي. يقبلون عليَّ:

ـ هذا هو حال الدنيا..!

ـ سعيكم مشكور..!

من أعلى الشارع يقبل الرجل طاويا قبضته على تصريح الدفن وضامًا حجره على الكفن وجارًا وراءه الحمارة منكسرة ذليلة. أصبحت القراءة والمناحة رعدًا ترتج له الأرض تحت الأقدام. الرجل يتقدم بين صفوف المعزين الواقفين أو الجالسين على جنب الحيطان مادًا يده بالورقة المطوية يكاد يسقط على ركبتيه تأثما ومذلة. تقدم العم الكبير إلى الرجل حرره من حمله. ثم صعد به في يديه سلم الشرفة. سوف يمضي إلى الغرفة في الدوار. هناك سوف يخيطون الكفن منحنين على القماش متهامسين مثل نسوة حزانى يجهزن لبوس المفارق لغيبة طويلة.

حتى إذا ما انتهى الحفاظ من خياطة الكفن أعطوه للعم. نزل به سلم الشرفة كأنما يحمله تيار القراءة العارم. توجه إلى الدار القصية في الجرن تتبعه ثلة من الرجال. رأيتهم يقتحمون الدار على النساء. تفكرت أن الجسد سوف يغسل ويطيب ثم يدرج في الكفن. انطلق من دار الميت صراخ النساء. البنات المذبوحات الوجوه بالدموع على الباب طيرن في أيديهن الطرح السوداء كطيور مرفرفة مشئومة، يشدخن القلوب بالتفجع الأليم واللوعة الكسيرة. اضطرب الجمع بالحركة. نهض الرجال واقفين أشد ما كانوا جهرًا بالقراءة. ارتجفت يد الشيخ بكر ووجهه مغبر صامد. برز من بين الناس أربعة شبان أحداث. خطفوا النعش من على الأرض واندفعوا به ناحية دار الميت، يطير عاليا على أكتافهم وهم تحته كخيزرانات طويلة طرية حتى دخلوا به الدار. وحلت لحظة ترقب انبصمت تهدجًا عميقًا على قراءة الرجال. ثم خرج النعش بالجثمان من الدار ملفوفا بالغطاء الأحمر القديم الذي بليت زخارف الكتابة عليه وتهرأت أطرافه. النساء مجنونات فزعًا وتلويحًا وصراخا. غابة الأيدي متوترة مرتجفة الأصابع متشوقة ملهوفة مائلة على النعش الذي يتحرك في جلال قدمًا.

انشق الجمع الواجف بالقراءة أمام شرفة الدوار. تباعد الناس على

الجانبين يوسعون طريقا للنعش المتقدم إليهم. حتى إذا ما صار وسطهم التأمت الضفتان. يمضي الموكب ناحية المسجد رصين الإيقاع مخليا وراءه صراخ النساء. الميت طاف على رءوس الناس. ما زال النسر الوحيد المحمر العينين المليء الجسد بالقروح. أي ثمن فادح استأدته عودته إليهم، وأي ثمن فادح استأداهم رجوعهم إليه. الموكب يمضي إلى المسجد.

هناك جرى الناس هلعين. خلعوا الأحذية وقفزوا وأصدروا تحذيرات فزعة حتى خلصوا في النهاية بجسم النعش من فتحة الباب. مشوا به على الحصر. تنادى حملة النعش نداءات مبتورة مهتاجة. على الحصر وضعوه جنب المنبر قبالة المحراب. وجدت العتامة المطمئنة التي طالما وجدتها في ردهة دوارنا. أسلمت روحي لذلك السكون النابض بصرامة الاجتماع في جوف المسجد. النعش أمام الناس قائم مغطى. انتدب من بين الصفوف فقيا حدثا عليه ثوب رث من صوف الغنم. كبَّر ناويا صلاة الجنازة على هذا الميت. انتظمت من ورائه صفوف المصلين في تكبيرات متتابعة متسرعة ملهوجة. أما الذين لم يكونوا على وضوئهم فقد بقوا متربصين ينظرون.

رفعت عيني فإذا بي أرى البيرق الكبير. قماشه الهائل مضموم على صاريه العملاق. هامته النحاسية الصدئة تكاد تلامس سقف الجامع. رائع وشامخ ذلك الأب الجليل. منذ متى لم أره حتى إنني نسيته وأفعم داء النسيان روحي باليتم. هأنذا أراه فأعود مرة أخرى ابنًا فخورًا بأبيه. سقطت الغربة والضياع واليتم وزكت روحي بإحساس رضي بالانتماء إلى نبالة قديمة. أين يكمن سر البيرق؟ أفي الهامة النحاسية التي هي قبة وهلال ونجمة خماسية؟ أم في تلك الخشبة التي هي شجرة واحدة عجيبة نبتت مأمورة وقطعت مغبوطة منذورة لتكون صاريا لبيرق قريتنا؟ أيدي حملة البيرق تحتضن الجذع المبارك حتى أصبح صقيلا، وكلما ازداد الصقال ازداد اتضاح معدن الخشب النادر الذي صنع منه الصاري المقام عليه حمل القماش.

لا تسألني عن القماش فإنني لم أره إلا مضمومًا على الصاري. ولا تسألني عن الحكايات العجيبة، إنني قد أكون سمعتها وأنا جالس على الأرض مع العيال في الكتاب، أو قد أكون سمعتها من الرجال في الدوَّار، أو من واحد من رفاق اللعب منتفخ البطن من مرض الطحال حتى امتاز بالسكينة والعذوبة وكسب توقير العيال، يحكي لهم ويسمعون والمساء سحري القمر. يقول إن من لمس قماش البيرق ثم مسح بيديه على وجهه وصدره، يبرأ من العلل ولا يطوله الشر ولا يضيق عليه في الرزق. فإذا ما جمَّدت الدهشة القلوب وملامح الوجوه، استدرك العليل محذرًا من أن يلمس قماش البيرق واحد وهو نجس أو مغلول الصدر أو سيئ القصد أو مضمر شرًا، إنه إذن تكسر ظهره لعنة البيرق. ضيعت عمري بين

اللهفة على بركة البيرق والخوف من لعنته.

منذ متى لم أره؟ لا أرى! كل ما أذكره! انسلابي إزاء الكيان الشامخ يتخطر في موكب حاشد قد يكون جنازة أو زفة، لكن البيرق كان على أي حال مضموم القماش. لا تسألني عن الحكايات العجيبة، فقد نسيت من قال لي إن قماش البيرق لا تحل إضمامته ويرف جناحه الهائل في الهواء إلا إذا زلزل الدنيا حادث جسيم. ومن طيات القماش المضموم رأيت حروف كلمات النقوش لم تسر إليَّ بمعنى. وأنا لزمت الأدب ولم أشغف بمعرفة ما كتب. فقط حدس القلب أنها كلمات عوالم، بين حروفها يضطرب البحر ويمتد الزرع والقفر وترتفع السموات العلى، وترن أعذب الأصوات بأحسن المواعظ وأبلغ الحكايات. حدس القلب أن نقوش البيرق هي علمنا وهو قليل، وأنها علمنا وهو كثير يحيط بسر الموت والحياة ونقلب الناس بين البدء والختام.

لم أعرف حينما رأيت البيرق للمرة الأخيرة ولم أعرف هذه المرة من أين خرج. ولم أعرف في المرتين إلى أين يئوب. ولقد وطدت نفسي على ألا أسأل، ورجوت ألا يحكى لي. كذلك وجدت في نفسي صدودًا عن التأريخ له، متى وكيف ولماذا ومن الذي صنع ومن الذي رصد المال والجهد. قنعت بيقين يشرق في روحي كالصبح بأن البيرق خرج من صفحات الكتب التي خرجنا منها. من يوم أن كان بيرقنا، يخرج لنا في فرحنا وفي حزننا، يتقدم مواكبنا ويعقد عزمنا. وها هو منتصب شامخ يلقي بظله غير المرئي على جثمان عمي إبراهيم المسجى في نعشه أمام صفوف المصلين.

بعد الصلاة أحاط الناس بالنعش حملوه. تهادى البيرق الكبير سائرا. مال حتى يخرج من باب المسجد ومن ورائه الميت طاف على رءوس الخلق. حمل خادم المسجد حزمة من رايات حمراء في عصوات من الخشب الأبيض. وقف على باب المسجد محتقن الوجه طائر الطاقية مبهدل الثياب من تزاحم الخلق عليه. ناول كل يد راية. تخاطفت الرايات الأيدي وتدفق الناس مندفعين يلحقون بقطار الجنازة.

ازدحم الشارع بالموكب الجليل. عم بكر وعمي الكبير على جانبي البيرق، كأنما يربت على رأسيهما مباركا بكفين غير مرئيين، يتقدمان الجنازة مغمضي العيون وعلى وجهيهما عزم مكفهر أغبر قرير. الناس متلاصقون كتفا لكتف، في أيديهم الرايات الحمراء يضعون القوائم الخشبية إلى الصدور ولا ينظر أحد للآخر، كلهم متعلقو الأبصار بالبيرق، متوحدو الملامح بجهامة مروعة. وقع الأقدام ولهاث الأنفاس نغم مزلزل.

قبالة المقهى وقف البيرق، ثم مال مومئا. اضطرب الجمع وتداخل ليقف. ها هنا كان قلب الميت يهوي. ما زال في قلب الصمت صوت اضطرابه واختلاطه بصعاليك المقهى. ما زالت ترن ضحكاته المجلجلة وزرايته بكل

شيء. اجتاحت جمع الناس صرخة مكتومة. بكيت فيضا ساخنًا متدفقًا. ما ظننت أن القلب البشري يمكن أن يختزن هذا النهر من الدموع.

مضى الموكب الهائل وئيدًا يحبس في داخله طاقة هائلة من خفق القلوب والأنفاس وحفيف الأقدام. ثم ما لبثت هذه الطاقة أن تحولت إلى ترتيل. ثم علت القراءة وتميز اللحن ينتظم كل القلوب. الدور على الجانبين، ما يسقط رجل في حفرة باب حتى يعود يقفز ملتصقًا بالجمع السائر. والنساء على الجانبين مقروحات الخدود ملوحات بالمناديل السود صارخات معولات يصنع تفجعهن إطارا ساخنًا ثرًا لقراءة المشيعين.

خلص الموكب من القرية إلى أول السكة الصاعدة إلى القبور. مال البيرق ناحية البيوت في إطلالة وداع أخيرة. امتد الجمع على السكة يعلو صدره ويهبط مع كلمات القراءة. هوت القرية منحدرة في الخلف، والآفاق غارت مبتعدة حول آماد شاسعة في مركزها قطرة الموكب صغيرة. أقدام القارئين دقت على قلب سكة المقبرة في إيقاع بدأ يتسرب إليه الوهن من الذهول أمام شسوع الدنيا وغلبة الموت وقلة حيلة الإنسان.

وفجأة علا الترتيل من الناس جميعًا في آن وفي إيقاع واحد متدفق مجتاح. نغم غريب لم تجربه أبدًا أذان هذا النهار المزدحم بالشمس والغبار والزرع والشجر. نغم يحرث في قلب العماء بألف سلاح محراث:

مولاي صل وسلم دائمًا أبدًا

على حبيبك خير الخلق كلهم

كانت هذه الكلمات حلية رقيقة على حيطان مسجد الأباصيري بالإسكندرية، يسقط عليها الضوء الملون بألوان زجاج النوافذ. كانت عذابا باكيا منغمًا في أماسي الحضرة في دوارنا في الغرفة المضوأة بالفانوس، يقرؤها الدراويش مكتوبة بخط النسخ المنمق في صحائف صفراء وهم مبحوحو الصدور متهدجو الأصوات. كانت هذه الكلمات سخرية متاحة لعمي إبراهيم، يرددها ويهز رأسه على إيقاعها هازئا إذا مر به درويش من الدراويش. الآن هي لحن يرج النهار ويحاجج العماء، وأنا التصقت بالجمع أجأر بالغناء ووجهي مغسول بالدموع.

وإذا بقماش البيرق انطلق طائرًا. انفرد راية حمراء هائلة رثة متربة القماش مؤطرة بشراسف خضر حافلة صفحتاها بنقوش كتابة بحروف من قماش أبيض. القماش يصفق وجه الريح ويحمحم بجناح عملاق على رأس الميت المسجى في نعشه المحمول على الأعناق. أصبحت القراءة جنونا، ما تدري أصنعتها المعجزة أم هي صنعت المعجزة. لكنني لم أر الناس أبدًا أقوى مما أراهم الآن. وأنا لم أكن أبدًا أحد معرفة ولا أصفى روحًا مما أنا الآن جلجلت في داخلي كلمات الميت المحمول:

«من يمت إنما يذبح ذبحا، من يمت إنما يفنى ويندثر ويصير ترابًا»

الصراخ في داخلي والعزم في قبضتي والراية تصفق وجه الريح بحول الموكب يمضي ناحية المقبرة بلا خوف.

عند القبور اندفع الرجال هاجمين. تقافزوا فوق المصاطب وحجوم القبور يتسندون على قوائم الرايات ويرتكنون على الشواهد. صنعوا حلقة وثيقة من الأجساد حول الحفرة المفتوحة في انتظار الجثة. والبيرق انتصب شامخا يلقي بظله على القبر حُمل الجثمان من النعش على أكف الرجال، يسير ماضيًا إلى اللحد دون أن يضطرب مساره بين صفين من الوجوه تهوي بالقبل على نتوء الرأس تحت الكفن. أتصور وجهه تحت الحرير الأخضر وقد اكتسى هدوءًا رائقًا. ها هو ذا للمرة الأولى تبرد نار قلبه، يصالح العالم ويخلد للصمت والناس يلثمونه في حب غير مشوب بالخوف.

استقر الميت في قبره. أهيل التراب حتى ردمت الحفرة. دار الشيخ بكر حول المصطبة، جلس القرفصاء مسندًا جبينه على جدارها. تصورت أن جبهته تلامس جبهة الميت الممدد تحت التراب ينصت إلى الصوت العميق يلقنه حجته. أسمعه لأول مرة هذا الصباح طلقًا نافذًا. تحلق الناس حول القبر يحدقون. كأنما رأيت الميت في قاع الحفرة عند أقدامهم جهم الوجه متفكرًا. وصوت عم بكر يتدفق يواصل كلامه حارًا خالصًا كأنما يحادث حيًا من الأحياء.

أوشكت أن أرى إبراهيم يفتح عينيه ينظر إلى محدثه منصتًا مبهوتًا. وعم بكر أصبح صوته منذرًا مجلجلاً:

فإذا جاءاك

وأجلساك وسألاك...

فقل لهما...

غبتُ عما حولي. وحينما أفقت كان عم بكر قد قام واقفا والناس حوله ينظرون متوترين ملهوفين. سألهم بصوت جليل:

ـ ما تشهدون...؟

وأتاه ردهم هزيما رج جنبات الدنيا.

ـ كان صالحًا.

برلين الغربية ١٨/٣/١٩٨٢

حكايات حول حادث صغير

الفتاة العمياء

الجو مثقل بكآبة غريبة، والشمس تؤذن بالمغيب، والعمياء الصغيرة متربعة بجوار السور على رصيف الأسفلت، يداها مبسوطتان على وركيها، ذابلتان سمراوان، لا عيون، حفرتان عميقتان متآكلتا الرموش، فمها واسع وشفتاها ممطوطتان مليئتان بالتوتر.

ترتل القرآن كفونوغراف قديم، كل انتباهها مركز في أذنيها وهي متصلة بأسفلت الرصيف اتصالا وثيقا، تتربع عليه وجسدها المرهف يلتقط بسرعة فائقة كل نأمة يحبل بها باطن الشارع وينقلها بسرعة فائقة إلى أذنيها فيتوتر جسدها كله وتمتلئ بالترقب.

فلربما في هذه الصفحات يختل نظام هذه الخطوات قليلا ثم تتلكآن قبالتها هنيهة ثم يسقط قرش في حجرها. هنا فقط تتحرك يدها لتلتقط القرش وتقذف به في جيبها ثم تنتظم قراءتها مرة أخرى...

وهكذا، وقت ممطوط بلا نهاية، تقطعه لحظات الترقب تلك التي لا تلد القروش دائمًا بل غالبًا ما تمضي الخطوات مصممة، غير مبالية وتموت هذه اللحظات دون أن تعقب.

والظلام الذي يلف متسولتنا الصغيرة ساخن خانق، التصق وركاها وردفها بالرصيف التصاقا ملهوفا، وأرهفت أذنيها وتطاول رأسها المفقوء العينين واضطربت، كان ثمة خطو يخفق في أحشاء الأسفلت واهنا مترددا لكنه يكبر مع اللحظات... أكيدا، واهنا يسير هذا الخطو لكنه وهن منتظم لا يشوبه اضطراب... يمر بها متجاوزا إياها، وهكذا ماتت اللحظة عقيما من غير عقب.

لكن في ذلك الظلام كان ثمة شيء يموت، كلمات مختنقة ولهثات مريضة، ليس الخطو الذي يحبل به الرصيف هو الذي يعنيها هذه المرة، إنما تلك الكلمات المختلطة التي يحملها الهواء إلى أذنيها يا له من عالم مبهم، الأشياء تتحرك في الظلام دون أن تتخذ شكلا ما، تحدث أصواتا لكنها لا ترى.

ـ أنا هموت.

ـ الشر بعيد يا خويا.

صوت رجل لاهث مقطوع النفس، حزين كعديد الندابة، والمرأة، لعلها زوجته أو أخته.. هيه.. الناس يموتون كل يوم، لكن... أرهفت أذنيها لكنها فشلت في التقاط بقايا الحديث، غرق في ضجيج الشارع، ازدادت شفتاها توترا وقطبت جبينها قليلا...

ثم مرة أخرى واصلت ترتيل القرآن كفونوغراف قديم وهي تهز جسدها هزا وتحكم اتصالها بأسفلت الرصيف لتلتقط الخطوات القادمة وتتصيد اللحظات المليئة بالترقب والتي قد تلد في حجرها قرشا.

من عدلي إلى الإسماعيلية

المسافة قصيرة كعقلة البنصر، فهو قد رمق الرجل الأصلع الجالس خلف البنك العالي بلهفة ونوع من الخوف، والرجل أشار له على الكابينة التي يتكلم فيها فأغلقها بإحكام ثم رفع المسماع الأسود وبمجرد وضعه على أذنه جاءه الصوت من الإسماعيلية.

ـ ألوه.

وارتعد من المفاجأة.. لكنه رد بسرعة.

ـ أخوك مات.

وتفكر كيف تمت المسألة بهذه السهولة، انتابه ارتياح، كان يتصور نفسه سيصعد جبلا عاليا.

لكن في الإسماعيلية كان التليفون الأسود يتقافز على المنضدة الصغيرة كطفل ملسوع، جرى الرجل والتقط السماعة فهدأ الجهاز في مكانه.

ـ ألوه.

ـ أخوك مات.

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.

وضع السماعة في مكانها وسمع «تكة» صغيرة ثم غرق كل شيء في الصمت والعتمة، الكراسي الكبيرة والنجفة، المصباح الصغير الساهر يلقي ضوءا شاحبا على رءوس الأشياء، ورجع إلى غرفة نومه، شريط باهت من الضوء يشق السرير، امرأته تحكم منامتها

على نفسها حتى لا يتعرى من جسدها شيء، أغلق الحجرة ثم عاد إلى الصالة، جلس على كرسي كبير، كان من المفروض أن يدخن الآن سيجارة لكنه ممتنع عن التدخين من سنين طويلة، أولاده يغطون في نوم عميق، صوتهم يأتيه من غرفتهم هو وحده الذي أحس بعاصفة الضجيج تجتاح الشقة في الليل ثم «تكة» صغيرة ويغرق كل شيء في الصمت من جديد.

عليه أن يسافر مبكرا من صباح الغد.. أفلا ينام قليلا...؟ لقد مات، هكذا ختم الموت هذه الحكاية، غريب، الموت دائما ختام غريب لكل حياة، يصيبنا بالحيرة والخوف، ترى هل يموت هو الآخر؟ حقيقة باردة كالثلج، ظلال حالكة السوداء وبقع شاحبة من الضوء واقعة على السجادة، الرسوم تتلوى والورود تتخذ أشكالا غريبة ترى هل نجح الموت في دفن تلك الابتسامة والنظرة المستهجنة الرافضة، ظلت هذه النظرة مغروسة في أيام حياتهما كلها، لكنه الآن مات، وها هي العتمة تغرق كل شيء والكراسي الكبيرة تستطيل كشواهد القبور، وهو وحيد هامد.

يجب أن ينام فإن عليه أن يسافر مبكرا في الصباح، وهناك سيكون هادئا مكتسي الوجه بالأسى، لن يبكي، فهذا لا يليق، لكن ربما سكب دمعة في بعض المواقع، على أي حال سيكون صوته عميقا متهدجا قليلا، وسيأمر كثيرا من المحيطين به، وسوف تعلق أحبال المصابيح وترص الكراسي وينطلق صوت المقرئ، وسيدفع تكاليف كل شيء، هو لهذه المواقف وغيرها، من لها سواه، من يوم أن خلقه الله، وحينما يوغل المساء سيكون جالسا في ركن من أركان المكان ذابل العينين ثاكلا حزينا، وهو هناك في القبر، ربما تكون عيناه في ذات اللحظة تبرقان بتلك النظرة الرافضة المستهجنة وتلتوي شفتاه بتلك الابتسامة الهازئة، ذلك الإنسان الغريب الذي طعن كل لحظات انتصاره بتلك النظرة وتلك الابتسامة تماما مثل ذلك اليوم، حينما جلس الجميع على الكنبات المرصوصة إلى جوار الحيطان في بيت الأسرة الكبيرة، وهو يحكي كيف توسط له عند المدير وكيف حصل له على عمل مناسب رغم أنه فشل في دراسته ولا يملك شهادة ما. ثم كيف سرق مخازن الشركة وباع المسروقات وأنفق ثمنها على ملاهيه وأصحابه السيئين. وبالرغم من ذلك لم يقدم للمحاكمة، فقط فصل من عمله... إكراما لخاطره هو..

كان يحكي وله كل العيون وكل القلوب، لكن أخاه كان هناك يرمقه رافضا مستهجنا...

ذلك الإنسان نصف المجنون الذي بدد أيام حياته، لكن هو اشترى كثيرا من الكراسي ذات المساند، ووعاء للطبخ يصفر حينما ينضج الطعام وزوجته تمتلئ عيونها بالرعب حينما ينظر إليها وأولاده يفوزون بالجوائز في الفصول.

لكن يبدو أنه لن يصيب شيئا من النوم تلك الليلة، مع أن سفرة الصباح طويلة شاقة، رأسه جاف ومخه يقظ بشكل يكاد يصل به إلى الجنون، ثمة خطأ بشكل أو بآخر، لكن أين..؟ ولماذا..؟ يجب أن ينام ليسافر في الصباح، يجب أن ينام.

في تلك الفيلا البعيدة

بالرغم من أن الجو لم يكن باردا إلا أنه كان معتادا على أن يحكم اللحاف حوله حتى أكتافه، وبالرغم من أن الفراش كان وثيرا إلا أنه لم يكن ينام إلا لماما، وكان يقضي الساعات الطويلة يتأمل مصراعي الباب المغلقين وفي تلك اللحظة دخلت عليه زوجته.

ـ الكاتب مات.

لم يدرك ماذا قالت، ظل يتأمل وجهها دون أن يكون في رأسه فكرة واحدة ثم بدأ تساؤل صغير يزحف على عقله، لماذا تضع نظارتها الطبية في هذا الوقت من الليل، وشغله هذا التساؤل بقوة، ثم ثبت له أنه لا يعرف للآن لماذا صنعت نظارات طبية في حين أنها لا تعرف القراءة والكتابة.

ـ الصبح تروح تأخذ بخاطر مراته... لله.

ثم خرجت وأغلقت الباب وراءها، وتأمل مصراعي الباب وهما يتضامان بإحكام.. مساحة بيضاء لا توحي بشيء.. وابتسم حينما رأى وجه الكاتب، في تلك الغرفة وسط أكداس صناديق الزجاجات الفارغة والمليئة، وذلك المكتب الصغير وصفوف الدفاتر السوداء الأغلفة. تلك الدفاتر تثير سخطه دائما، الصفحات والخانات والأرقام والكلمات. أسرار مبهمة لم يستطع طوال حياته أن ينتصر عليها. صعد من الحضيض إلى القمة. دار بصندوق العدة في الشوارع يصلح السخانات والثلاجات. جلس القرفصاء أمام أبواب الشقق. نظرت إليه مئات العيون المحولة نظرات شزراء. ثم امتلك لنفسه فيلا وسيارات ومصانع لكنه لم يستطع أن ينتصر على سر الكتابة. ذلك الكاتب الصغير كان يجلس على مكتبه في الحجرة المكدسة بصناديق الزجاجات الفارغة والمليئة ويمد يده وتحتضن أصابعه

الطويلة الرشيقة الدفتر الأسود الغلاف في حنان وتفاهم ويفتحٍ الصفحات. وتنتشر أمام عينيه الخانات والأرقام والكلمات صفوفًا من الوجوه الدقيقة الممسوخة تنظر إليك ببراءة وهي تخفي المؤامرات والسرقة.

ـ آدي دفتر الصادر يا حج... ميت صندوق برتقان للمعلم عرفة..

إنه يدرك سرها ويلعب بي ذلك الكاهن. جهد خارق فوق طاقة البشر سنين وسنين من العمل المتواصل بلا هوادة وها هو ذا يقف صغيرا زريا كحذاء قديم أمام ذلك الكاتب النبيل الجبهة وخصلات من شعره الفاحم تنسدل عليها في جمال.

ـ اطلع من مصنعي...

كان الصوت يرن في داخله وتهزه الكلمات غير المنطوقة بعنف تحت اللحاف.

ـ اطلع من مصنعي...

ـ ليه يا حج؟..

ـ انت كداب.. ودفاترك كدابه.

ـ وديها للمحاسب.

ـ انت تضحك عالمحاسب وعالمحامي وعلى وكيل النيابة وعلى الدنيا بحالها.

ـ أقول إيه أنا في الكلام ده؟

ـ ما تقولشي حاجة.. اطلع من مصنعي.. روح اشتكيني.. في أجدع محكمة، اشتكيني.. أشمع المصنع.. بس مش هتعتبه تاني.

ـ مش شاكيك يا حاج رزق عيالي على اللّٰه.

ومشى خارجا وذيل جلبابه يخفق على كعبي حذائه المطليين باعتناء. هكذا خرج... وبقى مصراعا باب غرفة النوم في تلك الفيلا البعيدة أبيضين من ورائه ومشى الحاج في أرجاء المصنع وداخله ـ تحت اللحاف ـ يهتز بالانتصار وهو يتأمل وجوه العمال المذهولة المتخبطة بالحيرة بعد أن أبعد رئيسهم، بعد أن قطع الرأس المدبر،

الآن فقدوا تناغمهم القديم، الآن يتحركون متخبطين بلا نظام لم يعد الإلهام يصدر لهم من حجرة المخزن.

كان يقلب صندوقا ويجلس قبالته طوال النهار يرقبه والعمال يدخلون ويخرجون كأسراب النمل. لا يتكلمون، وهو جالس على مكتبه لا تصدر منه نأمة، ولكن ثمة لغة غير منطوقة، ثمة قرون استشعار غير مرئية، والغيظ يأكل أحشاءه كديدان قارضة سامة.

ـ الإيراد صلاة النبي حلو أوي النهارده يا حاج.

ترى ماذا يعني هذا..؟ ماذا يدبر ضده.. يتمنى لو يهب واقفا ويجري في كل اتجاه.. ويقيم حراسا على الأبواب.. ويضبط السرقة، ويطعنه بزجاجة مكسورة أو ينهش فيه بأسنانه، لكنه في غمرة غضبه يهزه الانفعال من داخله ويبقى خارجه راكدا... هذا الكيان الدقيق الزري.

ـ سهرتو فين إمبارح.

ـ عند حميدو كان مطاهر ابنه.. عقبال عندك في أولاد أولادك.

ـ والقعدة بقى... بتحكم...

ـ آهي بتحكم يا حاج، المهم نكون الصبح في شغلنا..

جاءته الأخبار، كانت عزومة هائلة، كل بضعة أيام عزومة، وفي آخر الليل وزع على كل واحد نصيبه من السرقة.. أولاد الأفاعي..

ـ اخرج من مصنعي...

ومضى والمعطف الكاكي يلامس أكتافه الدقيقة وفصل الحاج باقي العصابة والآن يمتلك المصنع لنفسه تماما..

وضع مكان الكاتب ولدا مفزوع العينين، والدفاتر تهرأت أغلفتها وتثنت أطراف صحائفها والمحاسبون يشكون من الأخطاء في الحساب، هؤلاء الحمقى هذا الولد لا يسرق أبدًا كل شيء يسقمه، المحاسب وذلك الولد المفزوع دائما يود لو ينتزعه من مكانه ويقذف به خارجا.

لقد مات الكاتب، كان يسرقني، وأنا أسرق الخواجة أريستون.. لكنني لا أهين قروشي أبدا.. وهو يسحقها بحذائه.

ـ يابني كون نفسك... للزمن.

يضحك ويظهر الاستخفاف على أطراف شفتيه.

ـ خلي بكره على رب بكره يا حاج.

إنه يحتقر الحاج بذكائه الخارق وجبينه النبيل ـ ذلك الكلب الذي لا يفهم لماذا تبقى ثمة عينان تنظران إليه هكذا..؟ ماذا يفعل ليخرس كل العيون..؟

إنه بليد يدرك الأشياء ببطء شديد لكن هناك بضعة أشياء كان يجب أن يدركها ذلك الكاتب ـ الحاج يؤمن بها بقوة ـ إنها حياته وهو من غيرها لا شيء، لكنه لا يفهم.... لم يفهم أبدًا.

عند بائع الأكفان

مشيا هما الاثنان، الأول طويل والآخر أقصر منه قليلا، الأول يبدو حكيما رائق الفهم، والثاني قلق متوتر، فالمسائل لا تعطي نفسها بسهولة بل غالبا ما يكون العالم غير مفهوم.

مشيا هما الاثنان، انتهيا من الطريق المرصوف، وبدآ يوغلان في الطريق المترب، انتهيا إلى بيت أصفر كئيب تتهدل شرفته على الواجهة في حزن وأمامه غرفة التليفون، تليفون له كرنك، خفراء ذوو بنادق ووجوه ذابلة، قرية لمت أسمالها على نفسها، فالقاهرة زحفت عليها وأحاطت بها.

دخلا وجلسا على أريكة مفروشة بالحصير، كان ثمة بضعة وجوه، عامل التليفون عاكف على أوراقه، هنا يكتبون بانصراف تام وبقداسة، كان رجل ينعب:

ـ البنت أنا لسه مقيدها في دفتر المواليد مافيش يومين.

رفع عامل التليفون وجها يتهدل عليه جلد زيتوني كجلباب قديم.

ـ البطاقة بتاع المتوفى.

ومد الرجل الطويل يده بالبطاقة، أفرغ الكاتب بعض بياناتها في أوراقه وأعادها، نظر فيها الرجل الطويل وهمس لرفيقه:

ـ سنه ٤٦ سنة.

ـ يا حول الله.

وتدخل الكاتب دون أن يرفع وجهه عن الورق.

ـ لسه مقيدين عروسة سن ١٨ سنة.. كان فاضل لها سنة وتاخد الشهادة.

وضع الخفير بندقيته بجوار الحائط، ركن الجوزة بجوارها، جلبابه لا يزال رطبا من طل الليل، وهو نحيل كعنزة مريضة، سارا مرة أخرى في الطريق المترب، ضاق واكتنفته أكوام السباخ قال الرجل الأقصر قليلا:

ـ حاجة مقرفة.

ورد الرجل الأطول قليلا:

ـ مصيرنا كده.. يوم من الأيام نترمي في حفرة أنتن من دي.

ووجدا الطريق المرصوف مرة أخرى، سار بهما، بدأت جوانبه تنشط بالحياة ثم تكتظ، على الجانبين الحوانيت وعربات اليد، أكداس البضائع والفواكه، أنواع من الطعام والناس، عشرات اللافتات يعلو صياحها على صيحات الباعة ولغط الناس... لكن اللافتة على دكان بائع الأكفان باهتة هامسة، نظرا إليها معا، ربما في نفس اللحظة، ثم انحرفا ومشيا تجاه الدكان ثقيلي الخطى.

صعدا إلى الرصيف، الدكان عميق معتم، يخالط العتمة أريج زيتي عطري قديم، كان الرجل جالسا على كرسي في قاع الدكان.

ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وانتصب واقفا، عملاق خرافي الحجم خرج من صفحات ألف ليلة وليلة، الوجه الهائل الملامح يطل على الرجلين في تساؤل:

ـ عاوزين كفن.. شرعي.

وأغمض العملاق جفنيه واكتسى وجهه سكينة جليلة، ورفع يده الهائلة ناشرا السلام على الوجهين المتوترين.

وسحبا كرسيين، قرصين صغيرين كلٌّ على أربع قوائم هزيلة، جلسا في حذر بالغ، تشبثا بالبنك أمامهما ليدعما جلستهما، وخطا الرجل

وقورا في أرجاء الدكان، وتنحيا بالكراسي ليفسحا له الطريق، وقف على عتبة الدكان مديرا لهما ظهره، واقتربا أكثر من البنك، الرفوف صاعدة إلى السقف وفي الخانات توجد أنواع مختلفة من أثواب القماش، عاد الرجل ومعه صبي المقهى القريب، الصبي عجلان يخبط بالملعقة على الصينية النحاسية، مضى يحمل رغبات الشاربين.

أطل بائع الأكفان عليهما، إنه ملتح معمم بشال أبيض يبقى منه عدبة تتدلى على قفاه.

ـ حضراتكم عاوزين الكفن الشرعي.... ولا هتتبحبحوا شويه.

ـ السنة يا حاج... انت أدرى طبعا... في حدود المعقول..

جاء تساؤله عميقا حاسما.

ـ انتم متبرعين بشرا الكفن...؟

ـ لا.. لا.. بس أولاده أولى.

ـ الله مولى من لا مولى له.

وبدأ ينزل الأثواب من الخانات، يفردها على البنك ويقص القماش، تلك سترة... ذلك قميص، ومزق القماش من حيث تدخل الرأس، والآن ثلاثة أدراج من البفتة والكتان، ثم درج شامل من الشاهي.

طوى القماش ووضعه تحت إبطه، وتحركت الكراسي الصغيرة والأجساد المتوترة تفسح له الطريق، عاد ومعه رجل هزيل تتحرك عيناه بسرعة ويفرك يديه بإلحاح.

ـ الأسطى خياط... جارنا.. مسيحي.. مش من ملتنا، شافني بدور على حد يخيط الكفن قال أنا أعمله.. فهمته على شرعنا وطريقنا هيخيطه تبرع.. من غير فلوس.

وانصرف الأسطى حاملا القماش، وتابع الحاج.

ـ ولد طيب.. لهم الدنيا.. ومالهم في الآخرة من نصيب.. كان وجهه حاقدا رهيبا.

فجأة انصرف بكليته إلى رجل صغير يقف متلجلجا على عتبة الدكان

شفتاه ترتعشان بكلمات مبهمة، وصرخ فيه مسلطا عليه وجهه الرهيب مفعما بالقسوة والغضب.

ـ عاوز إيه.

ـ كفن... رجل مسكين ميت.... جارنا.

ـ كذاب.

ـ والله يا حاج.

ـ كذاب.. فين تصريح الدفن.

ـ أجيبه.

ـ هاته.. أديك كفن.. هاته.. إن كان مزور هعرفه.. يا كلاب يا حراميه.

انطلق الرجل يجري وثورة بائع الأكفان تطارده.

ـ بيجيبوا تصاريح مزورة عشان ياخدوا أكفان.. بس أنا بعرفها..

ثم بدأ وجهه يغيب وراء سحابة من السكينة.

ـ مادام التصريح مضبوط ياخد كفن.

ثم أصبح هادئا رقيقا خجولا كطفل مذنب.

ـ الحسنة اللي تيجي من ناس زي حضراتكم.. ما تخشش بيتي. إحنا غلابة.. مالناش في نفسنا حاجة.. ربك يجيب من هنا يحط هنا.....

وجاء الكفن، فرد مخيطا على البنك.. هكذا يدرج فيه الميت... ثم يطوى.

وجوه في الزحام

جلس الولد أمام عجلة القيادة كالدجاجة المسمنة، منتفخ الأوداج متجهما وجلست أمه بجواره، تحرف وجهها ملليمترات لليمين ثم تعود وتحرفه ملليمترات للشمال، وتساؤل يطن في أذنها أي الأوضاع أكثر ملاءمة..!

أما الأب فكان جالسا في المقعد الخلفي، رأى وجهه في مرآة

السائق فضحك، لم يكن الضحك ملائما لكنه ضحك.

ثبت الابن بصره على بقعة من الأسفلت أمامه، تلك البقعة الطائرة، ومقدمة السيارة طافية على ليونة الطريق، قرر الابن بشكل حاسم أن ذلك التصرف لم يكن لائقا، استعرض الموقف بكل دقائقه، والحوار، النقاط التي استند إليها كل من الطرفين، صر على أسنانه وأحكم يديه على عجلة القيادة، سينتهي من ذلك العزاء على وجه السرعة ثم يعود، وفي المساء سوف يعلنه بوقاره.. لن يتزوج ابنته!!

وتساءلت الأم: ترى من سيكون هناك.. هذا.. وتلك.. كلهم سيرون العربة الجديدة، هذا أحسن ما عمل في حياته، طول عمره نصاب سافل كاذب، لم يعدم وسيلة لابتزاز مالها، بل كلهم لم يتمنوا لها خيرا أبدا، كلهم سفلة أدنياء، كادت تبكي، لكنها تحسست العربة بقوة وأعادت دموعها إلى مآقيها، ولفتت نظر ابنها إلى أنه مسرع أكثر من اللازم، ثم ضحكت.

وضحك الأب لهذه المرآة اللعينة مرآة العربة، حوقل، لكن الضحك يغلبه، المرحوم كان ابن حظ، الضحك يملأ بطنه، المرحوم كان نصابا عالميا، لم يصدق قط إلا في الشهادتين، وبعد ذلك كل كلامه كذب، والجنيه وراء عينيه، ينفقه في قعدة، ها هو قد مات ذلك المتلاف الخائب، قاتل الله تلك المرأة.

* * *

أكداس الناس تضغطه من كل ناحية، تطاول برأسه إلى أعلى ليتنفس لكن الهواء في سقف العربة ساخن، والشنطة في يده ثقيلة، تذهب وتجيء مع كتلة البشر المتماوجة وتجذب يده تكاد تقلعها من كتفه، يقف على قدم واحدة والأخرى معلقة يجوس بها باحثا عن مكان يريحها عليه، لكن الأرض كلها أحذية متراصة، وحيثما حارت عيناه تصدمان بعيون منذرة بالثورة، اكتسحه إحساس عارم بالقرف، تدلت رابطة عنقه السوداء، فقدت احتضانها الحميم لياقة قميصه، وتهدلت ملامح وجهه، تندى جبينه بالعرق والتوت شفتاه بالغضب المكظوم، لعن الحماقات والطقوس التي تحيط بالموت، وجلوس الناس كالدمى المضحكة ينصتون إلى مقرئ القرآن لا يستمعون إليه، حماقات مقرفة تأتي بالناس من أقاصي الأرض ليمثلوا أدوارا هزلية في لعبة لا يعرفون من مقترحها.

ثم أحس بتربيت على ذراعه، وتملص في الزحام كدودة تتلوى في طين ساخن، ثم لمح رجلا يقدم له مكانه، ذابت قطرة السكينة

وانتشرت في روحه كلها، أصعد تنهيدة عميقة وهو يلقي بجسده كله على المقعد وفي وجه أزواج العيون المسلطة عليه في حسد وغضب أشرع وجها مكتسيا بالحداد، وأحكم رباط عنقه الأسود، وذابت عيونه بنوع من الأسى مفتعل، ثم بدأ يعزل نفسه ناظرا من الشباك غارقا في تيار المارة والزحام والواجهات واللافتات، الأشياء تتخذ أشكالا غريبة وتوحي بأفكار مضحكة، أليست حياتنا هذه شيء يصعب فهمه، بل إنها لتصيب الإنسان بالدوار.

* * *

كان الترام خاليا، ذلك الترام المتهالك الوئيد، وكان الكمساري رجلا عجوزا طيب الوجه، ترنح مع الاهتزاز، ثم وقف أمامه وعيونه مبتسمة مجهدة أعطاه القرش، وعلى مهل قطع الكمساري التذكرة وأعطاها له، ثم تلكأ قليلا، كأنما يعز عليه أن تمضي «المناسبة» دون أن يتبادلا حديثا ما ـ هذان العجوزان ـ لكنه مشى في النهاية يترنح وينشر خبطات هينة بقلمه الحديد.

صوت العجلات في القضبان والعربة تميل مغيرة مسارها، ذلك الصرير المعدني المتطاول، ثم أعطى السائق للعربة أقصى طاقتها فانطلقت طفلة فرحة يهتز جسدها وتصدر أحشاؤها أزيزا منغما طروبا.

وأغمض الرجل عينيه، غاب، أشياء من الزمن القديم، لم تكن الطرقات مزدحمة هكذا، كانت عربات الترام تسير وسط الشارع تماما، وزمارة الكمساري تخلق فيها الحياة وتطلقها على القضبان، لكن الشوارع الآن مزدحمة خانقة... ياه عربات من كل شكل ولون، أنت لا تكاد ترى الأسفلت، وجوه في كل شبر، وجوه... وجوه.... وجوه... متوترة عدائية، يا للعزلة، تداخل في نفسه، ترى كيف يكون عزاء اليوم... وكيف يكون العزاء يوم موته... إنه حزين من أجل إنسان يموت.

* * *

انحرف الأتوبيس فجأة وبقوة، وطار التاكسي متجنبا ثقل الأتوبيس الذي كاد يسحقه، لحظة رهيبة تقاربت فيها كتلتا الصلب إلى درجة التلامس القاتل، ابيض وجه السيدة السمينة وتثلجت أطرافها وألقت رأسها مغمضة العينين على مسند الكرسي الخلفي في التاكسي، وأمسك رجلها يدها بقوة وبحنان عميق... وجه مكتنز شوهته السمنة، كم كانت جميلة وهي عروس، كانت خارقة

الجمال، ماذا فعل بها خلال هذه السنين، كان يحب جمالها ويرتعب منه، قتله عامدا، حولها إلى شيء أبله خائف مهين أشفق عليها إشفاقا عميقا، يا لقسوة الإنسان الوحشية، لماذا لا يكون الإنسان رفيقا قليلا، حتى هذا الذي مات، كان فيه بعض الجوانب الطيبة لم يكن ضارا على الأقل، لم يلحق بأحد ضررا، بل ربما ساعد شخصا ما في وقت عصيب... من يدري.

* * *

يجب ألا يراها أحد وهي تخرج الجنيهات الخمسة وتضعها في يد زوجة المتوفى، يجب ألا يراها أحد، الحسنة التي يراها الناس تفقد قيمتها عند الله، لذا يجب ألا يراها الناس، ستعمل ما وسعتها الحيطة، ستدعوها جانبا، لكن ماذا سيقولون عن ذلك الحديث الجانبي، سيخمنون بلا شك، إذن طريقة أخرى، ستصافحها وتترك الورقة المكورة في يدها، لكن ربما سقطت على الأرض لأن الأخرى لن تكون مدركة لما يقصد من المصافحة.. لا.. لا.. ستقول لها: ياه تصوري، هذه أول مرة أرى فيها بيتك في حياتي.. ماذا يوجد هنا.. غرفة النوم.. مسكن جميل، وخلسة تضع النقود في يدها، فرحت بحيلتها وملأ روحها جلال ديني رائع، لكنها في طريقها صدمت رجلا يحمل لوحا مرصوصا بالأرغفة، وقال الرجل لها كلمة بذيئة، وتمزق الجلال بلا رحمة ومشت مهينة، واكتشفت أن الشارع قذر تملؤه الروائح الكريهة، وحنت بقوة إلى كنبتها وفراء الخروف الناصع البياض المفروش عند قدميها.. يا له من فراء جميل.

لن يعود أبدا

دخل الرجل وفي يده ورقة صغيرة.. تصريح الدفن.. الرجل عيناه ضيقتان متآكلتا الرموش.. لكنها تحملان حزنا عميقا.

المكان ضيق.. أشكال رباعية غير منتظمة تحدها جدران قذرة مصمتة.. والأبواب قميئة ضيقة، لكن الناس هنا يملكون دربة غريبة على بذل أكبر كمية من الحركة في هذه المساحة الضيقة.. دءوبون كبناديل الساعات يروحون ويجيئون وجوههم صخرية قاتمة من العناء وسوء التغذية ومكتسية بالحزن والصرامة فروات رءوسهم مجدبة خربة.. وأذرعهم طويلة تحمل في نهايتها أكفًّا كبيرة صلبة.

في الركن وقف رجل عجوز.. جاف كفرع سنط.. لا عيون، يرى من خلال بقعتين ضوئيتين كحشرة بدائية.. تحمل خطوط وجهه حيوية رسم من العصر الحجرى.

ـ مستنيين إيه.. عيزين نغسل الجثة.

وانطلق من ركن قصى صراخ طويل ممطوط.. بضع عشرات من النساء في نفس واحد.. لابسات الأسود.. وجوههن محتقنة بالدم مغسولة بالدموع.. انتشر في الجو المعتم شيء غريب، أصبح السرير الصغير في الغرفة الداخلية ـ حيث يسجى ـ في بؤرة كل شعور، تقلصت وجوه الرجال الصلبة بمشاعر ذئبية.. زادت الحركة البندولية سرعة، أصبحت محمومة خلع ذلك الرجل العجوز جلبابه، ركن عكازه على الحائط ولوح بيده العجفاء.

ـ بنات بكر يملو ميه جديدة.

أصبحت الهمهمات والكلمات المبتسرة والأوامر السريعة غارقة في ولولات النسوة النائحات.

وكان ثمة بضعة وجوه ملتصقة بمقاعدها في ركن آخر.. وجوه متميزة فهي ريانة أكثر، ولها ألوان.. ولكن حركة أهل الحتة النشيطة تعزلهم رويدا رويدا، من أول الأمر كانوا دهشين أكثر منهم حزانى لقد أخذ هؤلاء الناس حزنهم كذئاب غبراء، واحتفظوا به لأنفسهم ونظروا لهؤلاء شزرا وتجاهلوهم وعزلوهم.. تلفتوا حواليهم.. تداولوا فيما بينهم سؤالا ـ تداولوه سرا كقطعة من المخدر... أليسوا أهله؟

لكن الحركة في الدار ازدادت حمى.. دخلت البنات حاملات صفائح الماء لابسات الأسود يمسكن أطراف جلابيبهن يحسرنها عن سيقانهن قليلا ويحملن صفائح الماء كراقصات معبد مصري قديم.

دارت البوابير لتسخين الماء وتقدم الحانوتى.. وجس الماء وأعلن أن حرارته مناسبة.. وتقدم إلى تلك الغرفة ووراءه الرجال في كتلة متلاصقة، الميت ممدد على السرير، مد يده وكشف وجهه. شاحب.. نفس الجبين النبيل والشعر الأسود السبط يشوبه بعض الشيب.. والعيون مسبلة في صفاء.. بعض ساعات السرور مع الإخوان.. ران صمت ثم انطلق صراخ النسوة الطويل الممطوط.. عشرات منهن في نفس واحد.. المجموعات هنا تتحرك في تجانس غريب.. عند رأس الميت لوح الكاهن بيده.

ـ مستنيين إيه.. عاوزين نغسل الجثة.

دب اللغط.. الكلمات المبتسرة والأوامر الصارمة وعويل النسوة في الحجرة الخلفية.

رفع الجسد إلى طاولة محشورة بين السرير والحائط، في الركن كان الحذاء الذي ظل لامعا أبدا..

نشر الكاهن غطاءً أبيض فوق الجسد المسجى ويداه الخبيرتان جردتاه من ثيابه وأراق الماء على جسده من تحت الغطاء وهو يصرخ بلا انقطاع «أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله» ووراءه أنفاس الرجال مقطوعة وكلماتهم مبهورة لاهثة والكيزان تصك صفائح الماء في وقع مضطرب مذعور.

* * *

وضع على الجسد إزارًا يستر عورته ثم نحى عنه الغطاء الأبيض وتبدى على الطاولة. مسيح مغسول بالماء الدافئ يميل وجهه إلى اليمين قليلا، وانهمر نشيج الرجال بلا خجل كالنساء وتجاوب صريخ النساء فاجعا مريرا.

ثم بدأ يدرجه في الكفن ـ قميص ثم ثلاثة أدراج ثم شعار من الشاهي وربط لفة القماش عما يجاوز الرأس ومما ينزل عن القدمين وربطه عند الوسط ورفع ذراعيه إلى أعلى صائحا

وانطلق كورس الرجال وراءه في حمى مجنونة وصراخ النساء سياط طائرة تجلد الهواء. وحمل الرجال الجسد على السواعد مملوءا بالسكينة وسط الضجة الرهيبة وخرجت كتلة الرجال محشورة من البيبان والنعش رابض في ساحة ضيقة، مدد فيه، وتساقطت الرءوس على الجدث، من كل شكل ذات فروات خربة، أو مغطاة بألوان من الطواقي يقبلون الراحل.

حمل النعش على الأكتاف خارجا من الباب، ولجزء من الثانية حل الصمت.. لن يعود يدخل من الباب هذا أبدا...

يا له من حسم لا يلائم طبيعة الإنسان الهشة.

انطلق صراخ كاسح...

عن الذباب:

عشرات من الأقدام، أشكال من الأحذية شوهاء غليظة تزحف على صدر الأرض، جرجرة النعال على الحصى متهدجة.. عواصف صغيرة

من التراب... ذبابات تزعجها الجلافة المجتاحة.. تطير تطن في عصبية.. تدور بضع دورات ثم تعود تربض بشراهة على صدر نتف صغيرة من العفن..

ثمالات من صراخ النساء تتباعد، والحانوتي يقود موكب الجنازة في الشمس بلا ظلال والنعش يطفو على وجه الكتلة البشرية ثابتا مستقيم الخطوط فوق انحناءات الأجساد الإنسانية.

ـ استغفروا لميتكم.

ويلوح الحانوتي بعصاه. صرخات رجالية بين الجميع وتجفل القلوب بالاستغفار.

أكداس البيوت تتساند في وهن، والحواري تنسرب بينها في دهاء، وفي مقابلتها تقبع القبور مكينة متعامدة السطوح، ذات أبواب حديدية تتدلى من صدورها أقفال صدئة.

وضع النعش على الأرض.. وتحلق الحشد حول فوهة القبر.. ضرب باب الحديد حتى فتح.. جوف القبر معتم.. الطرقات على الباب الحديدي كانت قد أقلقت الذباب.. طن مستاء دائرا حول خمسة أجساد مسجاة اسود نسيج أكفانها بالتراب.

ضحك رجل بلا معنى.

ـ الخمسة أبويا وعمي واخواتي..

ثم ضحك مرة أخرى مذعورا. حمل الجسد على السواعد وأدخل في القبر..

سوي التراب من تحته ثم أريح في مكانه.. أغلق الباب وسادت العتمة.. عادت الطمأنينة للذباب.. طن في عذوبة..

(مجلة «المجلة» ـ أغسطس ١٩٦٧)

البيع والشراء

الليل

.. والمصباح على الدكة الواطئة الممتدة لسان أصفر مضيء تنعكس خيالاته على الزجاجة الشفيفة الغبشة، وعلى خزان الكيروسين الخزفي الأبيض، والمرتلون يقدمون عبادة أليمة تحت أقدام الليل الهابط، ليل هاتور البارد العاري النجوم.

في أمان هم داخل جدران المسجد الغليظة، لكن القلوب تدرك لذعة الريح السارية في غلائل الظلمة، وتسمع الوشيش الكامن في هامات الشجر وحطب عرائش الدور، والعيون تطرف ناحية اجتماع العتامة الباردة تحت السقف العالي، يكبسون الطواقي الصوفية في الرءوس الحليقة، ويحكمون الملافح حول الوجوه الزيتونية المهولة الملامح بالظلال ويلفون الأقدام بفضول الجلابيب، ويتضامون حتى تتراكب السيقان المطوية ويقربون من العيون نسخ بردة الأباصيري، لكن ذبالة المصباح تهوي، والعتامة الباردة تهبط آتية من السقف العالي، تتحشرج الأصوات متكسرة حتى تنتهي إلى بحات بقلوب متزاحمة، يتصافحون في همس موجز، تمتد الأيدي تبحث عن النعال مترددة.

وحارت قدمه عمياء تبحث عن المداس، حتى إذا اصطدمت به تسللت تطأ مستقرة، ذائقة لذعة البرد الكامن في النعل، يستند على عصاه ناقلا قدمه الأخرى من على حصير المسجد عابرا العتبة العالية، عيناه تصعدان وجلتين على جدار العتمة، وقدماه تزحفان تتحسسان أرض الطريق وعصاه تهمس في الأرض همسا معدنيا خافتا، يحتضن عقفتها في كفه احتضانا قويا.

فالليل حل، لم الحياة والدفء والضوء حبسها في القيعان، باحات الدور والغرف المصمتة الحيطان، وانبهمت أواخر التسابيح في أفواه الرجال الآيبين يخبون في الجلابيب يقرنون السلام عجلانين مخافتين، يعرف أشخاصهم من هياكلهم الحالكة المرسومة على العتامة، لكنم يغيبون في الحارة المكبوسة بالليل.

قلبه ساكن سكون الماء في قناة صغيرة، يحمل على صفحته لمعان نجمات مخافتة بعيدة، متوجس كأنما ثمة جندب يحفر مثواه في طين الشط، فالمبيدات الحشرية قتلت الطيور، وأعشاش مالك الحزين على فروع الجميزة القديمة باردة مهجورة، وبين السماء

والأرض تحلق كآبة ساهمة، وحول كومة الدور يترسل امتداد الحقول الشاسع صامتا كقاع الجب، والرطوبة تتسلل إلى جذور العيدان القديمة تهلكها، ومن المثاوي الطينية تهجم جحافل الدود، تدفع أمامها رءوسا سوداء قارضة مبيدة.

الأفق الغربي ينوء بأحمال الغيوم الداكنة الجهمة، لكن نجمات طفلة تفلت تنتثر على صفحة السماء، يتملى البريق الخافت، وعلى الجانبين تستضيء واجهات البيوت، وتبين رسوم الأبواب والكوى، إشراق ليلي أسيان تزحم القلب، مشى وسن العصا المعدني يضرب قلب السكة في وقع متحسس وئيد.

هذه العصا... منذ متى يضرب سنها في الأرض موقعا علاماته الميقاتية على مسرب الزمن المتطاول، كم توغل البداية بعيدا في غبش النسيان، لكنه ـ بهذا القلب المثقل ـ يرى الشيخ، حدبته متدفعة في عتامة المغرب، وهو يتبعه ـ هزيل الجرم ـ في يقظة حذرة متشوقة ذليلة، يسيرون نحو المسجد، وشيش الجلابيب ووقع الأقدام يخبط بنقرات عصا الشيخ الموجزة الحاسمة.

رحم الله الشيخ رحمة واسعة، كان شيخه وأباه ومولاه، كان يقرأ البردة في ليالي الحضرة بصوت يشق القلوب كسلاح المحراث، وهو يجلس قبالته يتأمل جسامته الراسخة كمجذوب منسحق إزاء بهاء قبة السلطان.

رحمه الله، يوم مات طار الفزع في قلوب العيال والأنفار والنساء، كما تطير النار في الحطب القصيم، وجثمان الشيخ مسجى في الغرفة المعتمة البعيدة، والعصا ملقاة مغبرة بتراب الأرض في ناحية من نواحي الدار، التقطها مسح عقفتها الناعمة، أخذها لنفسه.

لم يذرف في الجنازة دمعة، كان قلبه مزدحما بهزيم انفعال مضطرم غريب وهو يرى النعش يثقل أعناق الرجال، يتبادلون حمله منفلتين من تحته سراعا، والقرية كلها خلفه، النعال في الأيدي وذيول الجلابيب تحت الإبط، الناس ذاهلون مضطربون حول النعش الذي يمخر الجمع مترجحا ثقيلا.

وحينما أدخل القبر قفز قلبه يستقبله وفي الجوف المعتم الرطب الطنان سجاه تحسس الجثمان الذي ما زال طريا، حل عنه الأربطة وفك الحياكة، تطلق الكيان الجسيم مفترشا الثرى في جلال تهدج صوته بالقراءة كأنه بين يدي الشيخ في ليلة من ليالي الحضرة، تقدم منه ـ تهمي من قلبه الدموع ـ ركز كفيه في الثرى على جانبي

الرأس، هتك الكفن عن الوجه، مغمض العينين مطبق الشفتين اكتسبت ملامحه صلابة جرانيتية لا تقهر، نهض وئيدًا، مثقل الروح والقلب بيقين راسخ، عليه أن يخرج من هذا القبر يعتقل العصا ويمشي في الأرض تلك الخطى الثقال، فما يجعل الثرى يتطامن في مواطن أقدام العلوج سوى خطو الرجال ذوي العزائم.

وها هو يتخذ العمامة ويشتمل عباءة الكشمير ويعتقل العصا ويندفع في عتامة الليل الرصاصية، يتوثق العزم في حدبة ظهره وعضلات بطنه، وتثقل القوة ساعديه وترسخ في ساقيه، والسكة تسرب بين صفين من واجهات الدور، واجهات رمادية منصرفة صامتة.

الأفق الشرقي زحام من النجوم، نجوم متلألئة فرحة كعيال العيد، تولد في القلب البغتة الخافقة، تطير الأشواق في خيوط عنكبوت متلمسة، يستيقظ التوق الراجف في نوبات الخلايا، وعلى البعد قطة تموء شوقا، أو كلب يعوي وحده على سطح دار، امرأة تنادي نداء مبحوحا مستطيلا على جديها الآبق.

لكن الوضوء يحصره، ينقل على عرائس جنينية في رحم اشتهائه تريد أن تتخلق، تطلق أجنحتها وتحلق، مال يبول عند أسفل الجدار، وإذ يتعرى تسفع وركيه نسمة باردة، وكركرة سيال البول في التراب توقظ في جنبيه وشوشة داعرة مسرورة.

رحم الله الشيخ، كان تيسا فحلا داعرا، ظل يولد نساءه الأربع إلى أن مات، ملأ الدار الكبيرة بالعيال، يجوس فيها يسلط على لحوم النساء ـ زوجاته أو نساء الخدمة ـ نظرات كسواطير الجزارة، ثم يزأر فيوزع الرعب على القلوب وينطلق خارجا.

وكانت أمه واحدة من نساء الخدمة، امرأة شامخة لحيمة بيضاء، أترى ركبها الشيخ ذات ساعة ساخنة في كبد الليل أو في صميم الظهيرة، أتراه سحق لحمها الوثير الأبيض بثقل جسده العضلي العارم في عتامة قاع من قيعان الدار هل كان أن أبعد الشيخ أباه الضرير القميء المعلول بيمينه الهائلة ودس في رحم الأم نطفة تخلقت هذا الكيان الجسيم ذي الحدبة العضلية واليدين القرديتين الباطشتين.

ما أغرب ليل هاتور، حينما تندفع النسائم الباردة في غلائل الظلمة اندفاع أوائل الماء تبرق عيونه في شقوق الأرض الشرقة، اشتمل عباءته، لفها على جسده، أدخل يده في جيب جلبابه، باردة تتلمس الدفء في طيات الثياب التحتية، تنفرش على سخونة لحم بطنه،

تنتصب العضلات متصلبة في قشعريرة يلقي بنفسه متحسسا في عتامة الليل الصموت.

ما كان الشيخ بالرجل الذي يزني بنساء الخدمة في نواحي الدار، كان يكبح رغباته كما يكبح الرجل الشديد سطوة الثور العارم، كانت جهامته حبسا غليظا على شموس فحولته، لكن جسد الأم الشامخ كان يتطامن ذليلا بين يديه، تتعلق نظراتها به مفرجة الشفتين مفرجة الساقين، يتمزق ثوبها الوحيد عن كنوز لحمها المباحة العريانة، يزأر بها الشيخ كظيما ثم ينطلق خارجا.

وتبقى المرأة قعيدة ركن قصي تئن على الشيخ أعضاؤها فإذا ما تسلل إليها الأب في هدأة الليل يسيل لعاب شهوته على صدره، أسلمت له لحما ساخنا بلهيب العذاب يزفر آهات حرى شوقا للشيخ.

زنى الشيخ بالأم إن شوقا وإن مخالطة عرقانة، أسلمت المرأة رحمها للشيخ إن تحنانا وإن انسحاقا تحت سخونة لافحة مجتاحة، وفي الحالين تخلقت نطفته من زنى نجس حرام، وها هو يتخذ العمامة ويشتمل العباءة ويعتقل العصا ويخطو على الأرض تلك الخطى الثقال، لكنه في نهاية الأمر فقيه القرية الدائر بالقرآن على باحات الدور في الأصابيح، هو في نهاية الأمر مؤذن الجامع وحارس دورة المياه.

هذا الليل يحني الهامة ويثقل على القلب كسجن ذي طبقات عالية بعيدة، والنجوم مرتجفة كعيون العيال المرعوبين.

كان أبوه يجرجره إلى احتفالات القراءة الذليلة في المآتم وليالي النذور، وجمع الفقهاء العميان محبوسون في الغرف المفروشة بالحصير، يمسحون على رأسه يباركونه بأيد عرقانة، يدسون في روحه خنوعا، ثم يغرقون، يطنون بالقرآن كالزنابير الحمر المسمومة، يتلفتون توقعا وتوجسا، تسيل رغباتهم الصفراء على صدرهم، إلى أن يأتي صاحب الليلة يودع في أيديهم القروش، وإلى أن تأتي صواني الطعام، يقبلون عليها إقبال الكلاب الضالة على الجيفة المطروحة.

كان عليه أن يفر يلحق بالشيخ في حقله الممدد تحت الشمس يبقر بطنه بسلاح المحراث ويسوط بالصراخ ثوريه المعلمين لكن ذلك مقدور، قدرا نجسا خالط نطفته ابتداء من ساعة زنا أسلمت فيها الأم رحمها للأب القميء في حلال ذليل رغيم أو أسلمت رحمها للشيخ في حرام وحشي ملعون.

قدر كفله جثث الموتى يغمضها ويغسل منها نجاستها، كفله دورة مياه المسجد ينظفها من روث قطيع البشريين الصفر الممعودين، قدر دار به حطه تحت شواهد القبور يقرأ القرآن بثمن قليل كعكات أو حفان تمر، زوجه بتلك المرأة -بنت رفيق أبيه الفقيه الأعمى ـ امرأة شاحبة هلوع زائغة العينين مخرقة، ضيقة الحوض بعيدة المأتى بلا رحم كالنحلة الشغالة.

لكنه أبدًا ما خاف، ما قبع ذليلا تحت أقدام الحيطان، ما خنع للكلمات الجوفاء الحكيمة، ما شبع من لحم المآتم ككلب الجيف، ما مشى حول القرية متضعضعا كسيرا في ثوب الفقهاء الطاهر الناضح بالعرق الدسم عند الأكتاف، لطخ بروث الدنيا ثوبه وروحه، حفر الأرض بأظافره، حصد بيديه وأسنانه، حاش عن معاشه بمخالبه كالحدأة، ملأ مخازنه بالغلال وطيقان الدار بالقروش، ختم عليها بالطين وبات إلى جوارها خميصًا.

أصبحت له عباءة وصدار وحذاء، وحينما ورثه أبوه دارا في حارة الفقراء هدمها وأعاد بناءها، رفع عتبتها من غورها، وسع باحتها وغرفها، ضوءجوانبها، عمرها بجاموسة وطفل وشياه ودجاج.

فقد تزوج امرأة سوداء شامخة لحيمه هائلة الأنف والفم، جسيمة الفخذين، يمخر عبابها في الليل مبهورا بنخيرها العارم الكظيم، ابنة عبد هى، ربما كان أن ملك في تلك البلاد السوداء البعيدة وإذا كانت روحه قد تمزقت بسوط النخاس وورثت المرأة هذا التمزق الأليم فإنه هو يعاني تشوه جرثومته بفعل نجس قديم.

وله حقل ممدد في الشمس يبقر بطنه بسلاح المحراث زائرا يسوط بهيمتيه، بالصراخ، اسمه الشيخ أحمد، اسم جهم المحتوى، مكتوم الرنين، عالق بدار وحقل وجاموسة فحلة، مكتوب على بطاقة الحيازة، مرصود في دفاتر الصراف.

وهو يرتل الآيات في الليل، فإن خضمها ليزخر بقوة يعلو هزيمها على شموس قلبه الآبق القديم، وهو يصرخ في عيال الكتاب بالقرآن، تملؤه خدودهم الغضة المذبوحة بالعصا إحساسا دامعا بأبوة متعالية دفيئة.

وهو يدور بالتلاوة على بيوت حارة الفقراء، وإن قوة القراءة لتأتيه بالنساء خوانع ذليلات، تأتيه بعسل، طفلة الوجه والقلب والعيون.

ـ وريني يا بت.

وكشفت عن صدرها، انزاحت خشونة القماط عن خدود الأثداء الطفلية، ثديان أدعجان، حلمتان دقيقتان يدور حولهما الاسمرار والزغب، أمسكها الشيخ أحمد ملء كفه طراوة ونعومة، ملء قلبه حنانا.

ـ بت.. انت حبلى.

ـ يا فضيحتي.

ـ هوا مين.

ـ ....

ـ فين.

ـ في الغيط.

ـ يا هبله.

وبكت عسل، بكت وبكت، أخذها في حضنه، ضمها إليه، صارت له، تسأله وتنصت له مرتجفة وهو يقول:

وها هو يدب في العتامة مكينا وثيقا له هذا الليل، الليل حقله المروي، زريبته العامرة بأنفاس البهائم الساخنة.

مال على الشباك المضيء المقسم بأعمدة الحديد في صدر الحائط الرمادي المعتم تشبث بالحديد البارد الصدئ، أطل على الغرفة الخالية المدهوكة الحيطان بالطين، المضوأة بشعاع أصفر كاب ومن أسفل عتبة الشباك انبعث رأس سليمان، ومن وراء القضبان الحديد أطل، تتقطر ملامحه الرمادية بكاءً أخرس ذليلا، وجه أحرقته السنون والثكل، صوحته كأنما هو شاهد طيني منصوب على جدث قديم.

تناول سليمان القرش، أسقطه في العلبة، مد يده الرقيقة المرتعشة بالسيجارة، تناولها الشيخ أحمد، وأراد سليمان أن يعود إلى رقوده على الدكة أسفل الشباك، لكن عينا الشيخ أحمد الشائهتين بالعمر والمرض ـ ظلتا عليه، بادله سليمان نظرات تعبى، متكسرة الجفن، تثقل هامته على رقبته النحيلة الواهنة، وتهوي مع رتابة أنفاس قلبه.

أغمض الشيخ أحمد عينيه على همهمة تترسل في صدره، تهمي

مترتلة كبكائية الثكلى، تشبث بالحديد أن يتداعى، أن يبقى عند أسفل الشباك مضعضعا ذليلا، محدودبا منكمشا على نفسه، جلسته القديمة يرتل القرآن تحت شواهد القبور.

لكنه تماسك، وبصوته المشروخ بهواء الليل البارد طلب كبريتا، أشعل له سليمان سيجارته ومضى توا إلى رقاده المطمئن، ومشى الشيخ أحمد، تتسلل صكات العصا على الأرض متعثرة، يتتابع جذب الأنفاس وزفر الدخان في تنهدات كسيرة.

الخطى تلقي بالساري في المهامه الممتدة، والليل مقبرة راكدة الصمت والظلال، ووقع الخطى يعصر القلب بالقهر، يحل وثاق الاطمئنان، ينهار العزم انهيار كومة الرمل الناعم، ورث سليمان عن أبيه حقلا وبهيمة ودارا، وولدت له امرأته عيالا، لكنه أبدا ما رقد على عشه ليدفئه، أبدا ما سمد جذور عيدانة الغضة، كأنما أحاطها بقلبه ليذود عنها الرياح، كان دائما عزوفا منصرفا شاردا متفكرا نظيف الثوب واليدين، والحيوات الطفلة تموت في حقله السبخ وداره الصامتة التي تمرق من منافذها الرياح.

مات سليمان من يوم أن شب، من يوم أن عزف عن الحياة، من يوم أن أعرض عن توسيخ يديه وقلبه بروث الدنيا، كيف يبقى في هذه الدار الصامتة الرطبة الطنانة كشاهد طيني مقبض، كيف تبقى عيناه مغروستان في القلب.

لم لا يموت الرجال كما تموت الثيران منحورين بسكاكين الجزارة، يصارعون حتى تتفجر الرقاب بالدم القاني، لم لا يندرس الرجال كما تندرس الثيران، أليس نظاما فاسدا أن تنام شواهد الطين على الأجداث وتبقى مطلة في الليل كعيون مكبوسة بالعمى، وأن يحف هزيم قرى الأحياء بصمت القبور الباردة الرمادية، تكبس على القلوب والأرواح، على لغط الناس وسخونة تخالطهم وتزاحمهم بالرغائب والشهوات.

لكن الناس يعيشون، يخبون بالجلاليب وحفيف الأقدام في البهمة، راجعون في الليل كسباع الطير، مسارعين، يقرءون السلام مخافتين، يسري الهمس خلف غلائل العتمة يبصبص كلحظ السارقين، كومض عيون القطاط الخطافة، وسوسة يعرفها قلبه، تومض في عينيه جسارة تستأنس الظلمة، يتوثق في كيانه حولا لم ينكسر تحت وطأة الأيام المجدبة.

يتسمع فيدرك قلبه عواءً طفليًا بعيدًا، كأنما غيابة البهمة وجار كلبة

سوداء والدة تعبق بأنفاس الحياة الجديدة، إنه مخاض بهيمة، إنه عجل جنين يتقلب في رحم الأم يجهد ليخرج، يسعى بخطمه الأسود المبلول على ريح ليل هاتور الدسم الرطيب.

يا ليل هاتور الجهم الملامح كوجه الرجل الحكيم، العامر بالثراء كقلب الرجل الحكيم، الطري كثدى الرضع، الحافل كثدى المرضع، يا ليل اغتذى على الأوائل الشتوية، مخملي كورق البرسيم، دسم كورق البرسيم، مخلوط النسائم برائحة دم الولادة.

يا ليل نائم تحت بطون الجواميس الحبالى، راضع في أخلاف الجواميس الوالدة، مباركة رءوس العجول العمياء الباحثة عن فتحة الرحم لتخرج، مباركة الأخلاف الثرة، مباركة رائحة سوائل الولادة، وعبق الطبيخ، ولزوجة السناج وجشاء الشبعى.

مباركة الدار العالية الحيطان وسط الدور القميئة، مباركة الكوى المدخنة وأعلى الباب المسود، مبارك الدخان الصاعد من الفجاج وخلل الجدران وحزم الحطب على السطوح.

أرقد بالليل على الدار والقلب كدجاجة أم مقرقرة فواحة بالنتن، ضم في حضنك الناعم المزغب النائمين بقلوب صاحية، العراة الغارقين في العرق، الأثداء الناشع من حلماتها اللبن، أحلام البيع والشراء والشبع.

دفع باب داره انفتح، امتلأ قلبه بالباحة الدافئة المضيئة، باختلاط الروائح والأصوات المبغمة من البناني والأفنان والزريبة والغرف التي آوى إليها العيال، ابتهج ابتهاجا غضوبا، رسخ في مكانه راكزا عصاه متلفتا حواليه، أقبلت عليه امرأته القديمة تتطلع، تهرف تولول، لكزها في صدرها شاتما، انقلبت تجري متخبطة إلى الغرفة الداخلية، صفقت الباب انقفل وراءها، انحبس صخبا لايبين.

زفر مرتاحا، ألقى العصا والعباءة والعمامة والجلباب على وتد الحائط، توترت طاقتا أنفه تشمما، يدفعه خيشومه المرهف ناحية الزريبة، مشى إليها حافيا عاري الرأس في سرواله وصداره، تفعم الرائحة رئتيه، يحدق في تهاويل الظلام وشحوب الضوء حتى يبين له هيكل الجاموسة، والمرأة السوداء تحمل على رأسها اللمبة ذات الشعلة، تراجع إلى الوراء قليلاً، مشت المرأة مفسحة له، تهتز اللمبة على رأسها فتتخالط الظلال ومناطق الضوء.

بطن البهيمة تتدلى، والضرع مزدحم، تكاد الأخلاف المنتصبة

المحمرة أن يتفجر منها اللبن، والجاموسة تباعد بين خلفيتيها، وقف إزاءها يتأملها محدودبا، والمرأة السوداء في مكانها جهمة لا تريم.

أغمض عينيه، توشك أن تتحدر على وجهه دموع فرحة طفلية، فغدًا أو بعد غد تلد الجاموسة ويرتجف قلب الدار على نعار العجل الوليد، يتدفق سيل اللبن وتتمرغ الأيدي في الدسامة.

فتح عينيه ضاحكا ضحكة وانية قريرة، فإن ملامح المرأة السوداء ضخمة غير متناسقة كأنها قطع من الطين ألقيت على عجل ودونما اعتناء، غير أن لمعة عرنينها وومض عيونها معبأ بأنفة عنيدة.

مشت أمامه، ترتدي قميصا وحيدا يبدي تلاطم لحمها، تبعها يغرس نظراته في عجيزتها، عند باب الزريبة مالت عن طريقه ليسبقها، إذا حاذاها قبض على ثنيات لحم بطنها، أنشب فيه أصابعه، نحت يده بقوة متثنية فحلة، قد تدلت شفتها السفلى وتحول سواد عينيها مسفرا عن لمعة بياضهما في الضوء الخابي، مشت وعرامة تكوينها مفضوحة تحت قميصها الخفيف.

تبعها يحدق فيها بعينين محمرتين ورأسه نازلة عما بين كتفيه كالكلب، تحس سخونته وراءها لكنها لا تبالي به، تدور في الدار، ترفع الأواني والمكائل والحبال من بعثرتها، تعيدها إلى أماكنها المعلومة، تطل على الأرانب في الأخنان، تملأ مساقيها وتزيد علفها، تعد الدجاج في الصوامع.

زفر مغيظا محنقا، ثم قفز على ظهرها حزم ساعديه حول بطنها معتصرا لحمها الوثير وقلبه يضرب كالطبل، لكنها انفلتت من وثاق هجمته مبتعدة، عاود الهجوم لاهثا، وهى تنافح شرسة، طرادهما المكتوم وفحيح أنفاسهما المبهور يضطرد في إطار من همس الحمائم وتنهدات الفراخ في الصوامع ووثبات الأرانب الصارخة في الأخنان.

والرقصة الليلية الساخنة تزداد سعارا، يلاحقها، تناضل مراوغة، يدخلان مناطق الظل، يندفعان إلى شرائح النور، يتلاطمان، يرتطمان بالحيطان، تند عنهما الشهقات أو الزفرات أو الصرخات المنبترة.

كلما كبشها زاغت، أصبح وجهها بشعا، وشعرها هائش منكوش، ألقى بنفسه عليها منشبا أصابعه في لحم جنبيها، ملقيا بها على المصطبة، يسحق صدرها بصدره، انقض على شفتيها مغمضا يعض كتلتهما بأسنانه، ريقها يخالط ريقه مخالطة مبلولة.

انفلتت من تحته ساقطة على الأرض، لحق طرف قميصها، لواه على قبضته، جرها وراءه لاهثة إلى الغرفة، تمشي ملقاة الرأس إلى الخلف، تعمل في ظهره وأكتافه بأصابعها، عارية حتى خاصرتها، ساقاها أسودان يدقان الأرض، ترتج كتل لحمها في سيرها المقاوم الرغيم.

دفع بها إلى الغرفة، رفس الباب، صفعه وراءه، التفت إليها كالنمر وهي تخربش وجهه وتعضه وتشتمه بهمهمتها الوحشية، حمل ثقل جسمها وألقى بها على ظهر الفرن، قفز لحقها، ركبها كحجر الطاحون يلبس محكما في مجاله، وجهها يتحرك يمنة ويسرة وساقاها يتبادلان رفس الهواء وهو فوقها لا يفلتها، حتى بدأت تلين له، تجاوبه، تعطيه.

ثم جن جنونها، لفت ساعديها الجسيمين حوله، تدفع صدرها إلى حضن صدره، تمرغ وجهها في وجهه، تقمص تحته، تعض رقبته تحتضنه بساقيها، تضطرم عارية ساخنة غارقة في العرق.

انتابته رعدة.. رجع.. فتح عينيه على وجهها، حائلة بياض العينين، ملتوية الشفتين، متقلصة الملامح بشعة، أمسكت براحتيها وجهه الذي نبا عن صدرها، ضمته إليها بقوة، مفعمة العينين بوله مجنون، طاوعها عائدًا، يريح خده على نعومة ثدييها، لحظة حنان لم يجرب عمقها أبدًا.

النهار

مقدور أن نقوم، أن ننتزع من حضن الليل بأيدي النهار البرصاء التي تلج ركن الغرف من فرج الشبابيك، مقدور أن نقوم، تدفعنا من أعماقنا مخافة الفوت، نحمل قلوبا مدفونة في الصدور كضفادع مدفونة في طين الشطوط، تنق نقيقا ضارعًا أخيرًا، وبعد آن سوف يعلو وضح النهار وتضيع ضراعة القلوب في الصخب المختلط.

يثقل الهم روحه وجسمه، متوجس من الصبح توجسه من بهامة الليل، يحدق في شقوق الشباك الفضية، اشتبهت وضاءة الشروق بكآبة الغسق، وجفت دماء القلب، أسود كجلدة كير الحداد.

يعرف قدومهم مع الليل البارح، قطع من الظلمة ساخنة الأنفاس، مثقلة عواتقهم وظهور دوابهم، ركضهم اللاهث الساخن ناشب في عروق العتمة، واصل إلى كل قلب كأنهم الذئاب الغبراء، والليل يراكم على ظهورهم وحزم بضائعهم بلولة الطل، لكن قلوبهم تفور

كصفائح الشاي المسودة في حضن نيران غريبة.

وإذا يعلو الضحى تحتشد القرية في الباحة أمام المسجد دائخة مخدرة كسيرة، شاه ضربها ذئب السوق في أم رأسها بنابه، في وجوه الناس نشوة خوف، وفي ضحكاتهم رجفة، يحملون أشياءهم بأيديهم، تنوشهم لعبة الموازين والصراخ والعيون.

وفي العصر، عند أقدام الحيطان، وفي الحارات وباحات الدور، تتكسر القامات والظلال، وتتكسر الكلمات، في جرسها غنة أنثى كسيرة، يحكون عن السوق، عن البيع والشراء مستطعمين لذة الخضوع للافتراس.

ما زال المصباح على الرف الطيني يضيء العتمة، لكنه عجوز متكسر، وبقايا الظلام معلقة، من أرجلها في الأركان القصية، وبساط النهار يفرش أرض وسط الدار، تتمدد حواشيه تزحف على الحيطان أكيدة باردة.

يتصنت، يسمع سيال اللبن يشخب في الشلية،، يسمع غمغمة العيال والفراخ والحمائم، القلوب الملهوفة على الصبح تنقر شرانق الظلام، بعد أن تأتي المرأة السوداء تطلقهم من الغرفة والأخنان، تطلق نهارها الذي تملكه لنفسها، تطعمه وترعاه، تحيط به وتحوش عنه، وفي السماء تحبسه، تغلق عليه وتنام.

المرأة القديمة تتحدر نازلة على السلم الطيني، يداها ملوثتان إلى المرفقين، جهمة نكدة تولول وتهرف تشتم كل شيء، ما عاد ينهاها، أصبح يعرف امتلاء القلب بالذعر، وكيف تخف رأس البشري حتى يشابه دجاجة طائشة، ما عاد ينهاها، إنما يلقي إليها سمعه وهو قائم يراقب نوبة هياجها حتى تستفرغ طاقتها، تنحدر دموعها وتتكوم على الأرض يهزها النشيج.

والبنت الكبيرة تدور في وسط الدار، تبذر الحبوب للدجاج النهم المتزاحم الصخاب، تأملها، استراحت عيناه على نماء ثدييها واستدارة بطنها، وانسحاب فخذيها في قميصها الخلق الخفيف، خطوط جسمها تنسرح في حزن لين رقيق، وجهها أسود قبيح، لكن ملامحها تنطق بذلة تربت على القلب، كم يحبها ابنته البكر، الغضة صمتها هامس منعزل في صخب الدار، وسط ضجيج الذكور الخارجين من الغرف مطموسي العيون بلطخات الشثم الأبيض.

اشتمل عباءته واستند على عصاه، لا يريد أن يقوم، لكن ثمة يوما

في حياة الرجل يخرج فيه من داره راغما، مدفوعا من دبره كالعجل.

وقف على الباب يتأمل الشمس المفروشة على الأشياء، ذهبية متهدبة كريش معارف الديوك، دافئة ناعمة الحضن كالزغب في بطن دجاجة أم، من ذلك الكن الدفيء يخرج المتسولون، جرذان الهدائم الخوافة.

ربما أفجع ما في الصباح متسولو الصباح، الأغاني الكسيرة، دفوف المداحين، المذلة الدامعة في عيني الحمار، الشراسة الحقودة في دعاء المجذوب، ينقر الباب ويمشي، والأسئلة تنزع في صميم القلب المبسوط كراحة اليد.

يسأل عن إسماعيل، طلاع النخيل القديم، يدور بالأبواب يجمع أرغفة الصدقات الصبحية، باب ثم باب ثم باب، ملق على العكاز، تبربش عيناه من تحت الأسمال، هل يمشي ناحية الدار، هل تدب خطواته تجاهه.

ـ حسنة لله يا سيادي.

روعت الشيخ خشخشة الصوت المكسور.

ـ صباح الخير يا سماعين.

نكس إسماعيل عينيه، خنفساوان تبحثان تراب الأرض.

ـ حسنة لله.

ـ أنت مش غريب.

ـ أنا ماشي

استطالت رقبة الشيخ أحمد من بين كتفيه مندفعة نحو إسماعيل، يهتف به هتافا حارا.

ـ ليه.. هو إيه.. هي الدنيا ماتت.

وإسماعيل يتململ في مكانه، مذعور العينين، يخفي ابتسامة جنونية تحت شاربه الأغبر الكثيف، زفر الشيخ يائسًا لا شيء يشغل إسماعيل سوى قرص الخبز، ناوله الرغيف، اختطفه وانطلق يظلع.

إسماعيل سقط، طلاع النخيل القديم غدرت به النخلة الحمراء

العالية في الجرن بظاهر البلد، وكم طلعها خفيفا عارفا يحرق شفتيه عقب سيجارته ويطلي شاربه الكثيف بالصفار.

وعسل طالعة، تتريث قليلا على العتبة، مطلية بالشمس الذهبية، الشال والكحل والابتسام، عقد باب دارها العالي متقوس حول بهاء وجهها واكتمال كتفيها.

ـ صباح الخير يا شيخ أحمد.

ـ خير يا عسل.

والقلب لا يزال، وفي القلب لا تزال يوم جاءته، رسوم اللحظة على امتداد جسده كالوشم لا يزيله مرور الأوقات.

لكن عسل ما عادت تسأل ماذا تفعل تزوجت الوغد، لوحت في وجه الناس بالوثيقة، ثم طلقته وعاشت بنفسها تسرح وتئوب، تبيع وتشتري، تعلي حيطان دارها قبالة داره، تحب التلاميذ تضاحكهم على قارعة السكة، تشرب سخونة أنفاسهم في ظلمة الأركان، وهو ها هنا تقرئه السلام في الصباح والمساء.

انشجبت كل الأشياء، انشعبت الحقائق، وعلى الفروع السارحة في كل اتجاه بتراكم التراب، وتعمر ما بينها كآبة الغربة، ويغبش صفاء التعارف لكنها الصبحية، وذلك الحنين اللاهف المتسائل.

ـ بعت عجلك يا شيخ أحمد.

الرجال تهرم، الكلمات كالرجال تهرم، يخبو بريقها وتتغضن، وتصير حافلة بالندوب مشحونة بالكراهية.

ـ مستني التجار.. وربنا كريم.

ولو أنصتت له لبكى، وحلف حتى ترضى، حتى تعود لعيونها طفولتهما وينفك من حول قلبه إسار الرعب.

لكن عسل تضحك بلا سرور ضحكا مريرا، يوجع ندوب القلب كأظافر القطة.

عرف خروج المرأة السوداء من باب الدار خلف ظهره، استدار لها دونما إرادة، جمدا متقابلين لجزء من الثانية ثعبانان يترامقان بمقل عارية من الجفون زوجان متعارفان إلى الزهد الموات الذي لا تنبض

فيه رغبة، لا يتكلمان منذ أن كف الكلام عن أن يكون اكتشافا، ونضب من البداهة ومن رقراق الطلاوة، يموت موءودا في القلب وتولد بينهما لغة خرساء صموت كلغة النمل.

الرجال يمرون به محملة ملامحهم بكآبة العزم، ممتلئين صمتا ومخافة وذاهبين إلى السوق، والنساء يبصمن على السكة أقداما لينات كمخالب القطط ريح السوق الزخمة المتربة، القوية كدفوف الزار، تنشب في أعماق الحارات والدور، توقظ في القلوب قحبًا قديمًا، تزقزق فيه صرخات داعرة لا تسمع.

يتقبل التحيات الصبحية، ويخافت كارها بالإجابة، ويعرف إقبال التجار ناحيته، يحشون أشداقهم ضحكا، ويلوون وجوههم في الجوانب، تتجاوز عيونهم قلقه المتضام المكتوم، طاوين جوانحهم على أكياس نقودهم المنتفخة.

يروعك الرجل الذي يشيل ثراءه كله في حافظة نقوده، هي حقله وبهيمته، مبذولة بين يديه كالفخ، حاضرة مرهفة كالمخلب، تخالس اليقظة والحرص، وهي كالصقر طائر محوم منقض.

ـ سلام عليكم يا شيخ أحمد.

ـ عليكم السلام.

لكنهم لن يسرقوه، ولن يعرفوا عن مخافة قلبه.

وهكذا استوثق لجلسته فأسند ظهره إلى حائط وسط داره، وركز عصاه في الأرض محتضنا ركبتيه بساعده، والتجار يفحصون العجل الطفل بغلظة وبلا تحرز، ثم يعودون يتحلقون حول الشيخ تبتسم العيون والشفاه في فتور.

وفجأة يحتد واحد منهم ويطعن العجوز بكلمة كالخنجر.

ـ انت هتبيع؟

تتخدر فرائصه ويحدق في وجه المتكلم الغاضب غير فاهم شيئًا.

ـ أمال هلعب؟

يتدخل آخر شارحًا رصينًا هادئًا باردًا كالسم.

ـ أصل انت يا شيخ أحمد مرجعاني.. ومالكش كلمة!

ينحل وثاق جلسته، يتربع مفترشا الأرض، والعصا ملقاة أمامه، هكذا يشتمونه بلا مواربة، وتحاصره وجوههم بالجهامة.

ـ جرى إيه يا جماعة؟

يضحك أحدهم مادا يده للشيخ ودون وعي تمتد يده، خائف ككلب مبلول تحاصره العيال.

ـ ثمانية جنيه.. بعت؟

ـ لأ؟

وأصابعه تتملص في ارتباك من آثار اليد القابضة، والرجل يعصر اليد الهرمة بقسوة ثم يلقي بها زاهدًا قرفانًا.

ـ الراجل ده مش بياع!

ويترسل آخر في الكلام فاترا حالما يتأمل أصابعه تلف ورقة البفرة حول حبة الدخان.

ـ أيوه.. حاجته غالية عليه.. عين في الجنة وعين في النار.. والبيعة اللي زي دي مافيهاش رباح!.. ويضيف آخر.

.. ويضيف آخر.

ـ وبتاخد في سكتها!

والعجل واقف قبالة الشيخ هشا تعبا مفرق القوائم، متدلي الهامة جاحظ العينين، والبنت تدور من بعيد ترى أباها بعينين باكيتين، يستطيع أن يطردهم خارجا، وينادي ابنته إليه، ويقول لها أن تعنى بالعجل، وسوف تفهم وتلزم الحيوان الطفل، ولا تخرجه من قلبها أبدًا، لكن كابوسا يقهر إرادته بالجمود.

يتودد إليه أحدهم:

ـ العجل هزلان يا شيخ أحمد.. مراتك ما بتخليش في فمه حفان لبن يقوته!

يعرفون عن سطوة امرأته في الدار عن شحها على بهائمه، وهوان

حزمه عليها، يشيرون إلى عورة حياته بأصبع همجية.

ـ مانيش بايع.

ويقهقه أحدهم.

ـ ولا بتسعة؟

وكاد يبكي حقا وهو يقول:

ـ لأ.

وقاموا يخرجون تنسحب الضجة مع خطوهم ويفرش على أعقابهم الفراغ.

لكن على العتبة رجع أحدهم وحافظته في يده يقول في حزم صادق رصين:

ـ اسمع.. العشرة أهه.. فيها جنيه مش بتاعك.. هيه.. قلت إيه؟

ويتبعه آخر ممتلئ الفم بالضحك ممتلئ الكيان بالرقص يكلم زميله:

ـ معلش.. يقرأ بيه سورة البقرة على أبوك.

لكن المتكلم لا يبالي بالفكاهة ويصرخ بالشيخ أحمد:

ـ بعت..؟ قول يا أخي بقى.. ينعل أبو دي بيعة.

وينصهر العجوز في لفحة الغضب:

ـ بعت..!

يأتي إليه الثالث كأنما هو موشك على تمزيقه:

ـ بعت دي كمبيالة.. ترجع في الكلام لأ.. إحنا مش عيال.

والجنيهات العشرة في يده لا يحير جوابا، وهم يأخذون العجل، يدفعونه من دبره خارجين، وإذا بصمت وسط الدار بعد خروجهم يدرك الشيخ أنه سُرق، سُرق بدناءة وبلا رحمة.

انطلق يجري على آثارهم، زوبعة من الأصوات تحمله كورقة، تعصف

به عصفا، تعلو في صخبها المختلط الغاضب قهقهات عسل كفرقعات سوط، وقهقهات عيال الكتاب الذين كبروا وأخذوا عسل إلى كل الأركان، قهقهات آتية من شقوق الأرض من أبعد أيام العمر ما عاد شيء، ما كان شيء، كل الأيام خرائب ينعق فيها البوم، يوم على رأسي كل يوم، كان يجب أن يعرف أنه لا جدوى فيأخذ حبله وسكينه ويسرق، الآن يبارك السارقين بصراخ مخلوط بالدم من قلب هرم، هرم، لكنه قادر على أن ينشب أظافره في حلقوم رجل، ويموت وعلى نواجزه أمشاج من لحم ودم.

وحالما تميزت ملامح تاجر البهائم في عينيه أنشب مخالبه في حلقومه، تغور في غضارة لحم الرقبة، والرجل المذعور أهوى على وجهه بصفعة هائلة فجرت برقا في عينيه، وصفرت في أذنيه صفيرا مستطيلا كأنما في داخله بئر بلا قرار.

الناس محدقون، وجوههم صفراء عطل من طلاوة القساوة بليت ملامحها كما تبلى دهاكةالحيطان، موصولة بقلوب عليلة، تندفن الرؤى في أغوارها السحيقة تحت ركام ألف عام من القهر والمخافة.

لكن الحدث فعل فذ، نشب في تويات الخلايا قبل أن يلحقه الإدراك، ارتعدت الفرائص في غيبة الوعي، تفجرت الرؤى من أعماق القلوب العليلة دامية شرسة، عاوية متعاركة كذئاب جياع في ظلمة رائعة أعمت البصائر وأطلقت حبائس الإمكانيات الجارحة.. الساقطة.. كبروق الليل الموجزة.

وغمر الضحى هذه الكيانات البشرية الهزيلة وجلابيبها المتسخة، أضاء الوجوه الكابية تحت الطواقي الصوفية، يصنع لهم ظلالا متكسرة متفرقة، قياما متباعدين أو قعودا مبعثرين على دكك المقهى، يبصرون بالرجلين يقفان متقابلين على وجه الأول صفعة وعلى رقبة الآخر آثار أصابع خانقة، ينظرون إليهما ذاهلين، غير فاهمين شيئًا.. إنما..

حصل خير.. حصل خير.

ويدفع الشيخ بعيدًا ويدعى تاجر البهائم إلى الجلوس وتناول الشاي، الحركة والكلام يثقلهما وجوم، فقد كان حلما باهظا صحوا منه مشلولي الأيدي والإرادة.

والشيخ يجري، يحمل موته على عاتقه مبتعدا، مرتعدا ككلب

مسموم يبحث عن ركن قصي يموت فيه، يدور بعينيه في الجوانب، يروعه صخب السوق، تتساقط على رأسه الصيحات والصرخات، تلكزه في جنبه الاندفاعات الفجائية، وتهمهم عليه بشاعة الملامح وتشنجات حوار الأيدي والأصابع.

دفع الباب، الدار صامتة كالقبر، دخل الغرفة، كافح بكل طاقته ليصعد ظهر الفرن، سقطت عمامته وعصاه، كافح بأظافره وأسنانه، لحقت به ابنته الكبيرة، أعانته حتى رقد ممددا على الحصير ودائرة فضية من كوة الحائط تسقط على وجهه.

ابنته تطل عليه، وجهها غائم بلهفة خرساء وهى ترى تقلص ملامحه الأليم تأخذ يده بين يديها، جامدة باردة كالثلج، تنشج منادية أباها، تمرغ وجهها في بسطة راحته الباردة، تدعكها في دفء لحم رقبتها، تدفئها في صدرها مغمضة العينين هالعة، يدور وجهها في الجوانب جزعا على أبيها، تحضن يده إليها، تعطيها بكل طاقتها من دفء ثدييها الطفلين.

وراحة اليد متصلة بخفقان قلبها، وحر صدرها، مبللة بدموعها، تدفأ، تمشي في عروقها حياة مرتجفة، تدب الأنامل الواهنة، تحيط الراحة الكبيرة بتكور الثدي.

ودائرة الضوء ساقطة على الوجهين المتقاربين، على يدي البنية مضمومتين إلى صدرها تحتضنان اليد الهرمة في ضراعة مرتعبة.. سخونة تلهب وجهها، تضرم في عروقها نارا لم تعرفها أبدًا، مخافة مضرجة بالمسرة، تكاد تجحظ عيناها في قبضة عماء مفزع.

لكن ملامح الوجه الهرم تسترخي من قبضة التقلص الأليمة وتستريح، ويستضيء الوجه برضا قرير، تنزل دموعها دفيئة، وتحتضن اليد الأبوية في حنان وتحكم بسطة راحتها على جماع ثدييها وتستسلم لحرقة البكاء.

وفجأة يقسو الوجه، تتصلب الملامح تتسع حدقتا العين في تركيز باتر غير مبصر، تعبير لم تره على وجه بشري أبدًا، تتدفق مخافتها آتية من أغوار عروقها، تحس الألم الموجع لقبضة اليد المتشنجة، تصرخ صرخة فزعة.

من صوت انحطام عذرية البكر الباقي في قلب كل رجل ذكر، من صراخ البنات يصنع الوهج الحامي في أضاحي الأسواق الرجفة والترويع والجنون في صدر النهار المترب المنصوبة فيه قدامي

الحيطان مجللة الرءوس بالحطب المصوح، النهار الباهر الشرس الواصل إلى انطواء السرائر والهواجس.

والشمس قحبة لطخت نفسها بالطلاء وازدهت في ضحى هذا اليوم من أيام هاتور، أنشبت مخالبها في الناس الدائخين، الخائضين سحائب الغبار، المعذبين بالقلب والرغبة في البيع، تلك الرغبة الأنثى المهيضة المفرقة الساقين في ساحة السوق.. في عرس اللواط، والشمس تضحك إذا تتخضب أيدي التجار وصدورهم كما يتخضب الحاصدون بدماء البرسيم.

نجست الشمس والأرض، نجست السكك وذيول الجلابيب، نجس التراب والقتام، نجس البيع والشراء.

ديوان الملحقات

جدل العنف والوهن..!

صاحبة النزل

تسكن في الطابق الأول، والغرف اللاتي على الأرضي تؤجرها مفروشة لطلبة الجامعة، أما في الصيف فيعمرها الآتون ينشدون الطراوة وريح البحر.. نحن الآن في عز الشتاء، وهموم الطلبة، تنزل كل يوم في الصباح تنظف وتروق، وتنظر فيما حصل من تلفيات، وتؤنب الساكنين على النظام، وهى في ذلك مسلحة بسلاح الإسكندرانية من الشخر والشخط والنطر والأح، وكل ما يبلي الغريم بالخرس والذهول في عينيه وربما يفغر فمه خيبة وتعسا.

والولد الساكن في غرفة تحتية يقول لها: «حاضر! طيب.. حاضر يا ستي..!» وتفكر الولد في أمر السيدة، إنها امرأة عجوز، أهرمها السن، فليس لها من الطلبة الساكنين إلا فلوس الإيجار، ثم تصعد لشقتها بعد التفتيش اليومي لزبائنها من النساء المومسات، كلهن جئن إليها يشربن قهوتها، ثم إن المعلمة تشوف لهن الفنجان، وتقول للواحدة منهن أربع كلمات حسان طيبات.. إذن تطلع علب السجائر، والعزائم، وبالقطع الفضية، وورقات النقود، وكل واحدة من ضيفاتها تبقى عندها ردحا من الزمن، وتذهب بعد ذلك لشغلها، وتبقى السيدة وحدها مشغولة بصداعها.

ثم تبكر لجولتها اليومية تفتش على غرفها. والولد ينتظرها. قال في نفسه إنها امرأة هرمة، لكن بقي لها بهاء في الوجه، يتورد إذا ضحكت.. آه يا سلام. وهي قالت في نفسها إنه الولد الذي سكن عندها أخيرًا له عليها عين. تحذر عينه. تدور وتلف، والولد قاصدها، أردافها وصدرها، يلطسها لطسا ببسطة كفه، يلمس ويمسك، وكلما أرادت أن تفر قبض على يدها يستبقيها. بذلك وقعت في الناصية، انبهرت، وبهرت أنفاسها، واقتم اللون الوردي في وجناتها. ثم صعدت لزبوناتها من النساء المومسات جلست معهن شاردة، لا تستطيع أن تفتيهن في أمرهن شيئًا.

وفي ثاني يوم وجدته ينتظرها، يزنقها، تحاول أن تفلت بكومة لحمها لكنها لا يطاوعها جسمها، أن تشخر فيه، تصغره وتلزمه الأدب، انفرطت منها عدتها الإسكندرانية. أن تصرخ فيه، فخانها صوتها.. وحاولت أن تفر، وكانت سبقت ارتبكت في شباكه. قالت له: «ماذا تريد مني يا ولد؟».

قال لها: «أريدك أنت..! أريدك كلك..! آكلك..!» صعدت إلى مسكنها وهي ترتجف ارتجافا.

حتى المومسات جئن يتضاحكن. وقعت عينها فيهن، وتحت الطلاء بأساء المهنة. قالت في نفسها، إنهن عندهن الرجال من كل نوع، ثم يأتينني ينشدن حظا عند الوحيدة. قالت لهن: «بالإذن يا أخواتي، أروح لزيارة أمي؟!» فخرجن كلهن، وهي نزلت إلى الطابق الأسفل قالت للطالب وهي تدخل غرفته وتغلق الباب وراءها: «يا ولد!». وفي صوتها كل الهزيمة، قبض على ذراعيها وضمها إلى صدره ولف ذراعيه على ظهرها وقبلها في شفتيها فخرت منهارة على السرير، وهو واقف يغالب تقززه من سوء طعم ريقها وارتخاء شفتيها. وقالت له دائخة: «لا.. لا.. ليس هنا.. سيكون ذلك عندي، قبلها تقسم على المصحف ألا تفضحني؟!» تأمل الكومة الهرمة على السرير.. رد عليها كالمخدر: «نعم.. آجيك.. وأحلف!».

وصعدت السيدة صاحبة النزل إلى مسكنها.

استحمت. صففت شعرها. وصبغت خدودها ولبست قميص نوم حريري أحمر كان عندها من زمان، نظرت في المرآة. ارتجفت. قامت تنشد المصحف الشريف، وجدته، فردته على حجرها، لا تعرف القراءة، أغلقته، نظرت في المرآة ففزعت. هتفت: «الولد لم يأت..!» تقطع الشقة بخطوات متسرعة ملهوجة ثقيلة والمصحف تحت ذراعها اليمين. فتحت باب شقتها وانطلقت تعدو الدرجات النازلة للغرف. تصفق باب الولد بيدها اليسرى ولا من مجيب. تركت المصحف يسقط لتصفق الباب بيديها. تصفق. وتصفق ثم نطحت الباب برأسها، وصرخت، وسقطت، والدم ينبجس من جبينها.

واحد من أهل الله

ذات عصر انحبست الرياح البحرية، وزمتت الدنيا، وتكدر ضوء النهار فيما بعد الظهر بمسحة من الغبار فتلونت الأشياء، وتجهم أبي، وأنا كنت جالسا جنب الأب على مصطبة دارنا وقدامنا ساحة تلعب فيها النسمات لعبة أسيفة، تدوم وما ترتفع قدر شبر حتى تهمد، أتأملها، وأرمق أبي، وأرى جهامته، وحبات مسبحته تتساقط من بين أصابعه فتصك الواحدة الحبة الأخرى صكة كهربائية.

وجاء الرجل، نراه يدرج نحونا، وأنا فرحت به جدًا، طرت ليمه بأشواقي، فرشت تحت أقدامه سجاجيد لهفتي وطيبي به، وأبي يبتسم، نظره متعلق بالرجل ورأسه تميل ميلا، ترنم نغمات رضاه، حتى وقف الرجل قدامه فتصافحا وقبلا الكتفين، وجلس متضائلاً فائضًا أدبًا. وجئت بالشاي، تناول كوبه محبورا وربت على ظهري، وأخرج من جيبه حلوى فنفحني بها، جلست أتلذذ بالحلو وقد صار الوقت حلوا، انطلقت النسمات العصرية، وراق، هل يأتي هذا الرجل من الجهة البحرية، مخازن الريح تبرد من حر النهار؟ أم يأتي من رطم حبات المسبحة فينعم به وجه أبي؟ جاء الناس فرحين بالرجل يسلمون ويجلسون حتى ازدحمت المصطبة ففرشت الباحة حصرًا وجلسوا ينصتون والرجل يحكي عن حبه لشيخه، يكنس الروث من تحت بغلته وهو لابس زيه الرسمي. حتى كان، وترك الخدمة في القوات المسلحة وتكبل بالحديد، يسمعون صلصلة حديده، يخفيه تحت ثيابه، وفي كل مرة عند هذا الحد من الحكاية يتنزل من السماء إيمان على قلوب الناس ويصلون على النبي، وتضاء الأنوار.

صلوا المغرب جماعة في هذا المطرح، وفرحوا بانقضاء الفرض. ضحكوا، وجاء الطعام، خرجت الصواني من كل دار صينية، واجتمعوا على العشاء، ضحكوا فرحانين، حتى إنهم حين وقفوا لصلاة العشوية المتأخرة كان في أفواههم من بقايا ضحكهم. لكنهم لما جلسوا لقراءة الدلائل تجهموا والرجل معهم وجشت الأصوات، وصلت النغمات الغلاظ للأوج مما يبوح به القلب.

ولما وقفوا للذكر ارتعبت، لبدت في جنب أبي في مجلسه على المصطبة وكبشت في لحم فخذه. والذاكرون يقفون في صفين، جدعان فتيان، وعلى رأس الصفين مداحة سوداء بيضاء الأسنان، وفي يدها دفها وهي امرأة شامخة، وفيما بين الصفين يقف الرجل ناكس الرأس متحاضن اليدين، ولما يبدأ الذكر ويصل إلى أوجه احترت وتعبت فيما أريد أن أعرف، أهي المرأة تقود الرجل وترقصه،

أم هو الذي يمسك زمامها، وهى على صهوتها تتلعب لفارسها؟ تعبت وأبي ساكت يقطر حبات مسبحته حبة وراء الأخرى.

الذكر بلغ أوجه، وطارت الطاقية من على رأس الرجل، وثار شعره خصلات طائرة مع حركته، وجهه أقتم، وفمه يفيض رغاء، وذراعاه طائران، وقدماه يدقان الأرض، يخضخضان جسده في قذفات متتابعة.. خلع جلبابه، وبان حديده، وسلاسل تلفه كله، تشخلل وتصلصل وتصطك مع رقصه الجنوني الرائع.

المرأة تميل بالدف مع الآه، وتعتدل مع الآه الأخرى، وتغمض عينيها وتضحك كالنهار، وترجح كتفيها اثنين اثنين، وترفع رأسها إلى الخلف مع الآه الثالثة الحرى. والدق تباعًا بيدها السوداء الهائلة على قلب الدف. هل أدري أيصل تيارها الرجل، أم يصلها الرجل بتياره؟ وأبي صامت والشباب الذاكرون جنون مكتوم الدق، صرخ الرجل صرخة ممطوطة طويلة، وهو طويل، يرفع يديه لأعلى مفروشة الأصابع. المرأة ترجع بالدف لحنا موصول المقاطع والبحات كظت، والعيال الذاكرون يجاوبونها بالدق، وخشيش الصدور. إذ اتخذ الرجل من حديده جنزيرا طويلا، ثم يديره على رءوس الناس دورانا حاكما باهرا، والذكر دائب مسقوف بالحديد، لحظات أبدية.

وبدأت أرتجف، أزن كما يكون إعوالا، ضمني أبي إليه، وأسناني تصطك، حتى سقط الرجل وهو يهتف بألا إله إلا اللّه.. وبهذا انتهى الذكر وأقبل الناس على الرجل يلثمون يديه ورجليه ويلتمسون البركة من حديده. وأبي هدأ من روعي وقال لي:

ـ إنه واحد من أهل اللّه..!

انتصار

أخيرًا جاء الماء ورويت الأرض التي حصد عنها قمحها، وتلك التي بقى بها زرعها المستحصد، بما عجز أصحابها عن سداد الإيجار.. هكذا طفحت الشقوق، وامتلأت الحقول بالمياه، وغمرت فخرجت منها أسراب هائلة من الفيران، غيطانية بنية صفراء الظهور، تجري، ويخبط بعضها في بعض، يقفز بعضها فوق بعض، فرار مذعور أعدى الجراد فطارت جماعاته فوق سيل الفيران المنحدر، والفراشات، والعناكب تتعلق بخيوطها، تتسلق الوهم صعدا، والعصافير تزقزق وتضرب بجناحها هاربة. ومالك الحزين ينشد مكانا رائعا يستمتع فيه بالماء، تزحم الفيران المكان بالجنون، ومالك الحزين يعلو ليسمح له ليعبر، ثم ينظر أين يحط.

سحب من فيران غيطانية، سمينة بما قرضت من سنابل القمح طوال الموسم، ينطلقون لا يلوون على شيء، من الحقول إلى الأجران، ازدحمت بها الأرض، تزلزلها بركضها الصموت وتسد الأفق بسحب شفيفة، فانتشر الفزع. من ناحية القرية خرج العيال، سحابة كثيفة، عيال حفاة، جلابيب على العري، سيقانهم ملتوية رفيعة، وكروشهم منتفخة، والوجوه والعيون تقرحت، والشعر أشعث، هجموا، قابلوا هجمة الفيران.. كلما دفقت المياه في الأرض بها من جديد، وجاء العيال على الصياح، تخالط الجمعان، صرخات الفرح وصرخات الفزع حتى كف الجري وأوقف الفرار وهمد العفار، وما بقي في القرية طفل إلا وقد حاز فأرين أو ثلاثة أو أربعة.

والولد حويط!.. اصطنع فتلات، لكل فأر من فيرانه الأربعة فتلة.. ربط الفتلة على الساق ربطا محكما وخلى لها الفتل طويلا، أرخاه ومشى يمسك أربعة الحبال في يده مسكا وثيقا، وعند آخر الحبال تترقص وتتلعب، يوقع لها بالإرخاء والشد. تنوي أن تفر فيرغمها الرباط، وتستمر اللعبة، رقصة رهيبة، والطفل سعيد بشغبه وانتصاره.. تمادى، فدق وتدا في الأرض، وأحكم فيه ربط الفتلات الأربع، كل واحدة تنتهي بواحد من فيرانه. تركها تجري والأحبال ترغمها على الجري في دائرة مركزها الوتد، والولد يجري يطارد الفيران على محيط الدائرة، يصفق ويذكر ويتراقص، والجري دائب والدائرة لا تعرف الاكتمال أبدًا، حتى تعب الصغير، جلس وحيواناته واقفة جامدة ينبض في كروشها النفس.

قال الولد لنفسه وفي يده الأحبال الأربعة، إن هذه إلا أبقارنا، لنعلق في رقبة الواحد منها حجرا، ونوثقه إيثاقًا شديدا، وأطلقها تسير

والأحبال معه، وإن أبت السير جذبها، تعلو الساق المربوطة وتمشي الفئران ينقلون ثلاثا ويجبذون الحجارة، الولد يصيح بها صيحاته بالبقر ويضربها بالعصا، ويسرف في الضرب حتى ماتت، كل واحد منها داخ وانتفض وقاء دما.

هكذا ماتت فيرانه الأربعة، فانطلق ينظر في أمر الأطفال. أرض الجرن مغطاة بجثث الفيران، يركلها، بعض الصغار في أيديهم بعض من فئران يلهون بها، لقد ملها. لم يطل النظر ولم يتوقف بهم، مضى، الحقول ملئت بالماء حتى فاض، اندلق في الجرن صانعا بركة، وقف الصغار على الحافة يدورون بها ويقذفون الماء بالحجارة. لحق بهم. البركة مملوءة فئرانا تقوم تخبطها قذائف الطوب تصيبها فتغوص، أو تطفو لتنصب القذائف عليها مرة أخرى. والشواطئ محروسة، كل فرار مدرك، يضرب الفيران فترجع إلى الماء. صاح الولد أن آه لو كنت أطلقت بقراتي هنا.. وأخذ من الطوب يقذف إلى أن غرقت الحيوانات في الماء العكر.

والوقت صار إلى اصفرار الشمس، والمغرب وشيك. آب العيال. يمشون في جماعات، يضحكون، ويلعبون شقاوة، لكنهم المتعبون. يحكون عما كان من أمر الفئران.

آه يا ولاد..آآ

حالات الجسد

ركب عربة عسكرية يقودها جندي، واثنان آخران يجلسان في المقعد الخلفي، صامتين ملتبسي الوجهين بمشاعر غامضة، أمامه تسير ناقلة وقود، هو في حراستها. يعرف أن طائرات العدو تغير على طرق النقل التي تسير عليها قوافل الإمداد، ويعرف أن الفترة التي تمتد بين الغارتين عميقة الصمت وشديدة الإملال، تفصل بين بأساء الحرب.

وهو بذلك يكره العدو حين يهجم وحين يتركه ينتظر الهجوم، لكن أي نوع من الكراهية تملكه..! ليست أبدا هي التي سودت قلبه يافعا وشابا في قريته البعيدة عن مرامي النيران، الآن يعرف جيش الأعداء، يعرف أفراده، يرى وجوههم، الأيدي تحرك آلات الهلاك، الأجساد الغضة تُردى بالرصاص وتُطعن بحراب البنادق، المعرفة إذن حميمة، كيف يقتلهم أيضًا، ويخاف إلى الرعب أن يقتلوه.

عربته العسكرية تسير خلف ناقلة الوقود، تئز دواليب العربات في جوف الصمت، ثم إذن ينقسم من أزيز العربات صفير طائرة مغيرة، تنبه جسده، اليقظة تسري في عضله أمشاجا أمشاجا على قد الصفير المحلق. التفت إلى جنوده الثلاثة، يسمعون وتقتم الوجوه وتزم الشفاه وتضيق العيون، أمامه تدب الناقلة. هل تأرق سيرها؟ والطريق آت من عمق سحيق، مرسوم مجراه بالأسفلت، وحواليه فراغ مزحوم بتلال الرمل. والصفير يجيء من خلف السحب، يرطم القمم الرملية، ويتردد مضطرب الأصداء، تصلب جسده. انتبه، زفر، تحكم في المشهد على جانبيه وأمامه، يأتي من خلف الناقلة، يوغلان في الأفق بطيئًا. ينتفخ قلبه والمخ بالصفير من ثقبي الأذنين اللذين اتسعا بآلة الخرم المدومة، انقضت الطائرة، وقفز الجنود ولحق بهم، انبطحوا.

دفن وجهه في الأرض خلف نبتة جعضيض ملتفة. أنفاسه تجذب له ريحها وذرات من الرمل الذي يريح عليه خده. تقبب رأسه، وعلت قبتها، حتى لا تصيبها رصاصات الطائرة التي تحلق وتهبط في دورات متتالية. وقشرة رأسه تعلو كل مرة لتستقبل الطلقات، ترن في التجويف في كل جسده. لكن قدميه أوغلا في البعد، سرحا في الأفق من وراءظهره، فلا طاقة له على أن يحركهما، ولا طاقة له على يديه أن يمدهما يستر بهما قمة رأسه من القذائف، والقذائف تنتشر، تصيب كل خلية من خلاياه، يحس بها، يحس الوخز في كل واحدة على حدة. وسط الألم، وسط كل هذه الضجة كان يحلم بما

حصل.

هجوم الطائرة كابوس يعاني منه الجسم، يرقبه في صفيرها خلف السحب. يشتد الصفير.

انقضت، صرخ في جنوده، ولحق بهم، انبطح على الأرض وفي أذنيه الضجيج، وفي عينيه خيال الناقلة وجسمها مرشوق بالقذائف، تميل من على الطريق وقد تخلى عنها سائقها وزملاؤه. تمضي مترنحة، جراحها التهبت نارا، حتى رست على تل من الرمال. صارت كتلة لهابة، متى تنفجر..؟

والطائرة تذهب وتجيء، وفي كل مرة تفرش الأرض بوابل من الجحيم، ثم انكشحت، اختفت، غاب صفيرها. ثم يسفر وجه الأرض عن تشوهاته، عن النار والدم، عن البقايا من الحديد والأجساد، ثم يسفر وجه الوقت عن الانتظار الممل للغارة المقبلة.

ثم قام، وقام من حوله من بقي من جنوده، تأمل حوله، مطروحون على الأرض قتلى ومجروحون يتأوهون من الألم. إنها تلك حالات الجسد، مقتول أو مجروح أو سليم، يعيش يرقب الضرب.

ترديد ألماني

اليوم من أيام مهرجان الفيلم في برلين الغربية. الميدان مضاء بالألوان الباهرة، لافتات مكتوبة بحروف براقة، ضخمة، كابسة على أرواح الخلق، ينكسون رءوسهم ويمضون في اتجاه دار العرض الرئسية. واجهتها مزينة بصور الممثلين بحجومهم الطبيعية، تنعقد فيما بينهم مشاهد مثيرة، ويكادون يتكلمون بالمقولات الرنانة، لكن أحدًا لا يسمع منهم، وعلى الأرض تشغي الدنيا بالناس.

ضيوف العروض من الناس الألمان، كل صحب زوجته، أو صحب صاحبته ليطرفها بفيلم من أفلام المهرجان، يقفون في صفوف طويلة، ينتظرون دورهم للحصول على تذكرة الدخول. يقفون صابرين وبعضهم يتسكع قدام لوحات عرض الصور، أو يستمتعون بقرطاس من الآيس كريم، كل له شأن في الاستمتاع بمسائه، لكن كلهم بسامون مهذبون، وناس صناعة الفيلم، فاتنون في ملابسهم العجيبة، يكركعون بالضحكات، ففيهم كثير من الأجانب، وعلى الأخص سود وسمر وصفر حتى شابت البيدر الألماني بحبات سمراء غالية. ويلاحقهم جيش من رجال الإعلام، يحملون آلات التصوير وكشافات الضوء وساعات أجهزة التسجيل، يتقربون بحذر وكثير من الحشمة من رجال السينما ويسألونهم. هكذا يدور المهرجان ـ وكثير من التفاصيل نسيت ـ على أشده بضجته وزياطه، إذ انشق الميدان الغارق في الضوء عن رجل أسود هائج، شرب حتى ما عاد يميز الأحوال والتزام الأدب. دار يبرجس هنا وهناك، يفيض الرغاء من فمه، يقبض يديه ويرفعهما، ويشتم ويسب، ويصدم الناس بكتفيه، بظهره، ويدوس عليهم إذا مضى متقدما.

الناس الألمان يؤمنون أشد الإيمان بتقسيم العمل، فليس من شأن أي منهم أن يوقف الرجل الأسود، إنما يخشون أن يصدمهم، يعكر مساءهم، يتحاذرون يكتمون شتائمهم ضد الأجانب، ويصبرون، وهم يتلفتون ينشدون رجل الشرطة، فلا يأتي أبدًا، الأسود يصرخ ويعلن عن هويته:

«إنه مناضل من بلدة كذا، وكم ضرب الأوروبيين بالرصاص وكم عمل كذا وكذا..!».

ثم يصرخ هنا وهناك.

الناس جاءوا الليلة هنا بقصد الاحتفال. فهذا المكان ليس مهوى

شباب النازي، الذين يمشون جماعات متحزبين متعصبين وكيف يعرفهم الناس؟ بحلاقة رءوسهم، وتكشيرة عميقة على وجوههم، وطول قاماتهم، ومشيتهم العسكرية! ليس هذا المساء، ولا هذا المكان مهوى لهم، إلا واحدا يمضي صارما بين الجمع تتقدمه جهامته. فإذا رآه الأسود تحفز، وهو حدج الأسود بنظرة يتطاير منها الشرر، يريد أن يلزمه الأدب. فإذا رأى الأسود قصده أقبل عليه وصرخ فيه وانقض عليه ينشب فيه أظافره ويضربه في كل مكان من جسمه بيديه ورجليه.

إذ ذاك انفكت عزائم النازي وطار جريا من أمام الأسود، وطار الأسود وراءه كنسر، حتى ألجأه إلى ما تحت صور العرض لدار سينما خاصة بالأفلام العارية، صور العرض لمرأة متهتكة، تأتي بحركات مبتذلة، والولد النازي متكوم عند أقدامها، والأسود يركله. ثم نظر للمرأة، وضحك لها وهو يرفع يديه مقبوضتين، ويصرخ فيها بكل قوة، والمرأة لا تبالي به.

رست عربة الشرطة جنب الرجل الأسود ونزل منها جندي برليني، هادئًا راسخًا يعرف عمله، وعلى بعد خطوات منه وقف زميله ويده على مسدسه. نصب الشرطي حول الأسود شبكات نظراته، أوقعه كحيوان في فخ صياد. ارتعب الأسود، والشرطي زاد تمكنه من فنه. طلب منه جوازه، أخرجه وهو يبربر بلغته القومية، والشرطي لا يهتم بذلك، وضع الجواز في جيبه وسأله إن كان ضرب هذا الرجل؟ وبين الكلمة والكلمة يهمس في جهاز الإرسال المعلق في جنبه. قال له الأسود إنه هو الذي بدأ بالعدوان! أمره الشرطي بركوب العربة، وهو محاط بشبكة نظارته حتى أحكمت عليه، صحبته إلى داخل العربة، في أثناء ذلك جاءت عربة الإسعاف حملت النازي. ومضت العربتان وئيدا بلا صوت، وعاد المهرجان يصل إلى أوجه من غير إزعاج بعد.

الذبح. والذبح أيضًا

هو يكبرني بعدة سنين، لكن دماثته وطيبته تقربني منه، هو قريبي، وله عندي معزة خاصة. آه على الأيام الجميلة التي انصرمت وعددتها رجوعا إلى الماضي البعيد، أيام كنا نسكن في عمق الحارة، وكانت الدنيا تعفينا من السؤال ومن همومها، وتفرد لنا كفوف الراحة نلعب حتى نغلب. وبعد اللعب كنا نجلس نتسامر. وكان يخصني بأسراره، ما يشغل فؤاده ويثقل على احتماله، وأنا أسمع مبهورا، وأعتقد في قلبي صرة على ما سمعته منه لا أفرط فيه أبدًا.

كان واحدًا من عدد كبير من الإخوة والأخوات، أسرة أضر بها الفقر، وضرب بالصفرة في جباه الإخوة والأخوات وكسر العيون بالذلة، والابتسام بالخجل الحيي، والتقلق إزاء ما هو مقسوم، كلهم يسكنون في بلاقع دار مكنوسة من كل آثار الخير والعمار. والرجال في وسط الدار ينظرون، كل واحد منهم استأثر بغرفة له ولامرأته وعياله، أما النساء الأخوات فقد ارتحلن عن المطرح بالزواج، وملأته النسوة الغريبات نسلا وصخبا وزياطا وكيدا، كل تكيد حتى يتسع لها الشبر الذي يخصها من الدار، ويتآمرن ويتشاتمن ويسرقن، والرجال صابرون، كلهم يكتمون الغيظ، طيبون ويضحكون. أما هو فإنه يدور حائرا مثل ظل منكسر، يتقلب بتقلب الضوء. فإذا ما جن الليل صعد إلى السطح لينام لليالي الصيف، يدني جلبابه ويثني ذراعه وسادة لرأسه، وفي الشتاء ينام في وسط الدار مدفونا في كومة التبن، ويأتي إليَّ في أماسينا يضحك، يحكي لي الحكايات، وأضحك، لكن مرارته تعديني، وينتهي وقلبي مفعم بالمر من طعم حديثه.

ثم كانت خطبت له فتاة عروسا، جاء لي بخبرها يحكي، تجاسرت أسأله عن سر نكده من حظه بالزواج: قلت له:

ـ ألست سعيدا بالفتاة زوجة لك؟ ماذا بها؟ قل لي يا أخي ونورني..!

قال لي:

ـ إن على الواحد إذا كبر. أن يتزوج، ما للرجل في ذلك بد..!

سمعت مقاله وشدهت والتبس عليَّ الأمر، وتعست للقران ما فيه مسرة لقلب، وأخيرًا ضحكت على ضحك قريبي، وأصبحت الدنيا تسألني وتعنف في سؤالي، وأترحل في الأرض وراء أجوبة المسائل. آه لأيام اليفاعة، وإرخائها الحبل لي فتطيب لي الدنيا والعيش، كل آن يلذ لي أن أرجع لبلدي وحسان الذكريات، وأزور

قريبي. وفي كل مرة وجدته جالسا قدام داره يلاحظ بضعة من المعيز. وأنا أحب هذا الحيوان، إنه نظيف وأنيق وألوف. قال لي قريبي:

ـ إنني أتركهم يدرجون في الحارة، يرعون في البقايا، يسمنون، وفي ذلك ييسر الله الرزق..!

ارتجفت بما تخيلته من حسان المعيز معلقات بالحبال يسلخن وتبقر البطون عن الأحشاء. وأنا شارد خايلني شبح امرأته، صفراء ذابلة تحمل إلى صدرها وليدها يبكي علته، يزن على إيقاع تربيت الأم وترجيع كلمات بكائية.

وما عدت مضطرا لخوض حارتنا حتى آخرها نشدانا لبيت قريبي، إنه ابتنى على رأس الحارة، قام من فوره يستقبلني،، ألقى من يده بسكين الجزارة، ولحم عظيم معلق بالحبل، وجلبابه غارق في بقع الدم، حياني، وخلفه من ورائه في وسط داره امرأته الجديدة، زوجة له فحلة مشغولة بأمور المعاش، وهو يشد على يدي ويضحك، وأنا لم أعد أضحك على ضحكه. صمت كنت موشكا أن أقول له:

ـ يا قريبي. كف عن الذبح. كف عن الذبح يا أخي..!

لكن الدنيا ما تركت له خيارا.

ولما خرجت من حارتنا قاصدا السفر وجدت قريبي وفي يده حبل ومعه اثنان من مساعديه يحيطون ببهيمة، شابة فارهة من الجاموس، يدورون بها، وهي حذرة فطنة تعرف قصدهم. عيناها واسعتان بالرعب، وعيون الرجال ضيقة بالشر. تدلي البهيمة رأسها، وتشرع قرنيها متحفزة، وتدور حول نفسها بدورانهم حولها. إذ انقض قريبي على الجاموسة انقضاض النمر، يشبك الحبل في ساقيها، وجذبه فألقاها على جنبها، وأسرع المساعدان يركبان الشابة، فإذا بها تلقي بالرجلين، وتنهض تخلص سيقانها من الحبل وتستقيم واقفة، حية في مواجهة الموت، لم أر مثيلا للهاثها والرغاء والرعب في عينيها، وقرناها مشرعان حذرالهجوم.

وهاجموا، كبل قريبي أرجل الذبيحة، وركب الرجلان على رأسها وبرقت السكين. لمعت. مضت مسرعة ملهوفة في لحم الرقبة وتفجر الدم، فاض نهره. أمشي طريقي إلى المحطة، أمر بالناس والدور، تخايلني نوافير حمراء تصبغ كل شيء. تذكرت أنني لم أقرئ قريبي سلام المسافرين، إنني لم يكن لي في ذلك خيار.

مطر...!

إنه الشتاء! غلقت من دونه الباب والنوافذ، لكن المطر ينهمر في الخارج، والبيت معتم رطب عطن. تنظر حواليها وتنصت خائفة. عليها اليوم أن تبقى هنا وحيدة في حبس الغرف. اليوم الأحد عطلتها المدرسية الأسبوعية، أما أبواها فقد ذهبا لعملهما. لا بأس! ينبغي على الواحد أن يجرب الوحدة أحيانًا، وأن يألف معايشة الخوف وسلطان الصمت.

قامت من على الأريكة في الردهة تاركة وثارتها ودفء مطرحها لتخوض البرودة القليلة الضوء. تمشي خطى حذرة مترددة، كأنما تخشى مجاهيل متربصة، صوت المطر والريح متواصل ملحاح، تقطعه انفجارات فجائية راعدة مكتومة، زمجرة عناصر اليوم الشتوي في الخارج تدق بقبضات هائلة على الجدران، توشك أن تطبق على شرنقة وجودها بالبرد والبلولة.

تنقل خطاها متلفتة، ماضية إلى غرفة نوم أبويها، يقابلها الصمت الرطب، ورائحة النوم ما زالت، شيء يصحو في غرفتهما إذا غاب الأبوان. ها هو هنا الآن يتسلل إلى أعماقها من مسام كيانها يملؤها تأثما وشغفا، يأخذها إلى حضنه الناعم الوثير، ويهمس في رقتها همسا مدغدغا دافئ الأنفاس، جلست على حافة السرير مستسلمة. أغمضت عينيها على رسمي الشباكين في الحائطين، ضوء فضي يتسلسل من فرج المصاريع المحكمة الإغلاق، يتشعشع في حرير الألحفة والحشايا ورسوم البسط، وصور الحائط.

صوت الشتاء مدمدم، يضرب في قلبها، تبقى حبيسة الغمض، تحب غرفة نوم أبويها، غابا عنها فأصبحت لها وحدها، وسرها القليل الضوء الثقيل الريح الحريري الوثير المهول بالصور والرسوم وجسوم السرير ومائدة الزينة والخزانة، فتحت عينيها على مرآة خزانة الملابس قدامها. وجهها شاحب وسيم أثار فيها الحزن، أحبت نفسها حبا حميما حتى ترقرق الدمع في مقلتيها.

جسدا الوالدين بصما مكانهما متباعدين يفصلهما نتوء مستطيل على حاشية السرير، أي صمت عميق يعمر المسافة الفاصلة، من خلف ذلك كان صوت الأب يأتي غاضبا منذرا، لكن له رجع باك، وأم لها جواب عنيد متشبث مقهور، ترفع البنت عينيها إلى مرآة الدولاب، في الضوء القليل تلمح الظلال والحمرة، حول عيني أمها وفي عينيها أيضًا.

عناصر اليوم الشتوي تنشر في جسدها الخوف، وفي قلبها اللهاث. أهي العناصر رهينة باليوم الشتوي، أم لها في المساء، في ردهة بيتهم، رجع صارخ مكتئب؟

الأب تحلق عيناه حول الأم، مليئتان بالقهر والمذلة، وجهه محتقن مزرق، والأم محلقة حول وجه العم، شفتاها حلوتان عقيقيتان ترتجفان، وفي عينيها غسق، ويداها توشكان أن تمتدا على وجه العم، تأخذه بينهما، وتضغط على وجهه الشاب في قوس يديها السمراوين النعماوين وفي آخر المساء تذهب البنت إلى فراشها ومعها أحلام جميلة.

وابتسمت لنفسها في مرآة خزانة الثياب، والدمعتان تترقرقان في عينيها مثل لؤلؤتين صغيرتين، والمطر ينهمر على مصراعي النافذة من الخارج حتى يتغبش الزجاج.

أمها حكت لها أن سائق الحافلة انحرف بها من شارع «وادي النيل»، وصعد مع شارع جانبي «إلى ميت عقبة»، إلى حيث باب بيتهم، والركاب مذهولون زائطون يصرخون يسألون ماذا غير من مسار الحافلة؟ وأنا واقفة بجوار مكانه خلف عجلة السواقة، مندهشة، أتنفس بقوة، قلبي يخفق، مزهوة بساعديه الهائلين، يدير بهما العجلة، ويطير بالحافلة كأنها مرهونة بقوته الخارقة، ووجهه مزده باللون الرائع. حتى نزلت على اندهاش رواد المقهى وضحكاتهم، التفت له، في عيني رجاء وشفتاي ترتعشان، لو يحملني إلى شقتي، إلى زفافي.

قلت له:

ـ إنك لن تقود حافلة بعد!

والأصوات في أذنيَّ، زياط الراكبين وضحكات رواد المقهى. ارتعدت وأنا أقول له:

ـ إنك لن تقود حافلة بعد!

ثم اشترت له الأم عربة صغيرة (عربة أجرة) يدور بها في المدينة كل يوم، وفي المساء يأتي لأمها بالحساب، تصنع الأم الشاي، والأب يرفض كوبه كارها حقودا والبنت الصغيرة تنطوي على نفسها في ركنها خائفة.

ولكنه يأتي حينما تكون البنت وأمها وحدهما في الشقة. ترتجف

البنت من تذكرها. تنصت لصوت المطر، لم يعد ينهمر سياله على مصراعي النافذة، فقط قطرات متباعدة حزينة.

أمها تفرح بالعم متحررة معه متبرجة مزدانة، وهو مرح صخاب، والبنت تضحك لهما. والآن تصل فرحتهما إلى الأوج. حينئذ ينبغي عليَّ أن أذهب لأشتري له علبة سجائر، سيحدث هذا حالا أو بعد فترة من الوقت، إنني أنتظر دوري، ثم تنتعل حذاءها. أمها تنظر في أعقابها متعذبة العينين، والبنت تبتسم لأمها مشجعة، وخرجت من شارعهم إلى ظهر المدينة.

المدينة حلوة. الدكاكين حافلة بالأشياء، قمصانات، وتنانير، وأحذية ملونة بالذهب وقوارير العطر. ومشت البنت، تظل تمشي حتى تدوخ، حتى جاعت. تنبهت على رائحة الشواء. ستشتري لنفسها شطيرة محشوة باللحم. لن تلومها أمها، وسيضحك العم، يدللانها هما الاثنان. أكلت، ودارت، ولفت، حتى فات من الوقت ردحا طويلا.

رجعت، صعدت السلم مترددة، طرقت الباب حذرة. فتح لها العم، والشقة رائحتها مكتومة، واللون في وجه الأم مزده قاتم، أمها تعدل ثيابها، رائعة حينما ينفرج طوق الثوب، وينزاح فضل الذيل، فتخجل الأم ويخرج العم.

من مجلسها على السرير قامت. فتحت خزانة الثياب، تقلب في ثياب أمها، نظيفة مرتبة، معطرة. قالت لها أمها بعد أن انصرف العم:

ـ اشتري لي هذا، هذه القميصة المحلاة بالمخرمات، ثم اشتري لي زجاجة عطر، ثم اشتري لي عمامة، أضعها على رأسي فوق خماري، ألا ترين أنها أشياء رائعة؟

البنت تمشي بيديها على حرير القميصة، تمشي اللمسة في ذراعي البنت إلى جسدها فيعلو نفسها، يسمع بعد أن انقطعت قطرات المطر، ونورت الغرفة من الشمس التي طلعت في الخارج.

الغرفة صامتة، البيت كله صامت، لا يسمع أبدًا إلا صوت حفيف أنفاسها. بدأت البنت تخلع ملابسها. وقفت عارية قدام مرآة خزانة الملابس. نظرت، اللون الوردي على جسمها، ويقتم هنا وهناك. لهثت، عانقت اللاشيء، ضمتها لنفسها بقوة، تميل برأسها مغمضة العينين لتستر حالها عن ذاتها.

أحست به من ورائها ـ العم ـ برودة جسمه تلامسها، اقشعرت ولهثاتها تتلاحق. انطبع عليها، وصار دفيئًا. عزمه ونتوءاته تنوشها،

ساخنة، وهي تتقوس للأمام وهو يلحقها. حمى أنفاسه تكوي رقبتها، يجمعها بساعديه ويحكم التصاقه بها. ضاعت لهثاتها في اشتجار أنفاسه، ثم صرخت، صرخت مرعوبة، فتحت عينيها، كانت وحدها في مرآة خزانة الملابس. التفتت لترى أمها متمددة على السرير إلى جوار عمها. ضحكت لوهمها أنها تراهما. هما ما زالا خارج البيت، وصورة أمها جنب عمها صنع خيالها. ضحكت. ضحكت لأمها ثم قالت لها:

ـ يا أمي، أتأذنين لي يا أمي أن أرتدي ثيابك؟ وأتعطر بعطرك؟ وألون أظافري بطلائك، وأحمر شفتي بأحمرك؟ أتمنى أن أكون حلوة مثلما تكونين يا أمي!

ضحكت الأم، وضحك العم، والبنت ضحكت مكركعة في وجه أمها وتبادلت نظرات خفرة.

بدأت تطلي أظافرها، وتعنى بوجهها عناية العروس ليلة دخلتها، ثم تعطرت وتناولت القميصة الحريرية البيضاء المحلاة بالمخرمات. ثم ارتدت التنورة الطويلة من الكشمير الأسود، وتخمرت بطرحة أمها البيضاء. وضعت العمامة فوقها وشدت أشرطة العمامة المذهبة، تلفها فوق رأسها، اكتملت زينتها، البنت صارت فجرا مشرقا في مرآة خزانة الملابس، أتخرج بزينتها هذه؟

الحيرة في عيني الأم وعيني العم، في رقادهما متجاورين على السرير، تتوسل إليهما منكسرة الصوت تقطع كلماتها لهثاتها:

ـ يا أمي، الشمس في ظهر اليوم الشتوي كأنها صبح مبكر، صبح مبلول والناس فرحانون، يزيطون بظهور الحسن في المناخ، ألا أنزل يا أمي ليزفوني عروسا؟ قولي لي أن أنزل لهم!

ومشت خطوات خارجة من الغرفة وفي يديها حذاء الأم المزين بشرائط مذهبة وضعته في رجليها بدأت تدب من على السلم إلى الشارع مترددة فرحانة.

الناس واقفون أمام البيوت وأمام دكاكينهم في عيونهم الفزع من اكتظاظ الشارع بالوحل والزبط، كل يد تذود الوساخة عن اقتحام الأبواب والحيطان مبلولة، والشمس منصوبة فوق الشارع، تترك الألواح الذهبية لا تنجح برك السكة في تلويثها. مكبرات الصوت ترتل آيات الذكر الحكيم، وبعض الدكاكين مولعة بأم كلثوم:

أنت الأمل اللي أحيا بنوره

كل هذا وسط الزياط والصراخ والتفادي والتحاذر والضحكات على الناس الذين وقعوا وتلوثت ثيابهم، وزوج الخيل معلق في عربة تكافح الوحل والحوذي يسوطهما ويصرخ بهما، والناس يصرخون به أن أخذ عليهم الطريق فلا يستطيعون المرور.

البنت وقفت على العتبة مترددة، أتمضي أم ترجع؟ انقضت عليها ابتسامة صاحبة الدكان في مقابلة بيتهم:

ـ امض. امض. امض، تخيري لموضع قدمك بقعة جافة أو طوبة امض. امض!

فتسندت على الحائط. وبدأت تدوس على البقع الجافة، وعلى كل طوبة تصادفها، والشمس المبلولة والزياط يبعثان في جسمها نشوة عذبة. وكلما خطت يصيح الناس بها من على أبواب الدكاكين.

ـ هيه. هيه؟

حتى إذا مهوى الماء، يجتمع في عتبة غائرة، فلم تستطع تجنبها، فسقطت بحذائها في بركة الوساخة، فأسرعت بيديها تتشبث بالجدار حتى تنجو من السقوط، بذلك أفلتت تنورتها من يدها فانغطت في الماء. انطلق جمع أصحاب الدكاكين:

ـ يا خسارة الحذاء الذهبي والتنورة في الطين يا بنتي؟!

البنت تسندت خارجة من الحفر. كيف تخيلت أنها ستبقى بمنجاة من وحل الشارع. دمعت عيناها، مشت إلى دكان الخبز بعد مبنيين. اشترت الخبز ورجعت، فإذا أمها تقابلها راجعة من عملها. جاوبت الدهشة والذعر في عيني الأم بكلمات مرتبكة متعسرة:

ـ كنت يا أمي أشتري الخبز لغذائنا!

الأم مضت، حذاءاها وطرف ثوبها غارقان في الوحل، والبنت تتبعها.

حينما ولجا باب بيتهما، التفتت الأم لابنتها، تتأمل زينتها وعطرها، واحمرار شفتيها وخديها. لبثت تتأملها مليا، ثم استدارت، وأسرعت تصعد السلم. فتحت باب شقتهم، وانهارت جالسة، وهي تستر وجهها بيديها، وانخرطت في نوبة بكاء حارقة.

البنت أغلقت باب الشقة، وجلست قرب أمها صامتة، الأم تنشج نشيجا مرا. نكست البنت رأسها تتأمل وحلها ووحل أمها. تمنت أن

تقوم وتخلع ملابسها وتغسل وجهها ورجليها، وتذهب إلى حجرتها لتنام، لكنها واقعة في أسر بكاء أمها لا يفلتها.

٤/٣/١٩٨٨

الجراحة..!

- إلى سجن أسيوط

هكذا. سافرت من سجن الواحات الخارجة إلى سجن أسيوط. أزيز العربة وصخبها يضيع في صمت الصحراء الأبدي. أتأمل. حتى لكأنني أسمع ركز الصخور، يربطني بها شمس مسلطة، حارة وخانقة، يتموج ضوؤها الباهر، يتقلب في تقلب التراب، يثور عواصف، ثم يخلد لناموس الصمت.

حتى أشفينا على وادي النيل، فعرفناه من برودة نسائمه على جلودنا وجباهنا. نسيم مبلول ذيوله بمساحة الماء. والعيون تفتحت، تبصر الأشياء في ضوء قل. يا سلام. ثم نزلت من العربة مخفورا بقيد الحديد. إنه يجمعني مع شرطي، يكبلنا من معصمينا، يميني في يساره. ونحن راضيان، إنها أخوة رباط الحديد، وهي العداء يولدها القسر. يتخالطان، الإحن والمودة، أصبر، وينزق الشرطي ويثور، حتى يجد ليونتي ويرضي كبرياءه المقيد بالحديد فيئوب إليَّ برباط الذل.

إنني كنت مريضا منذ زمن طويل بالتهاب اللوزتين، وتناوبتني الحمى، وقالوا إن ذلك أثر على قلبي فضاق صمامه. إنهم زملائي مسجونون سياسيون، لكنهم أطباء، لهم سحن عليمة، وعيون تضيق بالتأمل، وأصابع خبيرة مدربة. وبعد ذلك فهم في ثياب السجن تزدريهم العين. التفوا حول الطبيب الذي يطل علينا كل آن، قالوا له شديدي التأدب: «ينبغي أن يجري جراحة استئصال اللوزتين..!» وهكذا جئت إلى سجن أسيوط، ومنه إلى المستشفى الأميري.

فرحت بالرحلة، وأخذني الهم من تكاليف القهر على ذات نفسي، فأسلمتها لعسف الشرط والضباط، وأنا صامت شارد العينين لدن الجسد، يستجيب لدفعهم، وعرضي يتسع لشتمهم. سار بي شرطي طويل متخلع المشية، يحجب عني الرؤية من أمامي، أمشي وراءه لا يحيد بصري عن كتفيه، إنما أرى الأشياء إذا زاغت عيناي في اليمين وفي الشمال. يا خلق الله. هؤلاء ناس الصعيد، يا لسحن السفعاء، وشوارب كثة وصياح وصراخ وضحك مكركع، أرقب، ثم تعود عيناي لتستريحا على ظهر الشرطي الذي يقودني إلى زنزانتي.

تأملني السجان المكلف بحراسة باب العنبر، تمطى ذلك الرجل ودفع قدميه في حذاءيه الكبيرين من خلف الترابيزة التي يجلس إليها. كلمني «ما الذي حملك إلينا هنا يا ولدي؟ علاج آه! الحق بزملائك في الدور الرابع، كلهم مريض، كلهم ينشدون بعضا من الطراوة بعد أن تقددت جلودهم من شمس الصحراء!» ثم قيدني في دفتر العنبر ونادى على

من أحضر لي بطانيتين وبرشا من الليف، حملتهم على ظهري ومشيت وراء السجان.

مشيت في وسط خلق كثيرين من المساجين، خارجين من الأبواب في صف الزنازين الأرضية. اتجهت إلى السلم. أرقى الدرج، يرهقني حملي، كلما وصلت إلى دور وجدت الناس خارج الغرف متجمعين في الشرف. الثاني والثالث، حتى وصلت إلى الدور الرابع. وفرحت برؤية زملائي. ألقيت بحملي على الأرض وألقيت بنفسي عليهم. سلموا عليَّ وعانقوني. هم مجروحون يلتمسون في عناقي جبرا لكسورهم. وأنا قادم بوعثاء رحلتي، أنشد بعناقهم بعض السلامة من تعبي. ثم جلسنا ننظر لشيء بيننا لا نراه، لكنه قائم لا يطوله لمسنا.

- طبيب السجن

كنت في انتظار طبيب السجن ليقرر بشأني ما ينبغي عليه اتخاذه. قلق في انتظاره. مرتكن على سور الشرفة أمام الزنازين. خلفي بعض من زملائي كل في شأنه، أتأمل الهوة السحيقة حتى الدور الأرضي، ثم أصعد حتى مكاني، أتفكر فيما يقولونه عن بشاعة الطبيب المنوط. أنصت لسجين صعيدي تهب عليَّ رائحة عرقه ووساخة جسده ووسخ خلقانه. أتأمل القمل كل واحدة مغروسة برأسها في جلده.

أشرد، ثم أفيق على حديث السجين الصعيدي. لست أدري لماذا اصطفاني لصداقته، وأنا صبور عليه، أسمعه ولا أجيبه ولا أرد عليه، فهو لا يسمع، إنه أصم تماما. انتابه خرق في طبلتي أذنيه، ويضغط على عصب السمع ضجة مهولة، طبول ترن فيه ليل نهار. ألهذا غفل عن القمل يرعى في جسده، أتأملها وأرثي له.

يحدثني أنه يحتاج إلى جراحة في أذنيه، والطبيب يحتاج إلى رشوة كبيرة، من أين له بالمبلغ الكبير، حتى يحوله إلى مستشفى أسيوط. ثم أشار لي، ها هو ذا الطبيب. التفت فإذا بأفندي قميء، أكرش، أصلع، منتفخ الوجه، زائغ العينين، يتلفت تلفت لص وهو يبدو أبله مخبوطا، يمشي أمام أبواب الزنازين، وحوله المساجين يلحون عليه وهو غارق في حاله، يمشي لا يلتفت.

يمشي يخب حتى يصادفه مسجون يسد عليه طريقه وفي يده سيجارة، يقدمها للطبيب. ينظر في علامتها، ثم يخرج العلبة المناسبة لها من جيبه، ويدس السيجارة فيها. ثم يلتفت خلفه إلى الممرض، طويل قذر الثياب في يده علبة معدنية لامعة، وفي يده الأخرى حافظة فيها أوراق. التفت له الطبيب، فأخرج من علبته قرصين من الإسبرين وأعطاهما للرجل صاحب السيجارة، حتى أدركني الأفندي وتابعه الرث.

التف حول الطبيب زملائي، كل له شكاية أو مطلوب من الأدوية، وكل يود أن يطيل إقامته في سجن أسيوط، إذن فهو يلبي كل مطلوبه وأنا واقف متردد في أن أفتح معه موضوعي وهو لا يلتفت ناحيتي أبدًا. قال: «أين السجائر؟» فخرجت العلب من الجيوب وتواترت عليه العزائم بسيجارة واثنين وثلاثة. أخرج من جيبه علبا تختلف علاماتها، ودس السجائر في العلب المناسبة. فلما امتلأت خمس علب نادى على الممرض وقال له: «خد..! هذه خمس علب، خذها وأعطني ستين قرشا..!» أخذهم الممرض ووضعهم في جيبه وقال له: أنا حاضر.

فجأة التفت لي وحدجني بنظرة من عينيه قال لي: «جئت تنشد الطراوة...؟ أليس كذلك؟» شدهت وصمت وتطوع زميل لي بشرح موقفي له. والرجل بقي يتأملني وأنا صامت.. هل يزن ما أملك وما أستطيع أن أهبه له. ربما. إنه في الآخر قال: «حينما يخلو سرير في مستشفى السجن أحولك عليه، ستبقى في مستشفانا حتى يطلبوك في الميري، إذن روح إلى هناك يجرون لك العملية. طيب يا سيدي..!».

وانصرف يلحقه مساعده، وأنا بقيت أنظر في أعقابه. حتى أفقت على إلحاح السجين الصعيدي. يتكلم وأنا لا أدرك مما يقول شيئًا. شارد. أفكر في صعيد مصر. سقطت الأسطورة عنه وبقي عاريا مثل سمكة مملحة. يكلمني السجين الصعيدي، ومن ناحيته تهب عليَّ ريح نتنة، قال لي: «ألا تكلم الطبيب حتى يحولني لكي أجري الجراحة؟» أغمضت عيني ورفعت قبضتي في وجهه كأنما أصرخ وقلت هامسا: «إنني لا أعرف هذا الطبيب، ولا أعرف له مثيلا في الأطباء أبدًا..!».

- في مستشفى السجن

جاء سجان يأخذني إلى مستشفى السجن. ابتسمت لزملائي وأشيائي في يدي ومشيت. وكالعادة تعلق بصري بظهر السجان وهو يمشي يتخلع يسد عليَّ أفق الرؤية. خرجنا من باب العنبر، وعبرنا إجراء القيد في دفتر الحضور والانصراف. ثم مشيت في فناء السجن. ناس كثيرون ذاهبون وآتون صاخبون وأنا من دونهم أبحث عن المبني الذي نقصده. وقد كان المستشفى قائمًا في أقصى الفناء. وكان عليَّ أن أجوز إجراء القيد في الدفتر. ثم جلست على سرير محتارا مترددا في قاعة كبيرة بها صفان من الأسرة لصق الحائطين، يخليان ممرا يشغله الممرض ومساعدوه من المساجين حتى ألفت فتمددت.

سريري قبالة سريره. تعرفت عليه. قربنا من بعضنا الصمت والملالة وسكون ورصانة في طبعه. إنه مكسور ظهره، فلف جسده بالجبس فلا يستطيع حراكا. أمشي ليمه، أجلس على حافة سريره، يبتسم لي مرحبا. إنه رجل وسيم، والنبالة في جبينه وعينيه وشفتيه حينما يتكلم

أو يبتسم. أنصت وأغرق في الراحة من حديثه والرطانة الصعيدية. بلدته في الصعيد لها اسم بلدي في وجه بحري. يا سلام. والناس هناك لهم شئون أخرى.

فإذا بهم يهلون. أقاربه جاءوا لزيارته، انسحبت إلى مكاني، وهم رجال كبار، وجدعان طوال، أكمامهم واسعة، وخيزرانات سويسية والشوارب مبرومة، أما العيال فشواربهم بعد نوايا سمراء أعلى أفواههم. اصطفوا بسريره، يتكلمون ويزعقون ويهمسون وهو صامت، واثنان من حراس السجن واقفان يرقبان. لما اطمأن بي الحال طفقت أتأمل، حتى ميزت أخاه من بينهم وأباه. هرجوا ومرجوا، وأطالوا الأحاديث، ثم قاموا، همة كبيرة، والخيزرانات في أيديهم والعمائم كابسة على الجباه. سلموا بقوة. صافحوا، ووضعوا أيديهم على صدورهم بعد كل مصافحة ومشوا وذيول جلابيبهم تطير على الهواء ثم كبس الصمت على قاعة المستشفى.

سريري والسرير الذي قبالتي، مشيت إليه، وجلست إليه وعلى وجه صاحبي الكآبة. قلت له: «ماذا يا أخي؟» قال لي: «إنه الثأر يا أخي! انطلقت رصاصة أودت بحياة عمي! ما زال يرقد ودمه ساخن! الثأر عليَّ إذا خرجت، وأنا وشيك الخروج، وإلا وقع على أخي الذي يصغرني!».

وأنا بكيت أخاه الذي يشبه عمي. يا وحدة الملامح والهموم تختلف.

وجاء الطبيب. مر على المرضى الراقدين في الأسرة، كلما مر بمريض كلمه أو شتمه. حتى إذا جاء إلى رجل يدثر نفسه، يكشف وجه ضبع بشع. مال عليه الطبيب وجر كرسيا وجلس إلى جانب سريره وبدأ يكلمه حديثا هامسا بعد أن صرف الممرض وأتباعه. الآن غرقت القاعة في الصمت، ليس هناك إلا تسمعنا للحديث الذي يجري. قال الطبيب للمسجون: «ألا تمكنني من ردفك يا بن القحبة!» الكلام هامس رقيق، فرد عليه المسجون: «شقي متاح لك يا وسخ، إلا أن تشق إليتي وتخرج الإبرة البلاتين منها. لا.» فهمس له الطبيب: «وماذا لو أعطيتك خمسين قرشا في مقابل حصولي على الإبرة؟» قال له المسجون: «أريد خمسة جنيهات في مقابل الإبرة!» قال له الطبيب: «سأخدرك وآخذها رغما عنك؟!» قال له السجين: «وأنا أصيح وآخذ بتلابيبك حتى أفضحك في الدنيا ويأخذوك إلى الجحيم!».

حل الصمت. قلبي يتقلص أحس بآلام تكبس بمقابض حديدية على صدري حتى نهض الطبيب من جنب المسجون وهو يقول: «طيب!» ومشى على أهداب الصمت ووجهه مزرق وعيناه عكرتان مما به من الغضب.

- في مستشفى أسيوط الأميري

الصبح فيها شمسه ذهب، ألواحه مفروشة على أرض الفناء، وعلى واجهات المبنى. أراه من خلال القضبان، وشبك السلك على شبابيك غرفتي. غرفة مقصية على جنب الفناء، معزولة، مخصوصة للمساجين السياسيين، وللمجانين، يبيتون بها ليلة أو ليلتين قبل أن يرسلوا إلى القاهرة، ونحن نبقى بالغرفة ريثما نعالج ثم يعيدونا للسجن كرة أخرى، نعم. هكذا.

الصبح ذهب، كأنما الدنيا مسبوكة من نضار، تنعم عيني بالألوان، رغم تعبي من قلة نومي بالليل. فقد سكن جنبي مجنون ظل يخبط ويكركب ويصيح إنه ليس مجنونا، وكنت جمهوره الوحيد، أغفو ثم أستيقظ على صراخه أفتح عينى على بهاء الدنيا وأرقب مرور البنات الممرضات لابسات الأبيض، عذاب مثل عذوبة الصبحية. خذن تعبي من جسمي إلى فتوة قدودكن، في بهاء وجوهكن، في جرس الضحكات.

وأرقب منهن على وجه الخصوص الصغيرة الوسيمة. عذبة الحديث، جميلة اليدين، حينما تحدثني يقوم بيني وبينها نهداها. هي تدل بهما، الكلمات تصاوير من حركتهما. وأنا غارق في النعمة، وهى سكرانة نشوى، تقول لي على خطيبها، والحديث حنان. إذا ما حرت الشمس انصرفت، إنها لا تأتي لغرفتي، ليست مخصوصة لخدمتي، آه لو كانت.

إنما تأتي بنت بيضاء نحيلة، تعبر بالحرس الجالس أمام غرفتي، تتثنى، تغني «البيه. البيه، يافندي!» ثم تغرق في الضحك وتندفع إلى غرفتي فأتلقاها في حضني، ريحها ومذاقها وكيانها الرقيق كلما أوشكت تخلصت مني، أقف مرتجفا ألهث، وهي تكركع بالضحك، تحقنني، تقيس لي الحرارة، تعطيني الأدوية ثم تنصرم من غرفتي بذات السرعة التي جاءت بها. آه يا خلق. من المتع التي لم تكتمل.

يفجؤني ممرض الغرفة، تسبقه ابتسامة متزلفة، يقول لي: «كيف حالك يا بني؟» يحدثني كأنما أنا زوج ابنته، وابنته وراءه. يتركها لي، وهي سعيدة بإذن أبيها المضمر، فتتيح لي نفسها، وتلبد فيَّ لاهثة مهتاجة. وأنا آخذها من كل سبيل، أحيطها، أعصرها، ويداي تتحسسان سمانتها، يخنقني ريحها وأتركها تمشي متلفتة تبسم لي:

أشتاق للشاويش العيدروس الذي تبدأ نوبة حراسته في السادسة مساء هو وزميله مسليان جدا، ويسرني العيدروس حينما يحدثني بانطلاق عن أيام ما كان في الوفد قبل ثورة يوليو. كان زمن إذا الواحد خرج فيه متظاهرا أو يناصر نائبا وفديا، يرفع يديه مقبوضتين إلى أعلى ويقول. تحيا مصر. المجد لمصر. وأنا كنت أرتجف من حديث عيدروس، بينما يرقد علينا تراب الصمت، وقلوبنا تلبص تحت أكوام التراب.

لكنه الصبح ذهبي الشمس، وأنا سأجري جراحة اليوم. أخذوني من

غرفتي على العربة النقالة، يدفعها ممرض طويل يلبس الأبيض وخلفه يمشي اثنان من شرطة الحراسة وأنا مستلقٍ على ظهري أفكر فيما سيجري لي، وكنت طول السكة، عبر الفناء حتى المبنى ساكن النفس غير قلق ولا مؤرق.

أمام المبنى ركنت العربة النقالة وجلس الشرطيان على جدار الشرفة، نحن الثلاثة يرين علينا الصمت، كل آن يخرج واحد من الغرفة على عربته، منكفئ على وجهه يفيض الدم من فمه. كلهم أجروا جراحة اللوزتين، وأنا صبرت وسكت على خوفي. بقيت أنظر حتى العصر، ثم دخلت، ابتسم لي الطبيب حتى أعطاني حقنة المخدر.

استيقظت على وجه عيدروس يعانقني، يضمني إلى صدره ويقول: «آه يا بني يا حبيبي. آه يا بني!» ومدفعه الرشاش ممددا جنبي على السرير.

- الرجوع إلى السجن

تمددت على سريري في مستشفى سجن أسيوط. كلما فتحت فمي بكلمة أو لتنفس تدفق الدم من حلقي. بقيت هكذا، أكتم الدم في فمي، لكن دموعي تتدفق. المشاهد القديمة، الأسرة والمرضى والخدم، ينقصني زميلي الذي كان قبالتي. الآن سريره خال. أسأل عن الرجل؟! خرج! آه. أتراه الآن يدبر مقتلة رهيبة لقتلة عمه؟ صمت، ربما أجيء إلى هنا مرة أخرى، في مرض آخر، وأصادفه؟ لا. يا ربي. وددت أنه لن يحدث هذا.

وينقصني أن أرى الطبيب وتابعه الرث؟ جئت بالأمس مساء فلا بد أن أراه صبح اليوم! يأتي ويجلس جنب الولد الذي خبأ إبرة البلاتين بين فلذات لحمه ويحتال عليه. أتخيل المناقشات وأبصق الدم في منديل. تأملت وجوه الناس على الأسرة في قاعة المستشفى الفسيحة. في طرفها القصي يرقد الولد بكنز بين طيات لحمه، وبعده بسريرين يرقد الرجل الذي يحتضر. قيل لي إنه منذ مدة وهو يحتضر. ويقولون إنه يخفي مائتين وستين قرشا في حق أولجه من استه إلى مصرانه الغليظ. ذلك طبيعي، وعرفه الطبيب فجاء به من زنزانته إلى هنا حتى يموت فيشرحه ويستخرج النقود بنفسه، هكذا قيل لي.

وقال لي الرجل الذي يخفي البلاتين في ردفه، يكلمني عبر الأسرة: «إنه ينتظر موت الرجل!» ويشير بيده عبر السريرين إلى الرجل الذي يحتضر: «سينهب الرجل، سينهب ماله الذي دسه ليأمنه!» قلت له: «أنت تذكره، فيأتي يتخطر!» فإذا يأتي الممرض من أول قاعة المستشفى، يوزع الأقراص والأدوية على المرضى. جاء دور المحتضر.

مال عليه الممرض. تفحصه، ثم تفحصه مرة أخرى ثم يضج بالضحك ويهتف مجنونا: «إن الرجل مات! الرجل مات!» ثم وضع الأدوية من يده على المنضدة، وأسرع ينادي طبيب السجن.

خروجه خلق لحظة صمت سكنت في قاعة المستشفى شاملة كل قلب. انشقت الأرض عن الطبيب. ينفخ تعبه وهو يكافح بقدميه ويديه القصيرتين، وخلفه الممرض واثنان من حراس السجن. كلمهما: «احملاه من سريره إلى الغرفة!» ثم كلم الممرض: «هات عدة التشريح يا ولد!» فحمله السجانان واختفيا به وراء جدار الغرفة وفي أعقابهما الطبيب. انتقلوا إلى خلف جدار الغرفة، ومعهم مشهد للفرجة، وصارت للناس صلة مثيرة سمعية بما يجري هناك.

قال الممرض للطبيب: «ألا تأخذ القناع وقفاز الجراحة؟!» فرد عليه الطبيب: «دعني يابن الكلب! ناولني المقص..!» ثم كلم السجانين: «عرياه..!» ونحن تابعنا من خلف الجدار لهاث الأنفاس وصوت الحركات المكتومة، وأنا مرتعب، أنصت لصوت المقص يقد اللحم وسط الصمت الجاثم على القاعة. وصلتنا نهنهة مكتومة من الرجل الذي كان يحتضر، جلجلت نهنهاته، لحقها صراخ الممرض وارتطام جسده بالأرض من سقوطه، واختلاط زعيق الطبيب بزعيقي السجانين. وخرج الطبيب أبيض بياض الموت، وفمه مفغور، ويداه يتساقط منهما الدم. وأنا سقطت مغشيا عليَّ.

في اليوم التالي حكوا لي أن الرجل لم يكن قد مات، إلا بالتشريح، والممرض أصابته اليقظة، وجدت حارسا من حراس السجن يأتيني وفي يده ورقة، تصريح خروجي. خرجت في حراسة السجان حتى الدور الرابع في العنبر. سلمت على زملائي السجناء السياسيين، وهم كانوا صامتين من وقع الخبر عليهم. ودعتهم متوجها إلى سجني في الوادي الجديد، ولما أسرفت في الكلام فاض الدم في منديلي.

السرى بالليل..!

خرجت من قريتي إلى شسوع الزمام، وأخي معي، أمامي لمعة القمر، يبين بهاؤها على قمم الشجرات، وعلى الورق في زمام الزرع. ومن وراء كتلة العمار، رمادية، وفي ظهري دفؤها وفي أنفي بقايا من زخمها، أمشي فيها وفي قلبي ثقلها، يتمدد حتى يأتي على الفراغ، على المعاني التي أمتعتني زمانا، تهت فيها. أتأمل فيافيها دونما تأويل.

قلت لأخي: «أتعرف، إنما تكومت قريتنا، حيث هي، وكان إلى الغرب منها، بالميل تجاه الجهة البحرية مقبرتها..!» قال لي أخي: «نعم أعرف هذا يا أخي!». قلت له إذن: «ثم زحف العمار ناحية الغرب مائلا تجاه الشمال، فالتهم المقبرة..!» قال أخي: «نعم أعرف ذلك، وإنه تخلفت عن المقبرة مقام سيدي سليم..!» قلت له: «إن الأولين من قدامى جدودنا ورءوس أسرتنا هم مثواهم في هذه المقبرة القديمة..!» قال أخي: «ذلك عزاؤنا. ويقال إن سيدي سليم هو جدنا الأعلى..!» قلت له: «لما رأى أهل ذلك الزمان زحف الخلق على ساحة الموت يبنون فيها ويعمرون صمتها بالحس والنفس والغناء للشيخ في المواسم، ابتنوا مقبرة في الشرق إلى الجهة القبلية..!» قال أخي: إن جدنا الأقرب كان يود موتاه هناك بالطرائف من كل موسم..!» قلت له: «إنا لم نر ذلك أبدًا إنما سمعنا به، إذ حكى لي أبي أن لأبيه أختا في هذه المقبرة يقعد قدام قبرها ويدللها بالأسماء، وأنا والله أحببت ذلك الجد من حكاية أبي عنه..!».

قال أخي: «درست هذه المقبرة وتخلف عنها مسجد سيدي سعد، والله هذا وسيدي سليم، هذان الضريحان هما زينة العمار..!».

قلت له: «آه. آه يا أخي. إنهم في الزمن الأقرب إلينا أنشئوا مقبرة ثالثة موغلة في الأفق البحري لا يطولها الشوف. آه يا أخي كان بيني وبين المقبرة طريق، أبد من الخوف، سكة تمشي في الخلاء حتى المقبرة. الآن على جانبي السكة بيوت معمورة حتى رسا حائط البيت لصق حائط القبر..».

قال أخي: «ازدحمت الحياة بالأحياء..!».

قلت له: «وما عاد في القلب فراغ، ولا معان غير مؤولة..!».

يطهرني ندى الليل وطيب ريحه، أمشي فيه أهرب بوجهي إلى برودة مكنونة تتسرب لي وبها ترتجف أستار العتامة الفضية، وتطير

بنات الهواء من الطيور الليلية من البومات والخفافيش والفراش والجراد والنطاط، يطرن، ينششنني في وجنتي وعلى جلد وجهي، يدغدغنني فأضحك، فرحان بالبومة. وجهها ابن أخت وجه القمر مرسوم العينين والابتسامة مخيفة تحت قوس الأنف، والخفافيش هي فيران رقيقة هشة العظام تصر في أذني إذا طارت محلقة، والفراش والجراد لا يفتك الليلة بالزرع، والبومة تعفي الجرذان من صيدها والطيور بنت النهار التي أوت إلى أعشاشها تنظر إلى السلام الليلي وتستعجب، عيناي تنعمان بالمرائي القمرية.

إذ يتلعب اللجين على وجه الماء، يتزين هنا بغمازات ذهبية، ويستضيء صدور النواهد، وتكسر تحتها ظلالا سحما. هو فردوس الغبش، يميل المنظور على «الله. الله.» ترتلها كل آن النسائم رخية رواحة، يختلج الضوء والظل بأشكال الفروع، وقلبي شهيد، وهمس الذاكرين. رنقت مفتونا ببستان النور والحلكة. تنزهت.

تطمئن قدماي بالدوس على رطوبة الثرى، كما لو كنت أدوس؟! ولا أظلع ولا تبهظني يدي. إن كانت ذبلت وعلقت بكتفي، ميتا وتحيا الأخرى بالحركات، ويرين الصمت على نصفي اليمين. ويخف عني عبء يدي إذا ما شبكتها مع الأخرى وأرحتهما على حجم بطني. وتستريح ساقي بطول الأخرى، وارتاح في متكئي، وأبتسم، وجهي مكسور بإغماض عيني اليمنى، أشتاق للتفرج على المجالي القمرية، من مستراحي، من محفتي يهدهدني ترجيع الذاكرين، وميد أكتافهم بلين الخطى، فلا يلحقني العنت، فكأنما أدوس، الأرض رطبة، والرطوبة تلحق باطن قدمي. فلا تبهظني نزهتي، أنظر، تربت عيناي على الأشياء دون تأريق البهاء البدراني، ومن اجتماع حس البصر والسمع ومن إرهاف جملة العصب تتولد البصيرة، تتبع خيوط الضوء الحريرية الفضية، حيث تنسج قبابا وقبابا وتتدلى الشراسف وبدع الزينة، وهنا وهاهنا، ويطوي فضل القماش الجميل. أكل ذلك القز نفث القمر؟ أم الحيوانات الرابضة في الجحور، أراها. بريق عيونها وأسمع ترداد تنفسها.

الذئاب على حدود دائرة وجودي، تنبعج بسراي، وتلتئم بتريثي، ويأتيني العواء من المحيط مختلطًا بنبح صدور ماكينة الطحين، دمثته المسافة والنسائم وشخصتها في الأوراق، وهدأ من الصوت ضوء القمر. وضحكت، قلت لأخي: «إني أضحك على التحذير الذي وقيت به صغيرًا، أن أميز بين الكلب والذئب، هذا مدلى الهامة، محني الذيل..!» ضحك أخي لضحكي وقال: «وأمنا أوصتنا بأن لا نفر من الذئب، بل نمشي في طريقنا ثابتي الخطو، ثابتي النظرة، تلك نجاتنا..!» قلت لأخي: «أنضحك لذكر أمنا وأبينا؟ أم هما في الدار

وخرجنا عنهما لنزهتنا المسائية أم هما خلف الأفق ونتعب بالتحدي فيه؟» قال أخي: «هما بالخيال. كانا بالخيال، وهما حيثما كانا إنما بالخيال. يستوي الأمر يا أخي..!» ضحكت وقلت له: «آه. نعم. لكنني سالم في سراي الليلي، فكلهم كلابي هذا المساء..!» الذئاب والثعالب والتيفان والقطاط البرية والجرذان والحرباوات. يا لهذه..؟ إنها تخضر إذا ربضت على شجرة في صميم اخضرارها، ثم تستحيل إلى لون الثرى على الأرض. أهي الآن أيان ما كانت في الدائرة حولي تبرق بلون الفضة؟ ثم أخذني الثقل في صميم قلبي. قلت لأخي: «لكن الثعابين يا أخي..!» فقال أخي: «إنها تقوم بقاماتها على ذيولها وتفح..!» تمشي الرعدة في بدني. قلت لأخي: «أتصور أن لها ذراعين مستوفزين، وقدمين مغروستين في الأرض راسختين، وتفح..!» قال أخي وقد مشت الرعدة في صوته: «لها لسان كالسوط يضرب، وتضرب برءوسها غاية المفاجأة، تخطف عصافير السمار، ينكتم صيؤها، وتنبتر الرغبة قبل لقط الجثة..!» قلت مذعورا: «لا. لا. ليس في مسائي هذا!» والثعابين هذا المساء طيبة. تتمدد في القمر، والنور ينزلق على ملوسة جلدها تستصفي عيونها جوهر الضوء في ماسات تخلع قلبي المشبع بحكايات كنوز سندباد. باهرة. يا للألق، والضفدعات ينقن لا تبالي أن زاحمت حتى السحالي، انزاحت، وهي تنزاح لها كيما تواصل النق. والجنادب يرهقن القوس ـ من مناشير رجلها ـ على رصفة جناحها، تصر وبنات الأرض من دود وأم أربعة وأربعين وكلاب البحر وغير ذلك، كلهن يجاوبن حدو الضفادع بالحداء، ويتقبب الأفق في عمق الترديد، وتصلصل خبطات الذاكرين، تحملني، يرجحنني، وأنا مرتاح، وأميل كلما جاءني صوت ماكينة الطحين، صفيرها ونبح دولابها، يجيئني على غير مفاجئة إنما هو مرتبط أوثق ارتباط ـ رطم عددها الجنازير والتروس وضمضمة الحجر ـ مرتبط أوثق ارتباط بنبض قلبي.

قلت لأخي: «كنت يا أخي أذهب بأختي لحد هناك بطحيننا إلى ماكينة الطحين، أركب جسم الماكينة، ترتجف وترجفني حتى أدوخ، والسخونة السائدة في الغرفة، والزن يصم آذاننا. أرى أختي والدقيق على ملامحها وشعرها من عابق أبيض» قال أخي: «كنت أراكما آيبين بالطحين وعليكما وعثاء السكة وجهد العمل..!» قلت له: «كنا ننظر، نترامق حيرتنا، والذهول، الأشياء ابيضت من النثار الطائر. مشيت أترنح حتى القادوس، أمسكت حافته بضرب الحباب يتساقطن على الدوران الساحق لحجر الطاحون، له زئير يرج الغرفة، يرجني حتى القلب. وتلك فلسفة الطحن، تنسحق الجثة في ضجة عديمة المثال، ويطير بعضها يركد على أيدينا والوجوه. ثم نئوب بالتعب وبالحزن أنا وأختى، ثم إن قلبي في قبضة الماكينة

لايزال!!» وقال أخي: «نعم. ماكينة الطحين» ونظرت ناحيتها وتاه بصري عنها. تجاوزتها، وتجاوزت الأفق إلى غيبة في التذكر، حدود يقصر عنها الضوء، أتحسس جسوم التخيلات في الظلام، وأشاور ما يحضرني من أخبار حفظتها من ذكرى للأقدمين. عن ترب هي أكوام من الهدائم، لا يقوم لها أكتاف وتنبقر البطون، والضباع وطول عوائها، لها يدان حفارتان عارمتان، وتنهش. هتفت بأخي: «يا ربي. إنا طهرنا الأرض من الخرافة، وبقيت هذه تعمر أجزاء من الخيال..!» قال لي: «وما ذاك يا أخي؟» قلت له: «الضبعة تفتك بالموتي في القبور..!» قال أخي: «يا لهفي على الخيال، من دوسه بثقال أقدام الحقائق..!» ضحكت على أخي وقلت له: «إنا كنا ارتحلنا كل مساء صوب الخرافة، أليس كذلك؟» قال لي: «وأنا أمشي على آثارها أندركها يا أخي؟» ضحكت له وقلت: «ليبق لؤلؤ القمر، وتتأبد اللمعة الفضية!» وترجيح الآفاق للأصوات وتهدج بحات الذاكرين، يعجلون السير بي، أتراهم يتجاوزون المضيء إلى ما خلف الضوء؟ ناديت: «رفيقي في سراي بالليل..!» تحسست بيدي عشواء من مرقدي العالي، صادفت كتفه. رفع إليَّ وجهه في وسامة وميسم الرجولة، ومتحسبًا خجولًا رد عليَّ وقال: «نعم يا أخي..! أنا هنا معك..!» قلت له: «أليس القمر بعد لنا..؟ ولألاؤه؟ وصدر المساء نشقق فيه بمحاريث الأحاديث العذاب؟ أليس كذلك يا أخي؟ وحسان الكلم..؟» قال لي: «نعم، الأمر كان هكذا..!» قلت له: «وكانت رفقتك لي متعة من المتع..!» قال لي: «وسائر الإخوان من الأقارب والأصحاب والمعارف. المعجبون بك..!» قلت له «خرجت بك إلى المساء..!» قال لي: «خرجت معك ومعك جميع الناس الذين عيونهم عليك. وهكذا كان موكبا حافلا..!».

يمشي بي حملة محفتى، يدرجون، يحممني القمر، أحس برذاذه فوق جلدي وتحت ملابسى. ويلطسني الهواء فأضحك أغرق في الضحك حتى أدمع. من امتزاج الضحك بدموعي انفتلت حكاياتي. أحدثه بأحاديثي القديمة، أتحدث بكل العنفوان فيما كان في شبابي. وهو أبيض فوداه وعلى وجهه الحزن قلت له: «أبعد ما تروقك حكاياتي عن البنات..؟» قال لي: «كانت راقتني زمانا..!» قلت له: «إذ ينطلق القطار في الأثير، يشف الفضاء عن اللون، وهي قدامي، أنفخ في نارها وألعب تلاعيب الساحر حتى تذوب. ينبعج قدها مغمضة مفترة وينهض صدرها. الكبرياء والأبهة. الرسالة لي. الاثنان ساعيان لي، وأنا قادم من آخر سفرة الشوق..!» قال لي أخي: «وبعد ذهبت في الكتب. قطرة حبر وبياض القرطاس، ثم كانت البنت سحرا..!» قلت له: «إذا ما حدثتني عن الرجوع من المساء. ليلتها كنت هنا، وكان القمر غاب، ونورت النجوم، يمضين يفتشن عن جدع وبنت يتواريان في الظلال بلواعج الرطم وحار العناق. رجعت

من المساء نورت في عينيك نجمتان، وأنا هنا على وجناتي شحوب المصباح، وهي تأخذك إلى مجاليها ـ تحكي لي ـ إذا انبهرت أخذتك قسرًا إلى ما يبهرك أكثر. تهصرك إليها. تتحسس وجهك والعضل والأعضاء، تغرق في حليب فمها مرغ دافئ. تصرخ بك أن الرجال سكر. وتشرب من مشاريبك..!» قال لي أخي: «إنهن ذهبن البنات. انطفأن. مضين برغبتي في النعومة، بالوجنات والعيون والثغور قلت له: «أما بعد فما تفتنك حكاياتي عن أبينا..؟» قال لي: «لقد مات أبونا وأخذ شوقنا لعناقه معه..!» قلت: «لقد مات وترك في عيوننا نظرات التيه تجاوز تخوم المرئي..!» قال: «وبقي لنا حارق التحنان..!» قلت: «وإذا تفلسفت أركب الكلمة على الكلمة وأشقق بطون المعاني لأخرج الحكمة من المعنى..!» وقال: «وأنا أسألك متى الثمرة تسقط من علياء الفرح تندثر في الرغام..؟» قلت: «أخ..!» قال: «وهي حافلة بالبهاء والزينة..؟» قلت: «إنها تضربها الآفة..؟» قال: «من رونقها لا أرى ما يعيبها..؟» قلت: «إنك ترى الآفة في جسمي..؟» قال لي: «نعم. نعم..!» قلت: «إنها لا تضير بي..؟» قال: «أنت حافل بالبهاء والزينة..!» قلت له: «آه. آه..!!» نظرت للقمر وتأملته وأحببته مزجج الحواجب مكحول العينين مرسوم الشفتين. مولع به، مشدود إليه. تنشطني المسرة. يأتيني الضحك ويروي أبدا من الحزن. من ابتسامتك يا قمر. أكركع في وجهك وتورق أكمام النوايا البهيجة. وواصلت حديثي مع أخي.

قلت له: «وبعد كنا عيالا شبانا..!» قال: «والآن هرمنا يا أخي..!» قلت له: «والبدر في اكتمال شبابه..!» قال: «اسأل مشيعيك، واسألنى، لم يكتمل القمر بدرا على أبهى منك. اسأل الذاكرين المرتلين..؟» خبطت النعش بيساري ويمناي راقدة ساكنة في جنبي. تتقلب الأحوال على ملامح وجهي، أما وجه القمر فخالد الابتسام. ميزت وجوه الناس الذين جاءوا يشيعونني. قلت لأخي: «غابت خواطري بحلو المسامرة. أخ. الآن. سقوط البهاء؟» قال لي: «ما أفجعها في كل مرة. ويا لانفطار القلب عليك..!».

ميزت خطو الذاكرين وترتيلهم. قلت لأخي: «ما الذي يقرءون في جنازتي..؟» قال: «دلائل الخيرات وبردة الأباصيري..!» قلت له: «كنت أفضل شيئا أكثر مرحا، أكثر رفقا بحالتي المزاجية..!» قال لي: «من عليك الدراويش بالقراءة إكراما لوالدنا..!» قلت له: «رحم الله أبانا..! لقد خصنا بالقراءة..!» قال: «نعم. نعم..!» قلت له: «تذكر إذ كنا نخرج لمسائنا كنا نولي وجهنا للناحية القبلية، ونخلي النسائم البحرية في ظهورنا. الآن يسرع حملة نعش في اتجاه المقبرة..!» قال لي أخي: «المقبرة حيث وليت وجهك، إن قامت أو درست» قلت له: «إن أبانا إذا أصابه الذهول في آخر أيامه كان يمشي ميمما شطر

الجنوب..! وهو إذن كان يمر بمقبرة القرية التي درست في الرواح والإياب..!» قال أخي: «نعم. نعم..!» قلت له: «إني أتلقى من يم المقبرة الريح بردا وسلاما على وجهى..!» قال أخي: «إنها بعثة مبروكة..!» قلت: «إذن. أتكون البداية بالموت؟ أم بالولادة..؟» قال: «إنك تسأل وتستعصي الإجابات..!» قلت: «إذن. خلي الذاكرين حملة نعشي ومشيعي جنازتي يتمهلون. رفقا بي. خلوني أتأمل القمر..!» قال: «إنهم محبوك، وطائعوك، والمباهون بك. انظر. إنهم جمع احتشدوا من أجلك..!» قلت: «آه. يا فرحي بهم. وفي آخر جمعهم تكون حشود النساء..!» قال: «نعم. نعم. إنهن هناك..!» قلت: «وهذه عمتي من بينهن..؟» قال: «إنها أهلكت نفسها بكاء عليك..!» قلت: «إنها المرأة. وفيها شيء من أبي. دومي يا عمتي كالقمر. اغربي واشرقي في مأتمنا. شجي صدرك عليَّ. أنا مرتاح لصوات الإناث في أعقابي. في أعقاب جنازتي..!».

زحفت نحو الغيبة، بعدما بدأ يأفل القمر، وينكسف لألاؤه، وتنمحي حدود الشجرات والزرع، وبنات الهواء، وبنات الأرض، يركن إلى قرار صامت، ويسكت الترتيل، وينقطع حفيف خطو الذاكرين، وأنا على حدود الضوء، التفت إلى أخي كلمته قلت له: «هل تتذكرني بعدُ إذا رحلت؟» قال: «بذكرك أحيا. والموت غير ذلك». قلت: «هل تودني بالزيارة كل آن..؟» قال: «في المواسم، بخير ما في كل موسم. أودك يا أخي» قلت له: «أنت جميل يا أخي..!» وصفرت ماكينة الطحين على حافة المرئيات، بذلك كبست على الظلمة. وانطلق عواء الضبعة. قلت في نفسي لنفسي: «هكذا طهرنا الأرض من الخرافة، وبقيت هذه تعمر صحائفنا والكتب..!»

القاهرة ٧/٩/٨٩

جدل الحياة والموت...!

الرعب

سحبته من ذراعه سحبا عنيفا. هي سيدة طويلة وعارمة، وبعد لم يمض على زواجهما أسبوعان، وقد جرب في عشرتها سطوة النساء على الرجال، تلقفته في أحضانها من على الباب إذا جاء في إجازة من خدمته العسكرية، تأخذه لنفسها، تهصره هصرا حتى إذا أخذها اللغب نفست تعبها لهاثا قريرا. ثم تطل عليه بعينيها العسليتين وجدائلها محلولة مدلاة. تتنهد:

ـ آه يا حبيبي! متى تنتهي مدة خدمتك؟

وهو ندي الجبين، غاسق العينين إرهاقا.

قامت. من رقوده يلمح قدميها الحافيتين وساقيها الناصعتين فيما تدب على البساط، قالت له:

ـ قم حبيبي وإلا فاتتنا زيارة عمتي العزيزة!

تفكر في هذه العمة العزيزة، إنها أهلكت ثلاثة أزواج قبل أن تسقط مريضة.

قال مجيبا زوجته:

ـ حاضر..!

وقام. خرجا. مشت تسحبه من ذراعه سحبا عنيفا.

مالا في طريقهما على دار حميه. نادت على أخيها، وأخذاه معهما. إنه شاب رقيق، يحب أن يجاذبه الحديث، لكن أخته مندفعة بلا هوادة. عرجا على دار أختها، رحبت بهم هي وزوجها. هو أشد منه في بسطة الجسم، وزوجته أدق حجما من أختها، هل يكون هذا حسنا؟

قالت:

ـ إن عمتي في غرفة الإنعاش..!

أنصت الأربعة واجمين، فواصلت:

ـ يجب أن نعجل بالذهاب، ونقف جنبها..!

ثم نهضت شامخة، ونهض الجميع. تقدمتهم خارجة.. هو تلفت حتى وجد عديله بجواره. تعلق بذراعه وهمس له:

ـ إن هذه العمة لم تقل بحقي كلمة واحدة منصفة أبدا..!

تطلع إليه عديله بحنان، ربت على ساعده، وخفا ليلحقا بالجمع.

تحلقوا في المستشفى قدام الطرقة. جاءت الممرضة، وقالت أن ادخلوا واحدا واحدا، فتقدمت زوجته لتكون هي الأولى. وهو تأخر خطوة خطوة حتى ارتكن على الحائط، وغاب عنه الحديث الهامس حتى رجعت، ودخلت أختها، ثم زوجها، ثم أخوها، ولما رجع نظروا له فدخل.

رائحة الغرفة بشعة. داخ. تسند حتى لمس سياج السرير. هو هو وجه العمة، فقط ازداد شرا، وابنتها إلى جوارها، شاحبة مثل أمها، ومثلها بشاعة.

استدار وخرج. وجدهم ملتمين على مشورة زوجته. قالت لهم:

ـ إنها في حاجة عاجلة لنقل الدم!

وشمرت كمها عن ذراعها. وتقدمت الجميع، تمشي بهم ناحية المعمل. اصطفوا على الأريكة جالسين، كلهم الخمسة صامتون. وفي مقابلتهم الأمينة مرهقة زهقانة. قالت: لنر دم من منكم يوافقها..!

وضعت زوجته ذراعها ممتلئا أبيض شاهقا على الطاولة أمام الأمينة. وجل من شكة الإبرة الوشيكة، صرف نظره إلى السحب عبر النافذة، يتأمل فعل الوقت بالضوء. يشحب مع الزوال.

وأفاق عليهم، الأربعة، كلهم مكشوفو السواعد، يبدون كاسفين. كان عليه أن يمد ذراعه. وأن يغمض، وأن يصبر على الألم. وجاء دمه موافقا للعجوز. إذن، فقد أعطاها، وقام دائخا. هل يبقى فيه من الدم ما يقيم قامته؟ سحبته زوجته من ذراعه سحبا عنيفا، وهو يمشي وراءها متخبطا.

أويا إلى فراشهما. عيناه بقيتا غاسقتين. ملامح وجهها بانت له حلمية، وهي تنهش فيه نهشا، حتى يئست منه فأغرقت في النوم.

وهو بقي يقظان، حتى آن الأوان فقام. التفت. امرأته وسيمة، ناصعة الرقبة، كاملة الكتف. حينذاك، أغلق الباب وراءه.

ملأ «أورنيك» العيادة. دخل للطبيب ومعه التحاليل اللازمة. قلب الطبيب العميد في الأوراق. تمهل في فحصها، ثم أغرق في التأمل، ثم رفع رأسه وقال له: «يا بنى،.. أنت مصاب بحالة متقدمة من فقر الدم..!!».

وقد غابت المرئيات عن عينيه، محتجبة خلف دوائر سوداء.

عمتي الحبيبة

كنت لما أسافر لقريتي أود عمتي بزيارة لها، نقعد قدام بابها في الشمس وفي عيوننا دوارنا، هنا الذي بناه جدنا ليكون بيت أفراحنا ومآتمنا. تصنع لي القهوة، أحسوها وأستمتع بها على حلو حديثها وطرفها التي لا آخر لها.

إنها سيدة مات عنها زوجها، وترك لها ولدين. وبنات، زوجت البنات وعمر الصبيان البيت بالأولاد. وهي نعم الأم، وهي نعم الحماة، تبر بالبنات وتعدل بين الكفات، فما أطول النهار، مشغولة بالأحفاد، وللعيال رجز وهرج ومرج، يكلفها طاقة من نفسها وقلبها وعقلها، تصابر اليوم بالنظر إلى بناية الدوار وجمال معماره، حتى تأوي إلى فراشها، تأوي إليه وحيدة.

فإذا ما رأتني قادما استبشرت، تريد أن تثرثر لي عن الدنيا، لكنها حذرة مني، حذر المرأة من الرجل، وحذر الريفي من ابن المدينة، تأملت عمتي، أرى في وجهها الشيخ الهرم فتاة صغيرة، وأنا طفل صغير في يوم فرحها، وهي فرحة بزوجها. زفت إليه في داره في قاع الزقاق. كان رجلا ذا دأب، ولكن كانت فيه بعض الحماقة. صبرت العمة على حمقه، ودعمت دأبه بجلدها. وأنجبت له العيال، مات منهم من مات، وضاعت من نفسها بعض منها وراء عيالها في القبر. والذين بقوا خدمتهم، أفنت شبابها حتى ابتنوا دارا جديدة واشتروا أرضا جديدة.

الآن كبر العيال وقرت عينها وتحلم بميتة تليق بها وعيناها على الدوار الذي بناه أبوها بيتا للأفراح وللمعازي. تحكي لي عن وقائع طريفة بينها وبين بنيها. حكت لي عن ابنها الأكبر:

ـ .. فقد ساقني دلالي عليه أن أسأله، ماذا أنت فاعل بي إذا مت يا بني؟ هل تقيم عليَّ مندبة؟ وتقيم لي في دوارنا مأتما، هل تعمر

الدوار في ليلتي بالقرآن من صييت مسموع، والرجال سكرانون بالقراءة وأنت وأخوك في الجلابيب الكبيرة تمضون بين المعزين تحيونهم بما قاموا بالواجب. هل تفعل ذلك من أجلي يا بني؟ وإني لأعجب من الذي ذكرني بالموت؟ وسؤال ابني عن هذا؟ ربما لم يرقه سؤالي فقد قال لي من فوره:

ـ يا أمي ما المعزى للمرأة؟ أيأخذ الرجل جلبابه عليه ويلف شاله على طاقيته، ويأتي من أقصى البلد ويترك سهرته أمام المرناة في امرأة؟ عزيزة على أهلها، لكنها في البلد لا جاءت ولا راحت، انظري يا أمي ماذا صنعنا يوم امرأة خالي، نورنا الدوار بالكهرباء وقرأ المقرئ، ووقفنا وعلب السجائر في أيدينا، والأباريق ملآنة بالقهوة ولا نجد من نعزم عليه، هكذا كان مأتمنا خلوا من المعزين، وضاع مساؤنا هباء ونحن وقوف مدلاة أكمامنا! والله يا أمي إن مت ما أنا مقيم لك معزى!

وضحكت عند هذا الحد من الحكاية!

وكانت تنتظر مني أن أضحك، لكنني جمدت. غرقت في صمت ووجهي عليه كآبة القهر.

كلما سافرت لقريتي مررت بها، فتحكي لي بعضا من نفسها وتكركع بالضحك، وأنا أضحك معها ولكنني هذه المرة جمدت وبان القهر على وجهي، مات ضحكها رويدا رويدا حتى انكشف ضحكها عن صمتنا، صمت بيننا ترقرقت في عينيها دمعتان.

طريق الموتى

انطلقت بنا الحافلة على الطريق الزراعى الذي يربط الإسكندرية بالقاهرة ربطا وثابا خفاقا مروع الضجيج، ناشرا الرعب في قلوب القرى على جانبي السكة المرصوفة. والسيارة تنطلق على حافة الخطر، وقلبي يسبح بالذي يبقيه على حجة الأمان. يا ربي..؟

أنت إذا أردت، طاشت العربة في حفرة الهلاك! آه يا ربي..! وأغمضت عيني عن النظر في المشاهد التي تترى خارج النافذة، تسلبني وتدوخني. الناس مشحونون في العربة على غير راحتهم، كل يناضل كيما يستريح، وفي ذلك يميل على زميله، فيتأوه هذا ويضج ويشكو. كل الطريق ضجيج وشكوى، حتى يذكرهم أحدهم أنهم كلهم في كف الخطر. لا حول ولا قوة إلا بالله. فيجلب الرجل الخوف من الخطر من خارج النافذة ويضع في كل قلب فتزيد مخاوفه خوفا

على خوف.

وفي خارج النافذة، وعلى آماد.. البعد يقف الريفيون يحدقون في السيارات المنطلقة على الطريق السريع، وفي وجوه الريفيين غبرة ولمسة رعب ودهشة عميقة. هذا الطريق يقسم العالم إلى ما قبله وما بعده. ما قبله القرية، وما بعده المقبرة. أي نقص يعتور العالم بهذه القسمة الشائهة؟ كيف تسد سكة الموتى إلى منازلهم في المقبرة؟ كيف تقطع السكة بشرعة الرعب والموت؟

فإذا بالناس خارجون من قرية على شمال الطريق. جمهور حافل، جلابيب وطواقي وعزم لا يقهر، وبيرق الجمع الحاشد نعش مسجى عليه رجل من الريف. هل أطال الرجل قبل أن يموت وقوفه على جانب الطريق الزراعي يتأمل انطلاق السيارات الخارق وقلبه ممتلئ بالخوف؟ الآن مات وركب نعشه وكان راية للخروج ليقف في شرعة الرعب والموت.

بدأ الزحام، جلابيب وأكمام ترتفع ملوحة ثم يزداد الزحام كثافة، والعربات تراوغهم وتنفلت من خلال الفرج بين صفوفهم، والزحام يلح ويشتد حتى تحول إلى سد بشري على السكة المرصوفة، فكان أن وقفت السيارات على ضفتي الطريق.

الآن هدأت حافلتنا، وظلت تركز سرعتها حتى انتهت إلى الوقوف في صف السيارات تئن دواليبها بلا معنى، وترتجف أجسادها، وقلق السائقين، وقلق الركاب، بينا حشد أصحاب الجنازة يفرض إرادته الرهيبة، والنعش عائم على بحر من الملامح السمراء في وجوه متعبة مفعمة، دقائق بلا نهاية، ثم بدأ الركاب في حاملتنا يشملهم حالة من الحبور الرائع، يضحكون من كل قلب، ويزعقون من كل حلق، يا سلام على الريفيين! إذا مات منهم واحد يحتفلون به بكل إمكانات الاحتفال، قرآن، وأحمال الطعام على الصواني تحمل للمعزين. وفي ذلك يمشي جمهور النعش بأقدام بطيئة على السكة المرصوفة، والعربات السائرة تنتهي إلى وقوف في نهاية الصف على اليمين وعلى الشمال.

بذلك التأم عامل القرية بعالم المقبرة لدقائق خوالد فيها انتصر الموت على الموت، وعبدت سكة الموتى إلى مقرهم الأخير. انصرم بعد ذلك موكب الجنازة. ثم بدأت السيارة تمشي بطيئا أولا، ثم تأخذ منتهى سرعتها، وفي القلوب بقايا من حديث الموت، وعلى الوجوه سحابات وجوم وصمت.

طارق ببابى

أنا أحوج ما أكون لتأمل ذاتي، وقد غادرتني زوجتي ومعها ولدي. قالت إنها تقصد أن تزور أمها، وتركتني لوحدتي وعللي، جلست مكتئبًا على ديوان الردهة صامتا، منتكسا، شاردا، حتى كبس عليَّ حلول المساء دونما نور في وجه ظلامه حتى أرى أخيلة على صفاء العتامة، تتلعب شخوص الخيال وتحاورني، وتنقض على عمق سكوني.

فإذا بي أسمع نقرا على باب مسكني، أقوم وأظلع وأنا ألهث، تخبطني أشباح الكراسي السوداء، أدمع من فرط مذلتي بضعفي، فتحت طاقة في الباب فإذا بي أرى وجه أبي في المربع الذي يصل وحدتي بقدوم والدي. فرحت. تدفقت من قلبي أنهار الدموع دافئة تسيل على جروح عمرها مائة عام. قلت لأبي عبر طاقة الباب:

ـ مرحبا يا أبي، أجئت تزورني يا أبي..! نعم. أوحشتني كثيرا، منذ مت، وأنا كنت يومها في سجن الإسكندرية، وحين علمت بموتك كتمت دموعي حتى خلوت لنفسي بالليل، آه من حزني على فراقك يا أبي! أصبحت أحدثك في الرؤى، أبثك أساي وأشكو لك من احتيال الأيام على قهري، الحلم والحقيقة في النهار، بينهما أمشي منكسرا في دروب دنياي، أهلا بك يا أبي أنت جئت تزورني..!

قال أبي يتفزز من العافية في جسمه وحوله على القول ويلوح بيديه حتى دب الخوف في أوصالي:

ـ إني قد أرقني في قبري أنك يا بني تركت سيرة الصالحين، وليس في رمضان في بيتك قرآن يرتله حافظ، وليس على مائدتك يشاركك الطعام فقير أو مسكين..!

بهرني قول أبي فصمت:

ـ يا أبي إنني لا أعرف حافظا أرتبه في بيتي، والسحن اختلطت، المحتال يرطن رطانة المحتاج، وأنا أخاف..!

استرسل أبي:

ـ الناس خير، وفيهم حافظون كثيرون، والذي احتال عليك بفقره فخذه بحيلته وأكرمه، والذنب في حيلته لله.. إنه هو يبدل خوفك أمانا ونعمة..! حوصرت بقول أبي ولا حيلة لي في النجاة، قلت كاليائس:

ـ إن داري صغيرة توشك أن تضيق بنا نحن الأربعة، نتحرك بين الأشياء في مسارب ضيقة، تكاد تخنقنا يا أبي..!

فأخذه من مقالتي الغضب، يلوح بيديه، فتنزاح الحيطان في الردهات والغرف، وتتسع وأنا يقع في قلبي زلزال الجدران تتحرك من أماكنها، ويهدر أبي:

ـ وسعت الدار، الرجل وعياله وفضيلته وكرمه، وسيرته الصالحة، فإن ضاقت عليه بما في نفسه من ضيق، اسلم تسلم، تبرأ من علتك..!

قلت لأبي:

ـ آه يا أبي، إنني أحتاج لتضمني إلى صدرك، خذني لحنانك الذي اشتقت إليه كثيرا..!

مددت يدي من طاقة الباب مشرع العينين لوجه أبي، وجه أبي مزق مسودة من الجلد، تسلخت عن العظام، حفرتا عينيه مليئتان بالدم الجاف، ومنخاريه، وصف أسنانه عارية من الشفتين تصطكان بالكلمات.. هو الموت. التفت للوراء، استند على الكرسي، سقط تحت ثقلي، فتهاويت إلى ما لا نهاية. ثم أفقت على وجه زوجتي التي رجعت في آخر المساء، مرعوبة تهتف بي:

ـ ماذا بك.. ماذا بك.

وابنتي وابني واقفان وجهاهما خامدان، والجاران اللذان ساعدا في نقلي من حيث وقعت على أرض الردهة إلى فراشي، الكل يحدقون فيَّ، همست فيهم:

ـ لا شيء.. لا شيء.. لا شيء.

الجنازة

مر بي جمهور الحزانى يحملون نعشه، يمشون مثقلين لا يبين خفق نعالهم في أرض الشارع، وأنا جالس في شرفة دوار أبي. لا. لا أمشي مع المشيعين مصطنعا الأسى حتى المقابر. لا. وإن رمقني الرجال بالنظرات الغضبى، على قعودي عن الواجب والنكوص متشبثا بعنادي، أواجه عيون الناس العاتبة لا أطرف أبدا.

جلست في مكان أبي على الأريكة متفززا، يحرك الغضب أعضائي

والقلب، أصيح ولا أحد يسمع صياحي. من زعيقي تتزلزل الدور وتميل النخلات ولا يسمع حس. قمت برغبتى. بخيالي وأنا ما زلت جالسا، مشيت لا ألوي على ترددي وأنا القعيد، مشيت حتى أدركته، والناس أطلوا، ثم لبثوا جامدين، ثم أمالوا الخشبة حتى واجهتني، وأنا علوت واستطالت أعضائي حتى فقته طولا، وكان وجهه في احتيازي، هتكت الكفن عن ملامحه، كان صفاء الموت مرسوما على بلاقع الجدب هنا. دخت. لكنني تماسكت، تمشيت في الباحة التي خلت بتراجع الناس، ألوح وأخطب في سكون الجثمان المسجى:

ـ كنت تقرأ دلائل الخيرات في صف الدراويش، وأبي يطل عليكم بالحنان، وكان يخصك بأكثره..!

وكان رده هادئا لا تتحرك به شفتاه، لكنه به يصطنع صمت الناس والبرود في قلبي:

ـ وأنا كرهت أباك بحنانه. يتخذ صورة الأب وليس هو، كنت أعيذ به هوان أبي، اقتداره على فقرنا. لكنه كان أباك فقط، ونعمت به يا أخي..!

قلت له:

ـ لا. إن الله ضربك بالشلل في وجهك، انحرف وشاه، بالسكر في دمك، وارتفاع ضغطه يزحم عروقك..!

قال:

ـ نعم. نعم. إني ميت، وأنا ذاهب إلى الله من فورى، ولي عنده عظيم العتاب، كيف حاصرني بالموت من كل سبيل، كيف ابتسرني عن الحياة، وأنا مليء بالشوق لا يفتر..!

قلت له:

ـ جلس ولداك الطبيبان بجوارك لا يفتح الله عليهما ببلسم لعلتك..!

قال:

ـ أحبهما، رجلان من صلبي، تعلما حتى وفقا، وبما حملته رحم أم الهنا وملأت الدار عليَّ. حرت. كيف ضاق علمهما بعلتي؟

قلت له:

ـ بما أنك انتزعت أم الهنا من زوجها..؟

قال:

ـ امرأتي حلالي، من ساعة ما شفتها، امرأتي لو كان عقدها معقود على ألف رجل، هي حلالي يا أخي.!

قلت له:

ـ إنك قفزت عليها في ظلام غرفتها من طاقة السقف..؟

قال لي:

ـ هي لقطتني إذ نزلت عليها من طاقة السقف، تداوي جروح جلدي وجراح قلبي بريقها، ثم حملتني إلى الطاقة خروجا. أمشي. أمشي بين الناس بوجع حبها..!

قلت له:

ـ حتى مات الرجل؟

قال لي:

ـ قطعه الله عن ظلم امرأته، وهأنذا يقطعني الله عن هنائي، عن امرأتي وولدي، وداري الحافلة بالخيرات!

إن لي مع الله عتابا!

قلت له:

ـ قطعك سبحانه عن أكل الحرام، تبيع بأربعين ما قد اشتريته باثني عشر.

قال لي:

ـ بعت للمحتاج، اشترى غير مقسور ولا مرغم!

قلت له:

ـ إنك غششت الحكومة واستغللت حاجة الناس.

قال لي:

ـ شطارتي إذا جلبت وإذا بعت، شطارتي، والحيلة هي من التجارة في القلب..!

قلت له:

ـ ضبطك مفتشو السلطة بالبيع الرديء، فحملت ذنبك ملء زكيبة حتى مركز الشرطة..!

قال لي:

ـ كسرني هذا والله يا أخي ما برئت منه أبدا..! نعمتي من نفع الناس، ونعمتهم في إيذائي..! انظر تعرف الفرق!

قلت له:

ـ ابناك الطبيبان سمنا على الحرام، لا يفقههما في فنهما تعليم..!

قال لي:

ـ لا. لا. إنما الخطأ في مكان لا يطوله ظني، مت وما علمت..!

قلت له:

ـ تأخذ فرشة الصلاة معك إلى مركز الشرطة، ومصحف القرآن، تحيي الليل في الحجز قائما بالعبادة؟

قال لي:

ـ إنما الفرشة وقاء جنبي من البرد والوساخة، وأما كلمات القرآن أتدبرها كما تدبرتها عمري، ولي فيها مع الله عتاب..!

قلت له:

ـ ما أكرمك كنت فقيرا أيها العزيز.

قال لي:

ـ كانت لي مواجع، يدوسها الناس بالترفع والعطاء، وللثروة مواجعها، مصونة في البيوت العالية، في الغرف مسدلة أستارها..!

قلت له:

ـ إن الله قدر أقدارا، رفع وحط..!

قال لي:

ـ كبرياؤك، ودفء إعزاز أبيك لك، وأنا تركت لعناصر المناخ، وكرهت أباك، وأنا رائح عليه بلومي له، استر وجهي، ولا تعق مسيرتي لقبري..!

سحبت قماش الكفن على الميت، والناس ينظرون لي. عدلوا النعش والتأموا حوله، ومشوا به، صحبوه، وأنا تركت لوحدي. عدت من الرحلة الخيالية إلى مكاني على الأريكة في شرفة دوار أبي، بردان غارق في العرق ذاهل أعد الخطوات حتى وصلوا المقبرة سجوه في قبره، لقنوه حجته ثم سأل الحافظ الناس:

ـ ما تشهدون؟

قلت هامسا مع جمهور المشيعين:

ـ إنه كان صالحا.

القاهرة في ٩٢٨/١/١٩٨

الديوان الأخير

العقاب

اليوم في هذه الدار جنون، خوار الأبقار والجواميس، ثغاء الشياه، قراق الفراخ، صراخ النساء والعيال، البخار من القدور، الدخان من الكوانين والأفران. والحمارة السوداء ـ في هذا الصخب المجتاح ـ أربعة قوائم واهنة ملتوية، وبطن ضامرة يغطها شعر شاب سماره بياض كثير، وذيل ناص كالعصا، ورقبة مهزولة تثقلها هامة هائلة هاوية متدلية الأذنين، وعيناها الكبيرتان تحدقان في الأرض بلا كلال.

فإذا ما جن الليل وكبست الزريبة بالظلام، وصَمَّت في الشقوق والقيعان حياة غريبة: صرير متواصل مكتوم، زفرات قلقة متألمة، رفة جناح منزعجة قاطعة وصرخة موجزة نهائية. تهاويل مبهمة تتقلّب في جوف الليل، والحمارة السمراء تحدق تحديقًا مرتجفًا في الظلام الدامس، لكنها لا تزال قادرة على كدّ الطريق المترب ـ مثقلة بالأحمال ـ في الشمس الحارقة. ظهرها الطويل نحل شعره وأثخن بالجروح الناغلة، تمشي تدفع أمامها هامتها الثقيلة، وعيناها الكبيرتان مفتوحتان على تراب الطريق، لا يستحثها أحد على الإسراع، عرفوا لها وقع خطوها البطيء المتواصل، كأنما هي قطعة من الأرض تتحرك متئدة في مسارها.

ألقى الولد على ظهرها زكيبة قديمة وقفز. اعتلاها. ساقاه حول جنبيها مثل مجدافين غليظين وهي مركب بليدة. الولد على ظهرها ركبه ألف عفريت: يتقافز، يصيح، يغني.. يطوح ساقيه بقوة. انحسر الجلباب عن فخذيه: عضليتين مترعتين رواءً ونضارة، والكيان الهالك يجرجر ظلاً مهتزًا على حصباء الطريق، والشمس على الامتداد الشاسع كاشفة، وهامات الشجر مطرقة، والوريقات على العيدان وجوه طفلية ناعسة، والقنوات حالمة. والبنت تسير على البعد؛ الورد على جلبابها، تسند «الغلق» على رأسها بساعديها. عروس شهية، ردفاها تحت ثوبها تهمسان، تخفق مشبوبة مشتاقة. والحارة تسير، حوافرها تترك على التراب بصمات مستديرة متتابعة.

ازداد الولد هياجًا. ثقيل الكتفين، ثقيل الذراعين، عظيم الكفين. يقبض على عرف رقبة الحمارة، يعصر الشعر الخشن بأصابعه الحديدية، يجلجل ضحكات عالية في الفضاء الصامت. استدارت البنت، ألقت عليه نظرة ثم عادت تسير. ربما أطلقت أيضًا ضحكة صغيرة! لأن الولد صاح صيحات شبقة مدوية. والحمارة تسير سيرها المتأني الذي لا يتغير. ربما أبطأت البنت، أو شلت خطواتها نظرات الولد الزاعقة برغبته، أو إرادته المتوثبة في ساعديه الهائلين

المندفعين.. ربما، لا يهم. لكن المسافة تضيق حتى تدخل الحمارة متسللة إلى جوار البنت السائرة.

البهجة تجتاح كيان الولد كالريح العاتية. التفتت البنت له: وجنتاها ناضجتان مزغبتان، شفتاها ثمرتان شهيتان. وضع كفه على قمة كتفها ـ هشة في يده ـ عيناها طاعة مدللة. تنحي يد الولد عن نفسها، يكاد الغلق أن يسقط من على رأسها؛ أنزلته وحملته في يدها.

امتلأ صدر الولد بقوة عظيمة، أحاط رقبة البنت ـ من تحت ضفيرتها ـ بيده. رقبتها نحيلة ناعمة، تحاول إعاد يده فلا تستطيع. استندت بمرفقها على وركه الممتلئة، أحاط كتفها بساعده، أدخل يده من طوق ثوبها. ثدياها صغيران ناعمان، تتأوه مبهورة خجلة، وهو يلهث لهاثًا عاليًا ولعابه يبلل شفتيه.

البنت تتعثر تكاد تنكفئ على وجهها، ملهوجة تعدل غطاء رأسها. احتملها الولد من تحت إبطها، رفعها في الهواء ثم وضعها أمامه على الحمارة. وجهها لوجهه، الغلق يتطوح في يدها، والحمارة تحتهما تسير خطوها الواهن الدءوب.

أخذ البنت إلى صدره العريض: يقبّل رقبتها، يعضّ شفتيها، يعصرها إليه. جلبابها انحسر عن ساقها، أزاحه لأعلى، عرى ظهرها وأحاطه بساعديه، دفنت وجهها في رقبته وهي تئن أنينًا مرتجفًا لاهثًا.

ثقلت خطوة الحمارة من حملها، ازداد اقتراب حشمها من الأرض حتى كان يحفّ بالتراب، لكنها تسير خطواتها المتواصلة الكئيبة الإيقاع. ألصق الولد فخذيه بجنبي الحمارة، أشرع ركبتيه أدخلهما تحت وركي البنت العاريتين، ومن ظهرها دفعها إليه حتى أصبحت محمولة على فخذيه العاريتين. قبض عليها بقوة، دفعها إليه دفعة أخيرة حتى استقرت، شهقت شهقة عميقة وانغرس سنها في لحم كتفه الصلب، وبدأت أصابعها تضعف عن مقبض الغلق حتى خلته فسقط متدحرجًا، والحمارة تسير بالجسدين المتحاضنين.

يا له من فعل شنيع حملته الحمارة السمراء القديمة على ظهرها، إثم قبيح في الضحى العالي، في هذه الشمس الكاشفة. هامات الشجر مطرقة صامتة، وجوه الورقات الطفلية تصحو دهشة، والقنوات كابية أسيفة.

احتملتِ العقاب أيتها الحمارة السمراء، احتملي العقاب الذي سوف

يحل. الويل لك.

بدأت الحمارة تهزل حتى أصبحت عظامًا متساندة، اتسعت عيناها تدمعان بلا انقطاع حتى عميت، وأصبح العمر كله ظلامًا مبهمًا مخونًا بالهمسات والصراخ والفوضى. أصابها الخبال، مطارق الرعب تدق رأسها، تنوشها، تدفعها، تجري تتخبط في الحيطان.

حديث المساء

حدثت زوجتي ذات مساء، فقلت لها:

ـ إنني مشتاق لأكل الحمام المحشو بالفريك.

مسّدت شعري وأنا ممدد على الأريكة في ردهة بيتي، وقالت:

ـ ذلك بأنك أكلت في الغداء عدسًا شحيح الدسم، إذًا تجوع باقتراب موعد العشاء!

قلت لها:

ـ لا.. إن عدس الظهر كان طعامًا طيبًا جدًا، إنني فقط أتذكر أمي.. ياربي لهذه الأم الرائعة، حينما تدس برام الفخار حافلاً بأصناف الخضراوات ولحم الضأن في الفرن..! يا الله.. يا الله.. كانت الرائحة تسكرني والمذاق..!

قالت لي زوجتي:

ـ إنني لم أجرب طهو أمك الرائع. كنت أعيش في طنطا وآتي لك مرة في الأسبوع في أول زواجنا، أنظر لا أجد في انتظاري إلا الباذنجان المقلي!

قلت لها:

ـ لا تكذبي على امرأة ميتة! أكانت تتعسنا نحن الخمسة بالباذنجان المقلي، فقط من أجل قدومك أنت؟!

قالت لي:

ـ هذا الذي وجدته والله في طبق عشائي، قطع الباذنجان مسودة بالقلي!

قلت لها:

ـ أتريدين أن تقولي في السيدة الجليلة قولك؟ أتريدين أن تسوئيها؟ وما علمك بها؟ عشت أنت معها عدة أشهر، وأنا الذي عشت معها خمسة وثلاثين عامًا طوالاً!

قالت لي:

ـ إنني كرهتها! إنني أكرهها، ليس لي في ذلك يد ولا حيلة!

قمت من رقادي، استويت قاعدًا بإزائها على أريكة الردهة، وأخذت يديها في يدي، كلمتها كلمات تفيض حنانًا، قلت لها:

ـ أتريدين الرجل الذي يكره أمه، ويحقر ذكراها، أتحبينه يا امرأتي؟ أنا لست واحدًا من هؤلاء! رحم الله السيدة الفاضلة! كنت أعود للبيت، أفتح الباب عن لهفتها، مزدهية الوجه، فرحانة بما صنعت لي عند رجوعي!

قالت زوجتي لي:

ـ إنني أكرهها، إنني أغار من حنينك إليها، كنت أتمنى لو حبلت بك وصنتك في رحمي، وأعززتك يا ولدي!

قلت لها ضاحكًا، ويداها مازالتا في يدي:

ـ بطنك لا تتسع لي يا صغيرتي!

قالت ملاحقة مواصلة:

ـ تتسع لك، ورغائبك وأحلامك، ونزقك ولعبك، وغضبك ورضاك.. ورضاك يا بني!

تركت يديها رويدا رويدا، وأرحتهما في حجرها. مشت القشعريرة في عظامي. قلت هامسًا:

ـ أنت تصغرينني بأحد عشر عامًا، ويوم تزوجتك كنت بريئة من ذلك المحال!

قالت شاردة العينين حالمة:

ـ إنني امرأة قديمة، امرأة قديمة، أقدم منك، حبلت بك، وتألمت وتوجعت، وجاءني المخاض وولدتك!

تقلصت أمام عينيها اللتين لا تراني، وبدأت أنزاح متراجعًا على الأريكة وأنا أهمس:

ـ آه...!

وهي تواصل حديثها:

ـ ليس في الدنيا امرأة لها عليك حق الولادة، أنا فقط الوالدة، بطني لا يزال يحن لك، تكومت فيه شهورًا وسنين، وأنا حملت وهنًا على وهن!

بلغت أقصى الأريكة متربعًا ويداي متعانقتان في حجري، والقشعريرة تأخذ بعظامي، وأنا أحدق في زوجتي، وصوت تردد أنفاسي يعلو، وهي تواصل:

ـ لا تشبه أحدًا إلا إياي! لا.. هذه أختك؟ وتلك أختك؟ وذلك أخوك؟ لا براء لرحمي من الحبل بعدك. أنت وحدك، لا شريك لك!

أغسطس ١٩٨٧

صانع القهوة

وأنا اشتريت لنفسي لفة فيها شطيرتان، وانتحيت جانبًا: آكل، أستطعم الجبن بالزبدة. شدني وجه الفتى المكلف بصنع القهوة هنا: واقف قدام الموقد، كلما فرغ من صنع كوب ناوله لمنتظره، أو نادى على الجالس يرقب. ألوك لقمتي، وعيناي على الجندي الذي يخدم في المقهى، أتطلع أرى استياءه وقهره، وكآبة ملامحه تستر ثوران داخله.

تذكرت عمي وابن عمي اللذين قضيا خدمتهما العسكرية ـ وكان وقتهما رديئًا ـ يأتيان بالتضرر والمواجع والشكوى، ويرحلان رجوعًا بالمدامع. هذان، وكل من جرب الجهادية، قبلهما أو بعدهما، حكاياتهم حفظت وبقيت سحبًا داكنة على الجبين وفي العينين. نعم.

تذكرت، مريرة الذكرى، إلا أن الجبن بالزبد في شطيرتيَّ بقي ملذًا.

جاء رجل عجوز يلبس منامة مخططة، وفوقها معطف منزلي من الصوف المربعات جلس إلى جماعة كانوا في انتظاره، حيوه قائلين: «يا سيادة اللواء.. يا باشا»، والرجل العجوز سَرَّهُ أن تجلت رتبته رغم ملابسه. قال محدثًا الجماعة المحيطة به: «إن الجراحة التي أجريت لي نجحت، الحمد لله، سأخرج بعد خمسة أيام.. آه». ثم كلم المجنَّد الفتى المشغول بالمشروبات الساخنة للإفطار، كلّمة دون أن يستدير له. قال يسأله: «عندك كوكاكولا؟». وهذا اقْتَمَّ لون وجهه سترا على الغل الذي يبين في عصاب يديه. قال ردًا على العجوز اللواء: «لا». وأنا قلقت. تابعت رسوم المشاعر على ملامح الوجهين، لكني بقيت أمضغ قضماتي من شطيرتي حسنة المذاق.

تكلم اللواء العجوز يكاد يصيح، وذراعاه طائران، قال: «أخ.. طيب.. عندك شاي؟ إذن آتني بكوب يا ولد!». والولد صنع الشاي، وملأ الكوب، ثم أزاحه على طرف الطاولة التي يقف قدامها. تفكرت: هل يقوم اللواء يتناول شايه؟! وقفت اللقمة في فمي. تأملت وجه المجنَّد المكلف بصنع القهوة ـ يحسن به أن يكون في قريته الآن ـ حتى قام واحد من الجماعة المحيطة بالضابط، وجاءه بشايه، ولما بدأ يرشف من كوبه بدأت أمضغ. إن الجبن بالزبد وحسن الصنعة غريبان على قريتنا.

أمضغ خبزي وأنا أتطلع إلى وجه الفتى: يرهقه كتمان تغير خاطره،

وستر الانفعالات. عجبت. أقبل ضابطان طبيبان على وجهيهما سهر الليل ومشقة الخدمة، جلسا في ركن بعيد، بذلك لم أسمع حديثهما، لكن عيونهما ذابلة في دوائر رمادية. ميزت نداءهما على القهوة في صلف مرهق، والإجابة صمت مكتوم، وأنا تنبَّهت.

صنع القهوة بالعناية الواجبة، وبانصراف أفرغها في فنجالين، نظر لهما، راقاه، نادى على الضابطين الطبيبين: «القهوة!» وجاءه ردهما حاسمًا باترًا: «احملها لنا هنا..!» وصفق أحدهما الأتربيزة التي يجلس إليها بفرشة كفه.

وأنا فقدت كلية الرغبة في الأكل، بقيت مني شطيرة، أعدت لفَّها في ورقتها، وأحكمت اللفّة؛ أراقب الذل الذي بلا آخر على وجه الفتى الموكول بالخدمة. مَرَّ بى حاملاً الفنجالين، وضعهما حيث صفق الضابط الطبيب أمامه بفرشة كفه، ثم يمر بي متدلى الذراعين ساقط الرأس كسير النظرة، إلى حيث يقف قدام الموقد.

وأنا قمت له، وقفت قدَّامه حيث يقف الذين لهم رغائب في مشروب سخن. ابتسمت له، كدت أضحك له من فرط أساي. طلبت شايا وبقيت حتى أخذت كوبي وعدت لمكاني أرشف مشروبي، أفكر في الشطيرة: هل أحملها معي إذا انصرفت؟

الضابطان الطبيبان قاما ومضيا، الفتى المجند أسرع إلى حيث كانا، منقضًا متحفزًا؛ صحت في نفسي: «إنهما انصرفا..!» لكنه أخذ الفنجالين وعاد. مرّ بى، لما وازاني استوقفته، قلت له: «هل لك في شطيرة..؟» اختطفها مني، ولوح بها وألقاها في سلة القمامة. صعب عليّ أمر الشطيرة: إنها لقمة مبروكة دسمة، والواحد لا يلقي بالنعمة في القمامة.. حرام. لكن هذا فداء غضبة الفتى. إذن يسامحنا الله.

نوفمبر ١٩٨٧

ليلة رأس السنة

كل شيء بدا رائعًا: الدنيا غسقت، وبدأت المصابيح تتألق في المساء البديع. وراء المباني العالية تلتقي السماء بالبحر في الأفق القريب، تختلط حمرته فتلون الجهة الغربية بالقرمز والأزرق الخطيف، من هنا، من مكانهما في شرفة شقتهما، تحجب عنهما العمائر جمال البحر ساعة الغروب، لكنهما يحلمان. الخمر مرة وحارقة، يعب عبدالعزيز منها أكوابًا مترعة، ويزري على محمد تردّده في الشرب وتألمه، وأنه يتناول كل آن شيئًا من المزّه كي يحسن ريق الخمر في فمه. يزعق فيه:

ـ اشرب يا سيدي! اشرب ودع للخمر قيادك.

ضحك محمد، وأغرق في الضحك حتى بانت أسنانه؛ أصولها يجتمع حولها الجير وبقايا الأكل ملوثة بالدماء. محمد يعالج داخله الخوف من هجمة المرض؛ إنه لم يجرّب الخمر كثيرًا قبل، هل يرزأ بنوبة من الإسهال؟ ويزور المستشفى؟ ويجيء عبدالعزيز لزيارته عاصفًا زاعقًا، ثم ينصرف ويتركني لآلامي؟ ضحك وردَّ على عبدالعزيز:

ـ أسلمها قيادي يا سيدي، عساها تحسن قيادتنا.

ورنت عبارة عبدالعزيز، وردُّ محمد حاملين تراث فحول الشرب، أكانت الخمر دائمًا مرة وشربها عناءً؟

يخفي تضرره بالمذاق والرائحة، يتناول لقمة من المزّة ويواصل عبَّ الماء الرديء.

بدأ الخدر يمشي قليلا في جسمه، والناس هنا وهناك قبالته بدأت تتلون وجوههم، والمرح يبرق في عيونهم، والابتسام بشفاههم، عبدالعزيز بدأ يضحك لهم. ضحك آخر غير الذي اجتمع هو ومحمد عليه: ضحك آخر نابت من كل جسمه، لا يمكن مقاومته، وهو ممرور في جوهره، يوشك يتحول إلى شهقات دامعة. قال محمد:

ـ اشرب يا بني. واسكر.

ضحكا. ملأ عبدالعزيز الكأسين، رفع كأسه ودلقها في فمه وبلعها، وبعدُ أحكم إغلاق فمه وإغماض عينيه، وهو يهز رأسه بعنف مستبشعًا الشرب. فتح العينين المخضلتين بالدموع، وفتح فمه وشهق شهقة قوية. فاتت تجربة الكأس مرة أخرى. نظر إلى محمد،

يعاني بعنف من الشرب. أغرقا في الضحك معًا، ضحكات لها ذيول.

القارورة من الزجاج الأخضر، مخبأة في سور الشرفة حتى لا يلمحها أحد من الجيران. احتملها عبدالعزيز في يده وعرضها للنور ليرى مقدار ما استنفدوه في شربهما. بقي فيها ثلثاها. أَقَرَّها في مكانها وقال لمحمد:

ـ هذه القارورة أهدانا الكواء إياها.

ضحك محمد وقال:

ـ إنه رجل صاحب مزاج.. في القوارير الفارغة!

وضحكا. وحضرت عبدالعزيز سحنة الكواء: وجهه في حجم منقار دجاجة، وأكمة شعره كثيفة هائشة، وهو يغني إذ ينحني على عمله، وأصابعه تشبه مخالب الدجاجة، تكشف الوسخ على الملابس المكوية.

قال عبدالعزيز:

ـ الله يلعنه.

وضحكا.

على أي حال رجع عبدالعزيز عصر هذا اليوم من الكلية ممتلئًا حماسة. دخل على محمد في غرفته، هذا رآه. تطلع محمد إلى عبدالعزيز، وهو لا يبدو عليه قصد تغيير ثيابه، أيخرج ثانية؟ وضع الكتاب بجواره، كان يقرأ من استلقاء، وأمه جالسة على فرشة قدام السرير، أنصت مبتسمًا إلى عبدالعزيز الذي قال:

ـ اليوم رأس السنة. الحق بي في غرفتي!

خرج وبقي محمد في رقاده، شقي طوال النهار بـ«مصادر الالتزام» وشقي طول النهار بثرثرة أمه. لو كانت ضمته إلى صدرها لأنصت لخرخشة الأنفاس من رئتيها، واستقر ونام.

قام، استوى جالسًا، دلّى ساقيه يبحث لقدميه عن شبشبه. يفكر: علام استقر عزم عبدالعزيز؟ ماذا نحن فاعلان في مسائنا هذا؟ خرج من حجرته نحيلا منحنيا في جلبابه الكستور المخطط. سيعبر الردهة إلى غرفة عبدالعزيز، صارفًا نظره عن ثرثرة أمه التي بلا

نهاية. أما كتاب المدني فهو همٌّ مقعد مقيم. يدوس برفق على بلاط الصالة، ويريد أن يعرف ماذا انتوى عبدالعزيز؟

وعبدالعزيز واقف في شرفة غرفته يتأمل النهار في عصرية شتوية. الجو مشمس رائق دافئ، فرح بالدفء والصحو في المناخ. النهار لا يكف طوال النهار عن الهمس. الهمس لعبدالعزيز بنوايا الاحتفال. الناس متغيرون بالحبور، يسرعون متلهفين، يضحكون ويزعقون. كل ذلك بشكل مفاجئ، يراقبهم عبدالعزيز مندهشًا، وتملك قلبه نبضات الفرح. قبالته بيت قديم له شرفة كبيرة حافلة بأحبال الغسيل، لكنها لطيفة مغسولة البلاط. وفي هذا البيت أسرة مصرية، لها بنت عذبة وسيمة العينين. البيت المجاور ـ الذي بني حديثا وله شرفة صغيرة أنيقة ـ فيه تسكن أسرة سويسرية، لها بنت شقراء رائعة. طاقة الحب لدى عبدالعزيز مقسمة بين هاتين الغادتين. أيسع السر الكامن في تلك العصرية من ذلك النهار أن يبعثهما؟ أن يخرجهما إلى الشرف؟ أن يطلعا له ليتفرجا على فرحته ويباركا سروره بأيديهما؟ وخرجتا! أتستجيبان لروعة النهار؟ أم لإلحاح دعوة عبدالعزيز؟ المصرية خرجت لتنشر جوربها الأبيض الصغير، ومنديلها المورد. السويسرية تدلي سلتها من حبلها الطويل للبواب الجالس على أريكة أمام باب بيتهم، تكلمه كلمات عربية مهشمة حاسمة باترة. ينقل بينهما عبدالعزيز بصره، يخف وزنه حتى استحال زنبورًا أحمر، يطير وينطلق، ثم ينقض على عسلهما، ثم نكص، ثم حلق. وما الزَّنُّ صوت جناحيه، إنما هو أزيز قلبه. هما عشيقتاه المستحيلتان، إنما المتاح له أجساد المومسات المرهقة المبقعة: سعدية ولطيفة وفاطمة الدّكر. فليحسن به أن ينسى ذلك، وأن يطير وأن يئز حول طبقي عسلهما.

المصرية صغيرة القد، مرسومة: هنا الامتلاء وبعده النحافة. وتكور صدرها يفتق التطريز. لا يطل، لكنه يوشك. وحلية الذهب ترتاح هناك آمنة قريرة. أتنشر غسيلها، أم تمارس طقوس رقصة عميقة الأسرار يدركها الدرويش مثل عبدالعزيز؟ اليدان تتحركان متناسقتين بديعتين، والأصابع تنتقل فتخلق نغمًا، يبدو في كبرياء جسدها ولدونته وتأوّده، ويبدو في قرمز شفتيها ووجنتيها، وسواد شعرها المعقوص لأعلى، والسواد اللامع في عينيها الثقيلتي الأهداب، تنظر ولا رأت كأنها تحلم. نظرت لعبدالعزيز وللبنت السويسرية، ثم استدارت ثم دخلت مخلية مسرح الشرفة. صار موحشًا، أتأمله، وهي تتأمله من خصاص الباب الذي أغلقته وراءها. البنت السويسرية منحنية على سور الشرفة متكئة بمرفقيها، وكفاها وأصابعها متوترة في قبضها على حبل السلة، وساعداها سارحتان رائعتان، فيهما دفء الجرانيت ولونه الورديّ، وشعرها الذهب ينساب

معقوصًا حول وجهها، وشفتاها مزمومتان، وفيروز عينيها استقر حيث هوت السلة. ثم تقوم، تجذب السلة وتطوي الحبل، ممشوقة، وحرير الثوب يبدي بيان جسمها لا التواء فيه. ركنت السلة وأخذت ما فيها، ونظرت حواليها جاسرة. وحينما صادفت عبدالعزيز عيناها ارتطمت نظراتها بحائط من الأسمنت المسلح يخفيه. دخلت دونما التفات.

أهذا الفرق بين بنتين؟ أم الفرق بين جنسين؟ أتراه يحب أيهما؟ إنه مفتون بالمصرية ومسحور بتشابك الخطوط المنحنية في كيانها، وهو أيضًا معجب بروعة الاستقامة وحدتها الوسيمة، من هنا وإلى الأبد في البنت السويسرية. أم هو مكتوب عليه واحدة من المومسات، فتهبط به الأيام عن مستوى الشرف، عن مستوى الحلم، فيظل يهوي ويهوي؟

جراءته يخفيها في الليل، في كتبه. يقرأ عن النظريات الكبرى ويؤمن، وينظر لحياته، ثم يتلو ذلك على محمد وعلى غيره ممن لا يفهمون، ولا إلى أشعاره التي كتبها في ساعات يأسه ينصتون، ثم يبقون بعد انتهاء النص ذابلي العيون متدلي الشفاه. يقلب وجهه في العصرية، يمرغ خديه في دفء الشمس الصفراء.

دخل عليه محمد قال له: إنت وشرفتيك يا حبيبي!

ضحكا. وواصل محمد:

ـ أنت لا تعرف آخر أخبار «وسيلة» وأبيها البواب، لا يأتيني من المنور إلا أخبارهما!

قاطعه عبدالعزيز:

ـ اليوم رأس السنة. سنحتفل. سنشرب حتى يظهر الخيط الأسود من الخيط الأبيض. أين قارورة الكواء؟ سننزل نملأها. قال له محمد:

ـ أغير ثيابي أم أنزل هكذا؟

نظر عبدالعزيز إلى محمد، تأمله شاردًا. ثم قال له:

ـ تعال هكذا. لا بأس.

نزلا الشارع. محمد في جلبابه وشبشبه ومشيته المستخزية المترددة، والخجل على وجهه والذبول في عينيه، وفمه مفتوح فيما

يشبه الابتسام. وعبدالعزيز متوهج، يفرط في الثرثرة، لكن جزءًا صامتًا من نفسه لا يجرؤ على الالتفات وراءً ليضبط الابتسام السافر من صاحبه، وعلى أفواه الناس في الشرف. أخذ ساعد محمد في ساعده، وقارورة الكواء في يده الأخرى. في الشارع الرئيسي فاجأتهما نسمة باردة تأذى محمد منها، والزحام وانطلاق العربات، واللهوجة الغالبة على كل مزاج. متى نرجع بملء القارورة من قاتل الحشرات هذا؟ وعبدالعزيز استثاره الزياط في الشارع وازدحام الزبائن وإقبالهم على الدكاكين. والنوافذ في العمائر العالية، تسترها ستائر المخرمات، وتفضح ما وراءها الأضواء الباهرة، والموسيقى، وسعي السيدات يقضين حوائج الاحتفال.

تلك نوافذ قلت في العام المنصرم: الخواجات رحلوا، وجاء المصريون سكنوا مكانهم. بقيت إذن نوافذهم صامتة، أو فيها رجل أو امرأة في ثياب النوم.

يومها سار عبدالعزيز في طابور الحرس الوطني. آلاف: سلاحهم البنادق الروسي، والمدافع السريعة الطلقات، عرض رائع، والخطوات تخفق مزلزلة، والقلوب تخفق مروعة. وكان قد جاءهم ضابط كبير في معسكرهم في كلية الهندسة، وخطب هامسًا، لم يسمع عبدالعزيز كلمة واحدة من خطابه. حل الصمت كاملاً، سمعه يقول: «الله معنا» وحسب أوامره سرنا في الشوارع لنقول للناس: «ها نحن ذي» وكان جنون الفرح في وجوه المصريين، وغلقت نوافذ الخواجات. لكن جزءًا صامتًا من نفس عبدالعزيز يقول: لننس ذلك. اليوم يوم احتفالنا.

وقف قدام بائع الخمر. والدكان نظيف خالٍ من أي شيء، إلا من برميل خشبي هائل مستلق على جنبه يستغرق معظم الساحة وفيه صنبور صغير، تحته وعاء يتلقى فيه القطرات. وعلى كرسي يجلس صاحب المحل اليوناني خلف قمطر. حليق مصفف الشعر، يلبس حلة كاملة غامقة ورباط رقبة ملائمًا، وأمامه راديو يذيع موسيقى راقصة وعلى واجهة محله كلام باليوناني كثير، وكلمة عربية واحدة: «طفية». وعادا بالقارورة مليئة، وتركا صاحب المحل يتأهب لإغلاق دكانه والإسراع إلى الاحتفال.

اشتريا جبنة رومي وزيتونًا مخللاً وخبزًا. فتح عبدالعزيز باب الشقة ودخل غرفته، حيث يعد الشرفة لجلوسهما، ومحمد دخل على أمه. هتفت به من خلال لهاثها وخرخشة أنفاسها:

ـ أتشربان مرة أخرى؟

ضحك لها محمد وقال:

ـ الليلة رأس السنة. كل سنة وانت طيبة.

وتركها ليلحق بعبدالعزيز.

وكل شيء استقر: الترابيزة عند ركبهما، وعليها المزة والأكواب وتحتها قارورة الطافية. وبعد أن جرعا كأسين أو ثلاثة بدت المصابيح كأنما زاد تألقها في غبش المساء الذي يعتم كل آن. ووراء العمائر العالية: الأفق مشحون باللون الرمادي يخيف والبحر تحته ساكن. في قاع الشارع همس البوابين أمام البيوت، والشرفتان خاليتان إلا من ضوء خلف الخصاص، وهجس السويسريون في احتفالهم وصمت بيت المصريين.

يتحدثان همسًا، وعبدالعزيز مشغول بما يحدث عند جيرانه الخواجات. قال لمحمد: اشرب يا سيدي.

قال محمد لعبدالعزيز:

ـ أنت لم تسألني عن أخبار «وسيلة» وأبيها وصاحبهما، وضيفهما كل مساء؟

قال عبدالعزيز لمحمد: احك.

غرفة محمد لها نافذة مطلة على المنور، الذي هو مستراح غرفة البواب، باب لها يفتح فيه، وفيه أحبال غسيلهم، وأغراض المعاش، وفرشة يفترشونها في الأماسي. محمد يتأمل «وسيلة» كل آن يطل عليها من خصاص شباك مغلق حتى اعتاد سواد لونها النوبي، فأصبح يتشهاها في قميصها الخفيف، بعد أن غسلت هِدَمَها السود ونشرتها. وجهها: فيه تغلب السمة الأنثوية سمات الرجولة، لكنها تبتسم عن صفين من الأسنان بيض، فيهما أنوثة مليئة بالرقة والحنان، وصدرها يتكور عامرًا بالفتوة وحوضها. يتشهاها محمد ويعكف على الشباك أوقاتًا طويلة.

قال محمد لعبدالعزيز:

ـ أنت تعرف الشاب؟ يأتي كل مساء زائرًا، ويجلسون ثلاثتهم في المنور.

قال عبدالعزيز لمحمد: أنا أعرف.

وهو يعرف أن زوج «وسيلة» مات، فلحقت بأبيها في الإسكندرية لم يعد لها بيت في النوبة، ولا أمل في بيت.

قال محمد لعبدالعزيز:

ـ كل مساء يأتي معه ورقة الدخان المعسل، ويلقي بها في حجر وسيلة، وهذه تعمر الجوزة وتولعها، وتطلق من فمها ومن أنفها زوبعة من الدخان.

قال عبدالعزيز: يا سلام يا سيدي.

وتعطي الجوزة لضيفها، ويعطي هذا الجوزة لأبيها، وتدور الكراسي على الفرشة في المنور، والدخان كثيف محلق، وابتسام «وسيلة» عن أسنانها البيض، ونظرات عينيها اللامعتين محيطة بوجه الضيف، ووجهه الطفلي العذب الوسيم ناكس. هكذا: تبادل حنون بين الشابين، في جلسة يتحول فيها ثالثهما مغفلاً.

قال محمد لعبدالعزيز:

ـ كنت أظن أن الأب جالس في حراسة كنز ابنته، لكنه ثار بالأمس لإهمالهما إياه، وخرج عنهما، بقي بعيدًا ساعة. تصورت الولد سيقفز على البنت، أو البنت تأخذه في حضنها، لكن الأشياء بقيت رائقة: تعمر له الجوزة، يدخنان في صمت، حتى عاد الأب.

صاح عبدالعزيز صيحة حرى: آه. آه. يا قلبي المحزون.

قضت عليه الخمر، وأرضت جسمه، وألهبت ظمأه للشرب والأضواء تتلعب، والشرفة صامتة، والأخرى الثانية واشية بزياط وصراخ. أيستطيع أن يميز صوت صراخها؟ هل فيه قدرة على أي تمييز؟

قال عبدالعزيز لمحمد وقد اتخذت ملامحه سمة جدية:

ـ عن «وسيلة» أقول لك إن الزواج مؤسسة فاشلة، الرجل ترك زوجته وعياله في النوبة، والزنا كيف يكون بامرأة تخون زوجها المقبور، وبرجل متزوج وله عيال. فضيحة!

ثم صمت، أفرغ لهما كأسين. جرعاهما، ثم واصلا شربهما في كآبة ومرض. تفكر محمد أن حكاياته تسبب الكدر، وتفكر عبدالعزيز أن حكايات محمد هي مصيره المرتقب.

انفتح باب الشرفة في بيت السويسريين. وخرجت ثلة من شباب المحتفلين وفي مقدمتهم البنت وأثيرها، يدلقون الخمر من القوارير الفاخرة، ويرمون بالأطباق الصينية، فتهوي وتتهشم بأصوات مفرقعة، وينطلق صراخ الفرح من الشبان. البنت السويسرية أحاطت رقبة أثيرها بساعديها، وقبلته في شفتيه، صفقوا لها ـ رفقتها من البنات والصبيان ـ ثم دخلوا جميعًا وأغلقوا باب الشرفة وراءهم.

صدم عبدالعزيز، تكلم وهو دائخ:

إنهم يدلقون الخمر الباقي في القوارير من العام الماضي، ويكسرون الأطباق القديمة.

كلم محمد نفسه: ذلك؟ أم حرقتك القبلة على فم الولد؟

وعلى وجهه ابتسام غامض، ووجه عبدالعزيز ساقط أسيف، تكلم بطيئًا:

ـ ليس أمام «وسيلة» ولا زنا. أترى؟ ليس لها إلا أن تبادل حبيبها نظرات مقهورة.

ثم اشتعل وتوهج فجأة، وتنفس بقوة، ثم قال:

ـ لننزل الشارع، لنر كيف يفعل الناس بعام مضى وبعام مقبل. وقبل ذلك كأس للطريق.

في الشارع الرئيسي أمم غفيرة، يسيرون في شكل تظاهرة. يهتفون بالموت والحياة لمأفونين لا يعرف أحد عنهم شيئًا، يتفرقون جماعات شتى. يضحكون ويكركعون، ثم يصرخون. يلم شملهم من يتبرع بالهتاف لهم، ويردون خلفه. وفي الشرف والنوافذ وجوه مصرية مجنونة بالفرح، يزعقون ويضحكون ويصخبون، وفي أيديهم الجرادل والحلل المليئة بالماء، يدلقونه على رءوس الناس.

ضحك محمد حتى كاد ينقلب على قفاه، وهو يقول: إنهم يدلقون خمر عام انصرم.

وفجأة سقطت عليه دفعة ماء أغرقته تمامًا. رآه عبدالعزيز يترنح في وقوفه، ويشهق شهقات مكتومة، حتى أوشك أن يسقط.

١٩٨١٥/٩/٨

قفز وراء السنين

كنت وشيكًا راجعًا من غربتي الطويلة، وعائدًا لقريتي، وجالسًا في شرفة بيتي. الشفق يجلل أطراف الأفق، وأنا أتأمل حلول صمت المغربية في الشوارع التي تمتد، ترفعها الكيمان وتهبط بها. والبيوت حراس على ملامحهم كآبة المساء المقبل. ناكسة مثقلة تنتظر، أن تضوي المصابيح المعلقة في العمدان حاملة الأسلاك الكهربائية، فلعلها تضيء، تكسب لون المساء الكابي لمعة مترقرقة.

وقد كان، أشرعت عيني في قطرات الضوء الساجية المتباعدة، وعرضت شبح ابتسامتي للنور، أرهفت سمعي لأنفاس الحياة المقبلة من الشقوق والفرج بين كتل الصمت القائمة.

تيار الحياة لا يأبه بي. إنني لست واحدًا من البارزين من أهل قريتي، إذا رجعت من غربتي سلموا عليّ ورحبوا بي، ثم تركوني لوحدتي بعد ذلك، فلم يكن لي إلا أن أقفز وراء السنين، أستجلي مشاهد الحياة التي كنت أحياها في زماني، وأنا جالس في شرفة بيتي. بيتٌ مبنيٌ من اللبن، وحوله تشمخ البيوت مبنية بالخرسانة المسلحة، تنورها الكهرباء، وبيتي محروم من التيار وليس فيه مرناة، فأبقى في صمتي أتأمل المغربية تقبل بأنفاس الحياة الثرة.

ها هو ذا تيار الكهرباء يمشي في أوردة الأسلاك، فينفخ الحياة صخابة في جسد القرية. المصابيح تُوسِّع للعيال ميادين اللعب في الشوارع فتكتظ بهم، وبالرجال وبالنساء يمضي كل واحد في سبيله. يرتفع مُكبر الصوت على سطح الجامع، ويرتفع صوت المذاييع، وتضاء شاشات المرناوات بضوئها الفضي، والشخوص يتحاورون ويأخذون ألباب النظارة فيثيرون الضحك والدموع.

فإذا بي أسمع زغاريد. ضحكت لنفسي: ها هي قريتي تنصب مهرجان المساء. وإذا الزغاريد تلح، وغناء البنات. إن هذا زفاف العروس. كركعت لنفسي بالضحكات وصدى ضحكي يبين على وجوه الناس العابرين، ويهلل العيال ونحن كلنا نعد نفسنا لمساء حسن.

العروس تأتي متخطرة، ملونة الوجه، تلبس رداء الفرح الأبيض، وعلى رأسها طرحة المخرمات الناصعة، وحولها البنات صداحات بأغاني الفرح، دائرتهن مُؤطرة بلمة الجدعان، يجاوبن صدح الأغاني بالزعيق. سرت، في جسدي نشوة رائعة تقفز بي وراء السنين. إنا

كنا يلمنا الفرح من قيعان كآبتنا، ويصرفنا عن أي لهو آخر، ونجري نحو بيت الفرح في مساء ليس منورا كهذا، لكن البنات يتغلبن على الظلمة الكابسة بالمصابيح ذات الشعلة يحملنها على رءوسهن ويحدقن بالعروس حتى ينور وجهها بضوء الشعل وفرحة الزفاف. ونحن الجدعان قلوبنا متوهجة بالغناء والنور، نزعق بأشواق أعمق من المساء. شوق لكلمة حسنة في أغنية، لقطرة ضوء في المساء، لفرحة العرس.

فرحة الجدعان الآن موصولة بفرحة الجدعان في زماني، وصدح الأغاني بصدح الغناء على أيامي، وفرحة العروس. إنا كنا شرهين للفرح لا نتراجع إلا بعد تُزف العروس إلى الغرفة المبيضة الجدران، ثم نتجمع تحت شباكها وندق بكفوفنا ونبحات قلوبنا، نطالب بمنحة من الكعك، ونظل نلح حتى تخرج أم العريس بحجرها مليان، فيخطف كل من قدر كعكة من حجرها.

إذا بي أسمع ولدا يصيح: «المسلسل» في صيحة ملهوفة حارقة، استحضرتني صرخته من حلمي وراء السنين، أفقت على موعد التمثيلية التي يذاع كل مساء جزء منها. يا ربي! إن هذه جزء ضروريٌّ من سهرة المساء، فيجاوبه ولد آخر «المسلسل» ثم تصيح بنت «المسلسل» وأنا تسري في أعضائي برودة؛ إذا ينفض سامر الفرح، ويجري كل واحد إلى بيته ليقبع أمام المرناة ويشاهد التمثيلية، وتبقى العروس وحدها مع أمها وأختها وبعض من قريباتها يسرعن بها نحو بيت عريسها.

عدت من حلمي وراء السنين إلى حاضري أتأمل بيتي المبني باللبن المحروم من التيار الكهربائي وليس فيه مرناة. بقيت في شرفة بيتي وحدي غارقًا في كآبة المساء.

١٩٨٨

رقوء الدمع

في آخر سفرة إلى قريتي ثقل قلبي حتى أوشك أن يكون فيه حزن. آخذ القطار في أسفاري منصرفًا عن رفاق السفر ـ منشغلين بشئونهم يثقلون على صفو خاطري بما ثقلت عليهم وعثاء الرحلة ـ أخرج بانتباهي من النافذة، يسيح ناظري في مشاهد الريف وتطيب خواطري.

القطار قدري، وجريه مزلزلا على القبضان. حينما أسافر أسافر مستسلما للمشقة، يأخذني التطلع إلى الأشياء، وما تجددت المشاهد، إنما تستجد فيها أشياء لفرط تأملي.

في آخر سفرة إلى قريتي توهجت أشواقي واحتدم التذكر بمقدار مسافة طويلة قبل أن يدخل القطار المحطة ويرسو جنب رصيفها. أنظر: أعرف الأرض والمحاصيل، وأعرف الناس، وأعرف البقرات والجواميس، حتى الحمير أعرفها، وأضحك.

وأدهش، فالأرض تغيرت بما فيها من كروم، والناس عليهم سيماء العزم والجرد. وآلات العزاقة، يا لها من آلات صخابة، تنفث من قلوبها الدخان، كأنما ملت الصمت، بقي يلف الريف دهورا، طردت طيور مالك الحزين البيض النواصع، والغربان السود اختفت، والبهائم قلت وما بقي منها فهو مهزول منفيٌّ عن عناية صاحبه. دهشت لذلك، وللبيوت المشيدة بالأسمنت المسلح، أراها إذا يدخل بي القطار إلى قريتي ملونة عالية صلدة جهمة، والباقيات من الدور الريفية من اللبن تبدو بائسة متداعية.

أخذني الاغتراب في الدنيا سنين طوالاً بعيدًا، والسفر دأبي والقطار قدري، والآن يدب على قضبانه كما كان دومًا في اتجاه قريتي. وإذا ما دخل بحثت عن دارها: من اللبن، لكنها في ذلك الزمان كانت وسيمة بما على واجهتها من بياض.

كنا نتردد على المدرسة في المدينة، يا للعيال من أولاد هذه الأيام. يتخفف البنات والصبيان من التأثم، ويتحادثون ويتضاحكون وحتى يتعابثون، لكنني كنت أجلس قبالتها أتأمل حسنها، فإذا ما لاحظتني هربت بعيني خارج نافذة القطار.

أبوها كان نحالا مشهورا. وكان رجلاً نحيفًا وعابس الوجه. كلمته ـ ممتلئا بمهابته ـ أن أبي كلفني بحمل هدية من عسل لصاحب له في المدينة. قلت هذا للنحال، فقال لي أمر بدارهم في بدرية

الصبح، آخذ مطلوبي معي في القطار الذي يحمل التلاميذ للمدارس. بكرت، طرقت، وانفتح الباب عن دفء الدار وعتامتها ورائحتها، وكانت هي التي فتحت لي.

لفنا الدفء والغبش وروائح الدار. غرقنا في عمق السحر. لم أكن أرى ـ من قلة الضوء ـ سوى وردية وجهها ونعاس عينيها. وفرجت بين شفتيها، وكفاها سعتا حتى حطتا على كفي فصارتا في دفء، في لحظات قصار، لكنها طوال كالعمر. عمر ضيعته في الغربة، وحينما رجعت وجدت الأشياء تغيرت، ودارهم زالت وشب مكانها بيت بالأسمنت المسلح، ملون عال صلد جهم، وهو معمور بناس آخرين.

وقفت على الرصيف في ثلوجة الصبح والضباب، وعسلي بين يدي. فإذا بها آتية، تمر بي، وعلى وجهها كل حلمنا، لم ينتقص برد الصبح من دفئه. جلست على الأريكة، انحنت على كتاب دينها تقرأ ورد الصبح، والصليب الذهبي متدل بما انحنت. ذلك كان، والآن..؟!

القطار خلاني على الرصيف ومضى، والرصيف مزدحم بالخلق، لكنه موحش منها. أفتش عنها والخراب يملأ الفراغات. يا ليتني كنت كلمتها، يا ليتها كانت كلمتني. آه يا ربي. خلاص. انقضى الوقت بمخاوفه والنكوص.

في آخر سفرة إلى قريتي ثقل قلبي حتى أوشك أن يكون فيه حزن. أخذت القطار عائدًا. القطار قدري، والترحل فيه دأبي. رجع أصداء رطم العجلات للقضبان حزين، هل أبكي؟ ما عاد هذا يليق بي، لقد كبرت.

٢٤/١٢/١٩٨٨

صباح عيد

بسم الله الرحم الرحيم، ولا إله إلا الله، والحمد لله، الإسلام شرعته العلن، وطقوسه الحفل، والجهر بالقراءة، والتكبير، والتأمين وراء الإمام بأعلى الأصوات. خلوا الأذان يجلجل من على كل المآذن، والخطب من على كل المنابر. تقتحم كل عزلة، تقض مضاجع النائمين، تفتض كل انفراد، حيث الشيطان رفيق المنفردين، والوساوس حليفة الأجساد المحبوسة في الغرف، المبلولة بالعرق. اخرجوا. اغتسلوا. واتخذوا أحسن جلابيبكم، وتعمموا، واقصدوا موائل الجمع، ومواطن الاجتماع، حيث تقام الفرائض والفرح بها حيث تؤدى جماعة.

وفي المواسم اطبخ لحمًا يا سيدي..! عكر دسوت الطبيخ بالمرق المزين بعيون الدسم. وسع على عيالك، وعلى جارك الفقير. واستقبل ضيفك، وأنفق من مالك الحلال. اشتر فاكهة وحلوى وتمرا، وفرقه في الناس، وأعط عن سعة يد. وهو إذا يبذر النقل طوح يديه يمينا وشمالا من مرقده. رمقته زوجته دهشة، ثم خفضت عينيها حذرة، لكن الرجل تنبه لها، عرف موقفها وعينيها عليه. حدجها ببصره، وهتف أن:

ـ يا امرأة..!

وقفت عمًّا في يدها، سمعته منصتة، مطيعة مجاوبة. وهو قال لها:

ـ يا امرأة. غطني..!

وهي تدثره باللحاف ثرثر معها عن رمضان: اليوم آخر الصيام، وبعد نحن في شوال، شهر العيد، الغُرَّة منه عيد الفطر، كل سنة وأنتِ طيبة. اشتريت كل شيء لك يجعل العيد عليك وعلى العيال سعيدًا: خلقانًا وطعامًا، وعمّرت جيوبهم بالمضاييع..! ألا يجمل بك أن تحمدي الله على إحسانه؟ سألها وأجابته قائلة له:

ـ ستر الله عليك كما أنت سترنا وعزنا..!

قال لها:

ـ أحكمي الغطاء عليّ يا امرأتي، فإن العيد غدًا..!

وأول علامة لقدم علمتها قدمه على الندى المحتوم بإحكام ينام

تحته التراب على الطريق لمسجد الجامع.

يمشـي مختـالا في جلبابـه الكشميري، تحتـه قفاطيـن الشاهـي والصداري، متحزمًا بحزام الحرير وعلى أكتافه العباءة من الجوخ، وينصع جبينه تحت العمامة البيضاء، وعيناه منكسرتان بالتقوى، وشفتاه مشغولتان بالتسابيح يرنمها سقوط حبات المسبحة واحدة على الأخرى، موقعة على إيقاع عصاه يضرب بها الأرض ضربًا رفيقًا.

يقترب منه رجل عليه جلباب نظيف، وطاقية مغسولة، وتحتها جبين مقطب، والعصا تخبط الأرض خبطات غضاب. بعد أن تبادلا صباح الخير، وكل عام وأنت طيب، قال الرجل ذو الطاقية للشيخ المعمم:

إني بكرت بالسروح إلى الحقول، فوجدت الترعة جافة كقعر الكفّ..!

رد عليه ذو العمامة:

ـ أتسرح مُبكرًا إلى الحقول يوم العيد؟

قال له ذو الطاقية:

ـ نمت مشغولا بالزروع العطاش..!

غضب المعمم وقال له:

ـ أيشغلك عن العيد عطش الزرع؟ وصبح الاحتفال! فأنَّي تؤفكون؟!

قال له الرجل ذو الطاقية:

ـ صدق الله العظيم. أي نعم..!

ثم جلسا متجاورين على الحصير، في رواء المسجد، بين صفوف من مئات المصلين، يكبرون معهم ويحمدون، لكن في كل قلب ما يشغله.

الشيخ ذو العمامة مجذوب للترتيل العالي، يتمايل مغمض العينين، يعجبه صوته، وصوت الجمع بطانة تبدي غناءه، لكن ضربا من الانشغال وراء الإنشاد، وإهمال الشد على المقاطع، ونسيان وراء شرود البال، وحول العيون. يهز رأسه صخبًا وغضبًا، يزمجر بالكلمات حتى يوقظ الهمم ويسحب العزم في جذبات الرحمن، في الغناء

العظيم، حتى صعد الخطيب المنبر.

انصرفا: المعمم وذو الطاقية، أولهما يشغله أنه ما حصل موعظة نافعة من خطبة العيد، يا أسفا لانشغال الناس بالزرع العطشان وأخذه معهم في ذلك. وهذا عطش الزرع يشغل ذا التقية يمضيان لا يتبادلان حديثًا حتى زارا المقبرة وآبا يسلمان على الناس بالعيد. وانتهيا إلى مضيفة الشيخ المعمم. أمر هذا الشيخ بأن تحمل له صينية حافلة بالكعك والبسكوت والغريبة والنقل من أفضال الله على العبد في عيده. وقف منتصبًا تياها في ثيابه يلوح بيديه، يقول للناس:

ـ أقبلوا على طعامكم يا ضيوفي في يوم عيدنا!

الناس يقبلون مترددين في الأكل وزاهدين في حديثه، فإنهم مشغولون عن العيد بجفاف الترعة.

حتى إذا صاح واحد يجري في الطريق، يصل صياحه لهم من شبابيك المضيفة:

ـ المياه ملأت الترعة..!

أفرغت الكلمة المضيفة من الزوار، وبعد زياط المضيف وضيوفه بقي صمته وبقايا الأكل على الصينية. جلس على المصطبة يعايش السكون، حتى إذا أطلت امرأته من باب المضيفة، خلع عمامته ناولها لامرأته، ثم خلع العباءة والجلباب وقال وصوته محتبس:

ـ أهكذا يكون الأمر في صباح عيد؟!

١٩٨٤/٣/٩١

الكرم الريفي

هما ولدا عمي: محمد ومحمود. نقعد في مصر، لا تترك أسلاك الهاتف تبرد من حرارة عواطفنا إلا واتصلنا ببعضنا مرة أخرى: كيف الحال؟ والعيال؟ لم أرك من زمان؟ وأضع المسماع وأشرد نواحي بلدنا وسنوات اليفاعة. كان أبوهما يعزني معزة ابنه الكبير، وإذا يراني مقبلا يقوم مسلمًا مرحبًا مهللًا بصوت يفيض فرحة، ويجتمع الناس عليّ وعليه، وأجلس إليهم، ويجلس إلينا محمد ومحمود، ونحن فرحانون باجتماع الأهل والأحباب في الباحة المؤطرة بالدور. يا لنعمة الانسجام التام الذي يشمل الريف وناسه..! يتنادون من على الأبواب، يضحكون برفق، ويتشاتمون في المزاح برفق، ويخرجون بطعامهم إلى أمام دورهم، ويتعازمون بحرارة، ويثقلون بالعزم على الضيف الغريب، ويسرف هذا في التأبي، فيحزنون.

لقد مات عمي، وجرحني بموته، وباع ولداه منزلهما وحزنت لذلك، والجرح البالغ بقي رابطي بالحتة قدام باب بيته. أرامق البيت وسكانه الغُرب، وأمشي وفي قلبي يبقى المطرح والدور المجاورة، وولداه اللذان يعملان في القاهرة، لا أترك أسلاك الهاتف تبرد من لهفتي عليهما.

نلتقي في البلدان كل آن، نفرح باللقاء، ونتعانق، ونضحك من كل قلوبنا، ونرتدي الملابس الريفية، ونتيه بأزيائنا وباحتفال الناس بنا. يا سلام على الصلة التي تبقى تصلك بالأرض، تصلك بأصولك الريفية لا تنقطع، نروح هناك نغتسل من الملالة القاهرية، من كرّ الأيام وشبه الأيام ببعضها. ثم نعود ريانين بالريف، شبعانين، اغتذت أرواحنا، فتفيض في ثرثرة على أسلاك الهاتف، ثم لا نلبث إلا أن نشتاق إلى السفر مرة أخرى.

لماذا يسافر كل واحد منا بنفسه، لماذا يسافر كل منفردا؟ لماذا لا نسافر جمعًا؟ تقابلنا في باب الحديد، وقد أخذنا العزم على بدء المتعة بزيارة البلد في قلب القاهرة نفسها. تقابلنا، وضحكت لما رأيتهما يلبسان الجلابيب البلدية: أتتعجلان بارتداء الزي؟ ضحكا من كلامي وانتفخا وطالت قامتاهما تيهًا، وجلسنا في القطار نثرثر على متعتنا المرتقبة: نجلس في الباحة، ويلتم علينا الناس، فلان وفلان وفلان، كل مشوق ليسمع منك وكل مشوق ليحكي لك، وكل مصرٌّ على أن يقريك، يحلفون عليك أن تأكل عندهم ويصرون على حلفانهم، والواحد يتأبى وكلما اشتدت العزيمة اشتد الواحد في تأبيه، حتى ينكف الواحد منهم، ينكسر بما لم تستجب عزيمته.

رويدا رويدا يفتر حديثنا، ويبدأ الواحد منا يتقلق، وتزاحم الكآبة مشاعر الفرح. نضحك هنا وهناك، نغالب كآبتنا، لكن لا سبيل، فإن في القلب ثقل من ناحية الحقيقة. إن الواحد ضيف متعلق برغائب مضيفه، لو زفر تركت أنفاسه بصمات على زجاج روحنا المصقول فيتغبش. لكننا نتذكر الحمية والحماسة، نشد الذكريات على إعتام أرواحنا، حتى وصلنا إلى طنطا.

نزلنا إلى المدينة، أهي بالغة الروعة أم نحن نضيف عليها من فرحنا. هذا غاية نزهتنا، زيارة طنطا أيام كنا في البلد، ومولد السيد البدوي والحلوى وغداء من الفول والطعمية، فإذا محمد الأخ الكبير يقول:

ـ لنأكل لقمة هنا قبل أن نذهب إلى البلد..!

شدهت لكلامه، واستعجبت! ثم استيقظ فيّ نوع من المحاذير، فسألته مكتئبًا لرده المتوقع، قلت له:

ـ لماذا نأكل؟ وهم يقدمون لنا في البلد الطعام، ويجزلونه، ويعزمون علينا أثقل العزائم؟

فتكلم محمد ومحمود يبتسم موافقا:

ـ نحن نأكل هنا، لا ننزل على الناس بجوعنا، إنهم يعزمون علينا، ولا نجد نحن مناصًا من التأبي، ويعزمون علينا بطريقة تضخم نية التأبي، فحتى إذا بلغ تأبينا ذراه حزن الرجل وانصرف!

استيقظت في نفسي غصة قديمة، غصة غالبتها لتبقى سكتي إلى الريف موطّأة.

قلت له:

ـ ماذا لو أكلنا؟

قال ابن عمي:

ـ العزومة والتأبي، فأين المخرج؟

١٤/٤/١٩٨٩

حنان الأرض

تلك هي جملة ثرثرة العجوز عمتي مع بائع جوَّاب. رأته من مجلسها قدام بابها يمشي يحمل قفصين مربوطين، يمر الرباط عبر كتفه فيحملهما: واحدا على صدره والآخر على ظهره، والقفصان مليئان ببطات يصل صياؤها كبطانة لنداء الرجل على بضاعته، والرجل حزين يتبدى ذلك في خطوط ظهره، ويرن في شدوه بحسن بطاته.

شغلها الرجل عما في رأسها وحيرتها: أتُبقي على القراريط التي تعاقدت عليها؟ أم تفسخ العقد وبالمال تبني دارا جديدة؟

زعقت عمتي عليه وجاء به الزعيق، قعد قدامها وبينهما القفصان يُخرجُ منهما بطات شاهدا على جمال رأيه في البط العجيب. راقها بَطّهُ فانتقت خمس فرائد ثم بدأت المساومة على الصفقة. ثم عَنفت المساومة حتى أوشك الرجل أن يغضب ويمشي وأوشكت هي أن تغضب وتترك له بطاته. لكن الفصال ظاهره الغضب وباطنه التراضي، فمالت ومال حتى استقرا على الثمن المعلوم ودفعت له، والبط صار بطها والمال صار حلاله.

وبعدما استغرقت المساومة الشديدة شوقهما للكلام نظر البائع إلى عمتي فرأى في عينيها حنانا له، وعمتي وجدت في عيني الرجل أن طراوة نسمة العصرية أمام بابها تريحه، فعزمت عليه بالشاي. قال: «نعم. يا سلام يا ستي. طيب. نشرب عندك الشاي!»على إيقاع الرشفات المتباعدة، وطعمها السكري سأل الرجل عمتي: «يا خالة. لماذا لا تبنين دارا جديدة؟ يا خالة دار حسنة!» قالت له وقد شردت من الكلام إلى الكلام الآخر، وتذكرت، واكتسى وجهها بسحب من الهم: «آه يا ولدي. كم اشتقت لدار جديدة، لكنا اشترينا سبعة قراريط، فوضعنا المال في الأرض يا خسارة. وأفكر أن أرجع، أفسخ العقد وأسترد مالي، وأبتني بها دارا جديدة..! آه يا ولدي كم أشتاق لذلك..!» لكن بائع البط فزع وصرخ، ونهنه، وانحدرت الدموع من عينيه وبكى بحرقة. قال عبر شهقاته: «يا خالة. لا تلغي عقدا اشتريت به أرضًا. لا ترجعي في كلمتك. ضمي إليك الأرض قيراطا بعد قيراط. آه يا خالة. آه من حنان الأرض. إنها أكثر حنانًا من الأم والأب. يا سلام. افرحي باتساع أرضك شبرا بعد شبر. إنك بذلك تفسحين نصيبك من الدنيا. وتنالين رحمة رب السموات..!».

شدهت عمتي من شدة حرقة الرجل حتى ما تبللها إلا الدموع.

قالت له: «آه يا ولدي. ثم ماذا؟!» قال لها وخطان من الدموع على خديه: «اسمعي خبري يا خالة. بالحق أقوله. والله شهيد. إنا ورثنا من أبينا ـ أنا وأخي ـ أرضًا ودارًا، ثم تراضيت أنا وهو ـ قصرًا للشر ـ على أن أترك له نصيبي من الأرض والدار مقابل مال. آه. ثم إني لم أشتر أرضا بمالي لكني بنيت دارا جديدة فسيحة الحجرات، دارًا بلا حقل ولا بهيمة. فاستيقظت من السكرة على دار مغلقة على وحدتي. آه. وأطوف ببطاتي وفراريجي ثم أرجع إلى بيت تصرّ فيه الجنادب وأسمع صريرها في صمته الأسيف. أغلق عليّ بابي، وأنا أفكر في الأرض. هي كانت أكثر حنانًا عليّ من أمي وأبي. آه..!» العمة رأته يمضي عنها بقفصيه. تأملت خطوط ظهره. حزينة. وتأملت أثر حديثه في قلبها، فوجدته حزينا. نعم. هكذا يثيب الله بالموعظة الحسنة بقدر ما أكرم الواحد ضيفه.

وهكذا هي جملة ثرثرة عمتي مع بائع جوّاب.

٩١٩٨

عن المقام

كلما مررت ببيوت «الإنشا» حزنت، وكذلك المسجد الذي ابتنوه لصلواتهم، وتذكرت سالم السوداني. كان حسن الوجه حسن السمت نظيف الثوب، نظيف العبارة خفيض الصوت، لكن ياه. يا الله حين يكون مع رفقاء الجوزة، يسرف، ويشرب البوظة، يفلت خلقه من حسن السيطرة، تبيض عيناه وأسنانه، يلقي بطاقيته على الأرض ويصرخ، يهرف بأشنع الصفات. لكنني لم أره حال خروجه، بقيت صورته في ذاكرتي محفوظة في أحسن إطار. يذكره أهل قريتي ويضحكون على أحواله، فقد كان طوافًا بالبلد ينشد رفقته في الليالي، وفي الصبح تتحرك عن سهرته حزمة من الأخبار وملء الأفواه من شتائمه. من الذي أتى به ليسكن «الإنشا»؟ أهو لعمله في معمل الألبان التابع لتفتيش وزارة الزراعة مُنح مسكنا في العزبة؟ أم إنه جاء خصيصًا لكي يموت الناس عليه ضحكا، ينضاف لضحكهم على خلق «الإنشا»؟ بيوتها مقببة سقوفها وهي صغار وقميئة، يحتملها الساكنون وسخريات أهل قريتنا بهم، يلوذون بدورهم الواقعة مكببة تلو الترعة الكائنة في الجهة القبلية من بلدنا وينصرفون لأمور معاشهم، إنهم أنفار جمعتهم ضرورة العمل، بلا قرابة ولا عصبة ولكن ود الجيرة، يحلون ويرحل القليل ويبقى الأكثرون أبدًا. وقد كان سالم السوداني رجلاً صاحب ذوق من السُّمر من النساء، لقط واحدة من هنا وتلك من هناك، وأخرى من بلدنا ملها فطلقها كما طلق الأخريات وبقيت هذه عجوزًا تدخن بشراهة وتسعل. أمر على بيوت «الإنشا» في سكتي إلى غيطي بحذاء الترعة، والمسجد الذي ابتنوه لصلواتهم من الأسمنت المسلح على شاطئهم أراه. جامع كبير معلق على سقفه مكبر صوت وهذا نفيره. وجنب محل الصلاة مضخة الماء تجمع البنات حلاوة السكر. حوشيات من «الإنشا» بهيات في الجلابيب الملونة. أحوش نظري عنهن والغنج الرائع يجلجل في الضحكات، ترن في الجدران الصلدة والسقوف. كل البيوت بنيت وزوقوها بالبياض، وفي واحد منها أرملة سالم السوداني.

كان ذلك زمانًا ومر بما كان فيه. كانت قريتنا تطوف بها أعداد من الشحاذين، يطلون على أهل الدار من بابهم المفتوح في الدور الريفية، أو يخبطون الباب الخشبي فتخرج لهم الأرغفة أو حفانٌ من الدقيق أو الحبوب. كان ذلك زمانًا وفات، والبيوت ارتفعت دورين أو ثلاثة ولها أبواب حديدية، وتكسل المرأة عن النزول لتلبية سائل. وماذا تعطيه؟ إن زراعة العنب كنست الدار من الأشياء، تبقى لهم الفلوس يشترون الأرغفة من فرن القرية. هجر الشحاذون القرية

والمجاذيب وذوو الأحوال، وفي المساء بقيت المرناة تحيي الليالي.

وعين «الإنشا» على قريتنا: الجامع ومقام سيدي سليم.جامعهم يلحق يرد بالأذان بالصوت المكبر، وآه لو كان عندهم شيخ لابتنوا له مقامًا ورفعوا العمدان وأرسوا الطوبات بالفن. فتحوا عزبتهم للشحاذين وللمجاذيب وذوي الأموال، وأقاموا في الليالي الأذكار، في الحتة التي هي ما بين مضخة الماء والمساجد، ما بين ضحكات البنات المجلجلة آمين وراء الإمام. وأولاد بلدنا يقصدونهم، يقفون على شاطئنا من الترعة ويتفرجون ويتندرون على هز القدود وسوء المديح، ويضحكون على زغاريد نسائهم ثم ينصرفون والذكر ما زال في الأوج.

إن سالم السوداني كان تزوج في آخر أيامه بنتًا لم تُعلّم الأنوثة عليها علامة، بعد طفلة، أكرمها وبرّ بها فنمت عنده، ثم مات عنها وهي صغيرة، صرخت أقبل أهل «الإنشا» مفزوعين وحزنوا على الرجل ودفنوه عندهم، وبقيت ذكراه وتوقيرهم للأرملة. وكبرت هذه وصارت امرأة سوية في وجهها حسن وفي جسمها من تفاصيل سبحان الذي صور. حتى أهل عليها رجل له قدر من السن والعقل والمهابة بين أهل «الإنشا» قال لها إنه بالأمس جاءني سالم السوداني في منامي تحت بيارق وحوله زحام، سألته أين يقصد؟ قال لي هنا. وهنا مقامي. وأشار على الحتة ما بين المسجد والمضخة.

وفتحت الأرملة بابها للمجاذيب وذوى الأحوال، أكرمتهم وأقامت لهم الأذكار، يأتي أولاد بلدنا ينظرون وينصرفون ضاحكين، وهم يقرءون الفواتيح على روح المرحوم سالم السوداني. حتى نزل «الإنشا» شاب، في الناس نادرة زينته وكحل عينيه والمسك يفوح من ثيابه. عليه جلباب أبيض سابغ من رقائق القطن وقدماه نظيفتان في «الشاروخ» السعودي، وعلى رأسه شال هفهاف يستر وجهه عن الناظرين. فإذا أسفر رحبت به الأرملة وقالت له: تعال يا عمي. وجلس على حصير مصنوع من لدائن ملونة، وتحدث وهي جالسة بين يديه، وعظها حتى عضّتها اللوعة وفاضت الدموع من عينيها ونهنهت العبرات. انكفأت عليه، دفنت وجهها في حجرة متشبثة باليدين في الوركين حتى تبلل جلباب الشباب من دموع الأرملة، وهو يخفف اللوعة عنها بالتربيت على ظهرها، ويبكي يتقطر ماؤه على شعر الملتاعة.

اجتمع أهل «الإنشا» على الرجل عند الأرملة، وبالليل أقاموا ذكرا في عين الحتة، وفي الآخر ودَّعوه على باب بيتها. وهو يبيت عندها،

وفي الصباح قام مبكرا قصد مكان الذكر، نصب فيه طوبات، وأقام عليه راية حمراء رفاعية، وكتب على لوح خشبي: هذا مقام سيدي سالم السوداني، وصاح في الناس سنبدأ الآن في التبرع، فإذا اكتمل المال كان المقام.

شاع الخبر وزيد عليه وتقول المتقولون. وكل آن يمر بعض من أهل قريتي على نصب سالم السوداني. ضحكوا وفاض ضحكهم حتى وصل إلى واحد من مباحث المركز، شخر ونطر وقال: والله العظيم إن الأمور زين، يبيت النطع في بيت الأرملة ويقيم طوبات عليها راية ويجمع التبرعات! وهو من أي البلاد جاء؟ أفاق يدور بشره! وثاني يوم أرسل العربات النصف نقل الزرقاء وكبسوا على «الإنشا». وحينما ظفروا بالشاب ضربوه أبشع ضرب وصحبوه ملوثا بالوحل والدم والدموع. وأزال النصب وكسر اللوح ومزق الراية بيديه، ثم غابوا به وراء الأفق.

كلما مررت ببيوت «الإنشا» حزنت، والمسجد الذي ابتنوه لصلواتهم بالأسمنت المسلح. ها.. انقضى سامرهم، وما كان يضرُّ لو بني مقام لسالم السوداني؟ لكانت الأحوال أصلح ربما. ومن الذي ينبئني أن حال سيدي سليم ـ شيخ بلدنا وله مقام ـ خير من حال الأسود؟ ربما كان يفرط في الجوزة وقرعات البوظة إفراطًا شديدًا، لكن الشرطة لم يكونوا على أيامه أقوياء وقليلي الحياء!

١٩٩٠

الأعرج

مشى يظلع في زحام الحارات، وهو يكاد يضحك من بلاهة التساؤل في أعين الناس، يريد أن يخطب فيهم: «ساقي ليست معطوبة، ولا طالني المرض، إنما أنا حذاء..!» ويضحك دونما أن تتحرك بضحكه الشفتان، يظل يرن الضحك في جوفه حتى تتلون به الوجنتان. ظل يمشي في زحام الحارات حتى خلص إلى ميدان العتبة، إلى محطة السيارات الحوافل.

نظر فرأى الزحام، يراه كل يوم لكن اليوم الخميس، استكثر على نفسه الحشر وثقل الخلق على جرحه القليل، فأطلق لنفسه العنان. إنه سيتمشى، من الذي يستعجل عودته للبيت وغدا يوم راحته؟! ضحك. ثم واصل سيره ضاحكا من الناس الذين يرمقونه.

شارع ٢٦ يوليو ظل يأخذ به أخذًا شديدًا حتى النهر وقد ضاقت منه الأنفاس، لكنه راق جنب بحر النيل، فرح به وركن هناك هونًا ما. ظل هناك حتى غاب نور النهار والتمعت في جوف المساء أضواء الشوارع. إذن قام مهرجان النور، اختفى القبح وصحا الحلم وبانت البنت من على البعد مثل قمر، وجهها معمول والخاطر رائق، وأمها معها. مشى بحذائهما يوفق خطوه مع خطوهما. ضحك لهما، فأقرأته الأم ألف مساء. ابرنشق، ظل يتكلم كثيرًا ويتقافز على ساقه القصيرة ويظلع. وماذا عن ذلك؟ إن جيبه ملآن بما قبض من أجر الجمعة، والنقود تبعث الحول في جسمه. أدركوا موقف الحوافل وأن لكل منهما أن يركب في اتجاهه. قال لهما ملهوفًا: هل تأتيان يوم الخميس؟ نعم! مشى وهو مسرور بموعده. بكّر من صبحه إلى الورشة. يا سلام على الشغل! إنه مزاج الرائقين، يسوي الجلدة من أطرافها بسكين مرهفة الحد، ثم يدق الأطراف ويغني، ويقرع الزميل الذي أخذ الشاكوش ويضحك، ثم إذا به يقترب منه الأسطى الكبير. جرّ كرسيه وجلس إلى جنبه وسأل عن الحال، الولد ارتجف خفيفًا ثم رويدا رويدا استعاد ثباته ثم غنى مجاوبًا أن الحال كالورد مزروع في القصاري. الأسطى الكبير ابتسم وقام، الولد استعجب أن الأسطى لم يشر إلى بنته بكلمة وهو كذلك لم يسأل عنها. آه. هكذا قطّرت قطرة سوداء على علاقته بالأسطى الكبير وهو الذي جلبه من بيته وعلمه الصنعة، ثم إن السنّة أن يتزوج صبي الصنعة من ابنة الأسطى. البنت حلوة لكن ليست مثل التي ولدت من أنوار المساء. مساء الخميس. آه لو كبرت النقطة حتى سودت ما بينهما، بينه وبين الأسطى. دق بالشاكوش على الجلد وغناؤه أصبح حزينًا.

ثم إنه كان يوم الخميس، جاء المعلم بالأجور فوزعت عليهم، قبض النقود ومشى يظلع في الحارات المزدحمة، لا يبالي بنظرات الناس، ولا يبالي بالسيارات الحوافل، ترك شارع ٢٦ يوليو يأخذه إلى النهر، وقف يرقب الدنيا حتى لمعت أضواء الشوارع، إذ ذاك جاءت البنت وفي صحبتها أمها، مشى يحكي ويحكي، والبنت في وجهها كل جمال المساء، تتلعب في عينيها أعجب التصاوير، ينظر فيهما ويستعجب، يستخفه ذلك للحكي فيحكي، والمرأة راضية مستقرة، تترك للشابين كيف يصوغان عواطفهما، حتى سألته البنت: «قل لي يا أخي ماذا بساقك، لماذا تعرج؟» ضحك الفتى وأغرق في الضحك، قال لها: «ليس بساقي علة ولا مرض، إنما هي صنعتنا يا بنتي!» فقالت له البنت: «وماذا في صناعتكم، صناعة الحذائين؟!» فقال لها الولد: «إننا نستغني عن السندان، وندق على سوقنا، رُكبنا موطأة للدق، نظل ندق عمرنا حتى تقصر الساق اليمني عن الساق اليسرى، هكذا نعرج يا بنتي. كل الحذائين هكذا!».

نظر إليها فإذا وجهها مصفر عليه دهشة تكاد تصل إلى الرعب. سقط الضحك من فمه، وتأملها، وعلى ذات فجأة جاءت الحافلة فقفزت البنت راكبة فيها، ولحقت بها أمها دون أن يتركا له موعدًا. بقي واقفًا جامدًا. وبقيت له نظرة الأم مشفقة وراثية. وانطلقت بهم الحافلة بعيدًا.

٥/٤/١٩٩٠

مذاكرة

وقفت المدرِّسة قدام البنات: بيدها المؤشر وبالأخرى قطعة من الطباشير. وإذ بدأت ابتدرت بنات فرقتها، أن: «.. يا بناتي انتبهن لكلماتي، إنها من الحياة وإلى الحياة ترجع..!» عيناها محلقتان بعيدًا. والبنتان اللتان تجلسان على المقعدين في أول الصف تنظران للمدرسة، تريدان أن تصيدا نظراتها، أن تحتوشاها، وتحوزا الاهتمام، ومن غد تبدآن الكرة الأخرى.

هذا الصبح خرجتا من بيتهما، تقابلتا واصطحبتا كعادتهما، عبرتا الجسر إلى الجزيرة، هناك مدرستهما. تخفان السير على كورنيش النيل في جو مشمس بارد، لكنه طلق ورائق، فهل يعن لهما أن تراجعا موادهما..؟ أخرجتا الكتاب، إنه كتابها..! تواطأتا وبدأتا.

استفتحت واحدتهما الدرس وقرأت: «.. وإذا يتدفق..!» وهما ماشيتان تترقصان على نغمة مرحة خفيفة في غلائل الصبح. والأخرى تدعك بطنها بيدها اليسرى بينا يمينها مشبوكة في شمال صاحبتها، وتكمل لها قراءتها: «.. وهناك ترقص.. الحيوانات المنوية.. ترقص وترقص. تشيك تاتا. تشيك تاتا..!» وتترقص البنتان على جمل من الموسيقى الشرسة، فالشارع خال يترك المجال لانطلاقهما بلا حدود، فإذا الواحدة قالت للأخرى من البنتين: «هس..!» ورفعت كفيها، ثم استدارت تمشي متعاجبة تتثنى، حركة الكتفين تساوق حركة الردفين والرأسين ميزان، وكلماتها نغم: «..طم.. طم.. والبويضة تنزل في جلال. تتمشي في الجوف.. طم.. طم..!».

لحقت الثانية بصاحبتها، تصيح: «إنها لحقت بها جيوش من الحيوان..» تؤطرها مشية صاحبتها بالرقص حولها، فيختلط التثني العظيم بفوضى التخلع المستثار وتحكي: «كل مخلوق دقيق يدفع برأسه الإبرية يحاول أن يلمس البويضة، يبحث فيها عن ثقب للاختراق..!» ثم شبكت يسراها في يمين صاحبتها، يقترب الرأسان أو يبتعدان في إيقاع الذكر أو دورة الزار على مقاطع من الموسيقيين الشرقيين القدامى. انتشتا وبلغت بهما النشوة حدًا فاق كل حد.

صحا الشارع ودبت الأقدام والتفتت الرءوس أو أطلت من النوافذ. وإذن ظهر الآن فريق من أولاد المدرسة المجاورة، رأوا نشوة البنتين فانتشوا بالعدوان، خفوا للحاق، اقتربوا، وسخن أنفاسهم يلفح الرقبتين وجوانب الصدغين وعيونهم تخترق.

ضاع اللحن من البنتين، وضاعت الرقصات والتطوح على اللحن الشرقي القديم. أسرعتا فرارا. البنت أسرت لصاحبتها تريد أن تؤثرها بكلامها: «إن الخلية الجنسية تسمح لواحد بالاختراق، بذلك تتحد ويكتمل معناها، وتترك الباقين للفناء، للفناء، الحيوانات المنوية..!».

وهي تقول رشقت سبابتها في الهواء. قالت لها صاحبتها همسًا: «إنها تصبح جليلة..!» ورفت ببطنها مسحًا ولمسًا. لهثت أنفاس العيال بما غمض عليهم الهمس واليد تجري على البطن. يريدون أن ينزعوا الكتاب، لكن البنتين ضمتاه باليدين إلى الصدر، احتضنتا الكتاب، واصلتا القراءة: «.. وفي الرحم فرش لها وسادة من الشعيرات الدموية، نتوء يحملها في الجوف..!».

ظهرت المدرسة، الأسوار ولمة البنات هناك. إذن تخلف جمع الأولاد، وقفوا وعيونهم على أعقاب البنتين والزعيق: «إنهما حافظتان. حفيظتان هما. هما هكذا..!» والبنتان تقاربان المدرسة، ثقل قلباهما، صار همسهما كئيبًا: «إذا لم يحصل الدفق؟» أجابتها: «تموت البويضة دونما رقص حولها ولا احتفال..!» تسربتا من بين البنات والتسار خصيصة سيرهما الحثيث: «إذن تنحل وسادة من الشعيرات الدموية..!» تصعدان السلم ومعهما اللهاث والنصب: «ينزل الدم.. فراش الدم.. ينزل الدم..!» ومن التعب ردّت: «يتقطر الدم.. يتقسَّط.. يتقسَّط الدم..!» وهما على باب فصلهما قالت آخر كلمة في الدرس: «في عادة موقوتة..!» فإذا المدرّسة واقفة عالية الهامة مشرقة، بيدها المؤشر وبالأخرى قطعة من الطباشير. وإذا بدأت ابتدرت بنات فرقتها أن: «إنني أعلمكن الحياة.. يا بناتي تعلمن عني الحياة..!» ترى غصة البنتين، اصفرار الوجهين، ذبول العينين، أهذا أوانها؟ وطأت لهما من نفسها يسرًا. تأملتهما. وقفت البنتان والصمت ران. قالت المدرسة تسألهما: «أليس كذلك..؟» ردت البنت همسًا: «حاضر يا سيدتي..؟» والبنت الأخرى «طيب يا سيدتي.. طيب..؟».

٨/٤/١٩٩٠

محكمة القطاط!

من شرفة بيتي العالي نظرت إلى قريتي، سقوف الدور، وأحطتُ بها حتى استقرت إلى التخوم تملؤني بالغموض. انصرفت نازلا. اليوم أول أيام عيد الفطر، قصدت بيت عمي، هو يكبرني بأعوام ثلاثة، تزول الكلفة ويبقى التوقير للسن وللقرابة، وبدأنا الزيارات بالعمة التي تعيش وحدها، مشينا نتقدم رفاقنا، وبدأنا ثرثرة هي حلاوة علاقتنا نستطعمها، ذراعانا مشبوكتان ورأسانا متقاربتان. قال لي: «الواحد في مثل عمرينا لو تزوج يختار المرأة الوسط..!» قلت له: «أخ..! تلك تأتيك بفشلها، وفي صوتها النكد..!» سألني: «وإذن..!» قلت له: «إنها هي الصغيرة البيضاء، جُمّارة، قشدة لم يمتد إليها قبل إصبع..!» قال: «إنها تستبد بك..!» قلت له: «وأنا أناولها ما استطالت به عليّ. آه يا حلاوة. وفي طبعي لين..!».

وعند العمة تحلقنا حول صينية حافلة بأطايب العيد، وأنا ما زلت ملآن بنصري على عمي في دوارنا ووجهه عليه السحب: طفت أتأمل لوحات الحيطان والمرايا والكراسي الوثيرة والبساط. هتفت: «نحن نعيش أعوامًا سعيدة و١٩٩٠ هو أسعدها..!» وقال العم: «إن الفقر ترك الريف وراح إلى هناك يعسكر في حواري المدن..!» قلت: «إن بيوتنا بالأسمنت المسلح، منورة الردهات، ليس فيها أركان مظلمة تسكنها العفاريت..!».

وبقي شغل الأسنان في الحبات وواحدات الكعك تترك سكرها على الشوارب، والواحد لا يسمع لهم حسًا هؤلاء البعض من الناس، سكتوا. قال عمي: «إن حكايات تدور في البلد عن الجن، وولد مسكين في الناحية الأخرى ركبه عفريتان، والولد يكلم الناس بلسانه وبصوته، وتجيء عليه أوقات يهرف بما لا يعرفه عنه الناس بغير صوته وغير لسانه، وعجز الطب عن مداواته، ذهبوا به لأهل العلم، أحرقوا أنف الولد حتى خرج العفريتان، وهما كانا طيبين، واحدهما سكن في الدماغ والآخر سكن في القلب، وبعدما خرجا بكيا ورحلا إلى السعودية والولد ما زال حزينًا عليهما حنانًا لسكناهما جسده..!».

وتكلم مهندس الزراعة، هو ابن عمي قال: «واثنان باطشان ركبا واحدًا. صحبوه حتى راهب في كنيسة «أبي جرج» وصف لهم ماءً لحموم الرجل وحجابًا، لم يخرج الاثنان الباطشان إلا بعد طول مجادلة..!» وقال ابن عمي مهندس الكهرباء: «يتكلمون؟!» تكلم خريج الأزهر ومدرس في المدارس الثانوية: «إنهم كلموا نبي الله داود..!»

رد عليه مهندس الكهرباء قال: «كلكم يظن نفسه داود يكلمه الجان..!» وقال ابن عمي المدرس: «خذوا مثلا إمام الجامع. ركبه عفريت كافر صرفه عن الصلاة وارتياد الجامع..!» وعمتي صموتة وأصبحت شاحبة، أخذت عدة الشاي ومشت إلى المطبخ.

قلت لهم: «ما هو الكافر في عرفكم؟ أهم القبط؟ وفيهم معاون الزراعة والنحال والتجار وكلهم كانوا على صلاح. وتاجر العنب الذي ينزل عند عمي شهورا من كل عام!» قال عمي: «لهذا أشهد أمام الله أنه رجل صالح..!» قلت لهم: «ليسوا كفارًا، ولا اليهود، عندهم ربّ يخشونه. وكل واحد في الدنيا يتبع ملة مثل ملتنا..!» قال الكهربائي «حتى الشيوعيون يلتزمون في الأخلاق بمبادئ صارمة..!» قلت لهم: «لماذا لا تأتي مثل هذه الحكايات من الناس الأذكياء اللامعين..!» قال المدرس: اسمعوا أحكي لكم خبرًا عجيبًا..! إنه في قريتنا خفير دوار في البلاد وله ولع بالمكاتب وأعشاش السلطة. تعرف على العسكري الموكول بباب مدير الأمن. تباسط معه فحكى له عن يوم من أيام المدير؛ إذ جلس على العشاء ومعه امرأته وصبياه. أعطى الرجل لابنه الكبير نصيبه من اللحم، قفزت القطة خطفته. ضحك الأب وثنى على ابنه مرة أخرى بقطعة نطت القطة أطارتها من يده. «الولد في ثورته أمسك بفردة قبقابه وطيره خلف الحيوان الشرس، أصابها في عينها فصرخت: آه..! نطق بشري لا جدال.

اسمعوا، الخفير يحكي عن مدير الأمن أن الرجل بالرعب آوى إلى فراشه وفي حضنه ولداه وامرأته متعلقة به. الغرفة مغلقة محكمة الظلمة، إذ بها تضيء كأنما طلع فيها الفجر وامتلأت قططا. تموء كأنما اليوم القيامة. والرجل وامرأته وولداه قائمون يكادون ينشفون هلعًا. صاحت القطة الكبيرة وهي تصفق بيدها: «اسكتوا..!» ثم كلمت المدير بلسان عربي فصيح، «كيف تصيبون بنعالكم القطة في عينها وهي ملك كريم..؟».

قال المدير: «إنها خطفت اللحم من يد الصبي مرة ومرة. إنها ملك كريم. لكنه قضاء وسبق!».

عفت القطة الكبيرة عنه وأخذت القطاط وانصرفت.

عمتي تفرغ الشاي في الأكواب فتخطئها. قصدت مهندس الزراعة ليعمل عملها. شربنا في صمت. ثم استأذنا. كل عام وأنت طيبة يا عمتي. وانصرفنا. مشينا أنا وعمي. ذراعانا متشابكتان ورأسانا لم تقتربا، ثم أهل علينا جماعة من البنات مزينات بالترتر على الثياب الجديدة والعيون والخدود. قاربت رأسي من رأس عمي. قلت:

«أرأيت..؟» قال لي: «اسكت..!» وسكت وعادت رأسي لمكانها، ثم تركت عمي عند داره ومشيت إلى داري، صعدت إلى الدور الرابع أطل من شرفتي. الوقت أصيل وشمس المغارب تبرق على السقوف وقريتي تملؤني غموضًا.

١٩٩٠/٥/١

من نوادر ذي الأطمار

مشى الولد على آثار أبيه، والنهار ما زال متحجبًا خلف ستائر ليلية شفيفة، والأب يقصد دار صاحبه في الرحلة إلى سوق طنطا. الولد يسأل أباه: «كيف تصحب هذا الرجل النتن مثل جيفة في مشوارك للسوق». قال الرجل لابنه: «إن هو إلا ابن أختي، فكيف أنكر قرابته؟» قال الولد لأبيه: «إن أمه ليست بأختك» رد الأب: «إنها بنت عمي، هي مني بمنزلة الأخت!» قال الابن لأبيه: «إنه يلبس جلبابه ولا يسلمه للغسل أبدًا حتى يتمزق ويسقط من على جسده أطمارًا!» رد الأب: «إنه بلاء خص الله به عبدا من عباده!».

وهما في هذا انفتح الباب وخرج الرجل في أطماره، لكن وجهه يسبق النهار ويشرق في قلب غبشة الفجر، استأذن الخال وابن أخته من ابنهما ومشيا طالعين على سوق طنطا. طلعت الشمس عليهما وهما في وسط زحام الخلق من كل الأمم. كل تاجر، وكلٌّ حافظته ممتلئة، ونيته على الشراء أو على البيع حاضرة في اشتجار الفصال والمساومة.

الرجل ذو الأطمار يضحك، يأخذ دوره في العراك على المكسب ويضحك حتى إذا نزل به رجل يلومه على بيع له في جاموسة عزيز لبنها. قال له الرجل ذو الأطمار: «إني كنت قلت لك لا تبع رضيعها، إنها لا تجود بلبنها إلا على فصيلها!» قال له الرجل: «نعم ـ أي نعم. أنت قلت لي ذلك وأنا بعت فصيلها، وأنا المخطئ!» وخرجا من السوق: ذو الأطمار وخاله، لم يصبهما حظ الشراء.

فإذا بالخال يصرخ ويداه تتحسسان جيبه، صرخ ملتاعًا: «إنني فقدت حافظة نقودي آه يا عالم..! آه يا مالي..!» فإذا بذي الأطمار يفزع على فزعة خاله ويقول له: «على مهلك يا خالي، اصبر يا خالي إن الله مع الصابرين!» ثم بدأ يرفع صوته صائحًا «يا ناس يا خلق الله. يا من تعلمون بحالي. ويا من لا تعلمون به. إن حافظة نقودنا ضاعت، الآن هنا. ردوها عليّ يا خلق الله..!» فإذا ما انتهى من كلمته طارت حافظة نقود خاله في الهواء، تُحَلِّقُ ثم تقع على الأرض تحت أقدامهما والخال يكاد يفقد وعيه من فرط دهشته.

قال الرجل لابن أخته ذي الأطمار: «قل لي يا بن أختي، ما سرك وما علاقتك وما هي الكرامة التي سخرتها لاسترداد حافظة نقودي؟» قال ذو الأطمار لخاله: «إن لذلك حكاية عجيبة أحكيها لك في طريق عودتنا إلى بلدنا!».

ذلك أنه مرة كان في سوق طنطا مثل عادته كل يوم إثنين، إذ باع جملاً وقبض ثمنه ألفاً، صر النقود في منديله وخبأه في طيات هدومه، وخرج من السوق، لكنه يحس بعيون تبرق تتبعه ولا تخطئه من بين عيون زحام الخلق، إنها عيون السراق تحوطه، يميل في طريقه فيميلون معه، يعتدل على السكة يعتدلون معه، قال آه يا أولاد. سيضيع مني ثمن الجمل.

مال على رجل يبيع شطائر الجبن واللحم في عيش أبيض طويل ملفوف، قال ذو الأطمار للبائع: «يا عمي السارق في أعقابي، ومعي ألف، هي في ذمتك حتى آتيك من غد..!» قال الرجل: «إنني إن مت، مت وفي ذمتي لك نقود أتعذب بها عند الله..!» قال ذو الأطمار للرجل البائع: «سترك الله. فقط أعطني يا سيدي رغيفاً، وشقه لي بسكينك، وتوار حتى لا يراك الناس وأنت تضع الألف في قلب الرغيف، ولفه لي في ورقة وأعطه لي..!».

ثم مشيت والرجل السارق يده تتحسسني، تجسني، تقلب في وتبحث في هدومي حتى إنه خلع تقيتي ونظر فيها، ولما لم يجد فيها شيئًا وضعها على رأسي، وركبت القطار وهو ورائي، ووصلت إلى قريتي والرجل لا يفلتني حتى شارفت داري. قلت للرجل السارق: «هذه داري هل تتفضل معنا؟» فإذا بالرجل اللص يمسك بيدي ويقول لي: الله يكرمك. ويستر عرضك. أنا اشتريتك من زملائي بمائتين حتى تخلص لي سرقتك، وأنا أستعوض الله في نقودي. فقط أريد أن تقول لي أين خبأت مالك. وإذا أطلعتني على سرك لك عندي كرامة. إذا ضاع منك شيء تقف في المكان الذي ضاع فيه الشيء وتنادي. يرجع لك الشيء في التو واللحظة. الآن قل لي يا سيدي أين خبأت مالك؟». قال الرجل ذو الأطمار للرجل السارق: «الله يخليك من أجل الكرامة التي خصصتني بها. وأنا أقول لك الآن. هذه نقودي. في رغيف عيشي..!».

١٦/٥/١٩٩٠

فخاخ العيون الجميلة

أنا كاتب. كتبت عددا من القصص صادفت قبولا من القارئين وتشجيعا من النقاد، وأحسن استقبالي في كل مجمع يضم المثقفين والناس اللامعين وكان حظًا. وكنت أعود كل مساء راجعًا إلى بيتي في شارع قطر الندى في حي «إمبابة» وتحت إبطي لفة من الكتب والمجلات، وفي قلبي بقايا أنس الأحاديث. نعم البيوت علت في الشارع وبقي قاعه معتما، والمداخل إلى المساكن بقيت دامسة الظلام، والسكة موحلة زلقة في كل الفصول، بما تكب النسوان فيها الماء الوسخ، يخرجن بالدلاء من الأبواب، لكن ابتسامهن، وحسن العيون، وتزاعقهن، وذيول الضحكات تنير. يعلمن بأن كلماتي تنشر في الجرائد وصوري. يصبِّحن عليّ، والمساء بخير.

في المساء نقعد قدام التليفزيون، أنا وأمي وأخواتي في ضوء المصباح الكهربي، تلمع العيون السوداء ببريق السرور، ونحن متكئون على الأرائك ونبصق قشر اللب على البلاط العاري. نغرق في الضحك حين الفصول الفكهة ويعلو صوتي مشيرا للممثل: «أنا أعرفه. يقابلني في المجالس. يطري كتابتي كل مرة..!!» تطرف ناحيتي أزواج العيون. لما قلت مثل ذلك على الممثلة المقتدرة، رنت في عيون أمي وأخواتي لمحة من عدم التصديق. إنها ممثلة مجيدة يطاوعها جسدها في فنها، يبقى مأمورًا بكلمات دورها، يطول ويشمخ يتثنى ويتأود، وذراعاها تتواتران وتلينان مع دفق المشاعر، دفق الإيقاع للحن تحت سلطان العبارة، تشير بيدها حيث اتجهت عيناها، بكل السحر في عينيها، تعبر بهما عن الازدراء والكراهية والترفع، وتلتوي أي فتنة تبدو. آه لو كتبت ما تقوله بكيانها العذب.

في ظلمة غرفتي أرقد ولا تغمض عيناي، لا تريان إلا لعب الشخوص من قصص، وإلا الممثلة القديرة، تتكلم بكلماتي. يقول لها الأب: «أسريت إليك هدأة المساء، وانصرفت عنك في الهزيع الأخير، يوما بعد يوم بعد يوم. وفيما بين ترقبك قدومي عليك، ونظرك في أعقابي منصرفًا، عنك، فيما بين الوقتين وقت ثالث عشت فيه الحياة غير مفروضة ولا مسنونة، غير مكتوبة ولا مشروطة، غير مبتسرة وغير منتقصة من أطرافها، يوما بعد يوم بعد يوم. تخففت فاستطعت فرأيت، دهشت وعجبت وسررت ثم نظرت كأن ذلك بعض موتي، لك وبك يا حبيبة». وتتكلم هى، هي الحبيبة: «لكنني الليلة جربت وقتًا ثالثًا، لا هو ترقبك قادمًا ولا هو وداعك مفارقًا. وقت آخر، لا يؤذن به مؤذن ولا يحدثه تعاقب أفلاك، يستطيل ويعرض، وتتلاطم أمواجه، تأخذني بالظلمة والرعب، لا أعرف شطا ولا قرارا، أموت وأموت،

لأعاني بلا نهاية الهول الكائن بين البقاء والفناء».

وينتهي حلم المساء ولم أنم، مفتوح العينين تأخذني الرعدة، بارد الأعضاء غارقًا في عرقي. كتبت المسرحية، أخذتها للناس، قالوا إنها جيدة، حررتها في لفة أوراقي تحت إبطي وذهبت إلى السيدة في المسرح، وكانت جالسة في صفوف المتفرجين. أنظر، لقد استدارت الخشبة، حيث جلست. أتطلع إليها في علوها، والناس جميعًا، وهي مضوأة بذاتها، قلت لها: «إنني كاتب..!» قالت: «أعرف!» قلت من عمق السحر الذي أودى بي بإشارة بنانها وبسمة ونظرة: وكتبت مسرحية! قالت: «تعال. اقرأها لي. أنا أسكن في الجزيرة!».

أعطيت ظهري للنيل، ومضيت نحو البناية. في المدخل خرج عليّ ناس، كل فجوة أبرزت رجلاً مشدوهًا يتأملني مذهولاً. قلت: أريد أن أرى السيدة! حصل الذعر في الجماعة، يتنادون، يزعقون، يصرخون، يجرون في كل اتجاه، حتى ظهر زوجها. قال: «ماذا!» رجل أبيض بشع الخلقة قلت: «أقرأ لها مسرحيتي!» التوت شفتاه بمنطوقه. قال: «خذ ورقاتك وامض» والتأمت حولي الحلقة من أنفارها يوحّد ملامح وجوههم الإصرار. مشيت محروسًا بغضبهم حتى خرجت.

١٩٩٠

سيدة وحيدة

نحلت حتى بدت كأنها مرسومة على ملاءة السرير، والرسم بالشحوب إلا من رفة أسيانة عميقة السواد في عينيها، والشوق في ارتجاف باهت على الشفتين، والظلال هنا وهناك، ثم تعتم حتى تصل إلى الدكنة، فتتنهد هي، تعرف امتلاء القلب في أنفاسها.

تسمع صوت الرجلين في مستراحهما، وقد دثرت لهما الحشايا وزينت الغرفة بالنور لهما ـ الرجلان ـ ومدت حلو الطعام وما يروق من شرب. يزدهيان الآن بالنعمة، وينتشيان، ويبدو على كل منهما كل لون. تصفو الأصوات تحملها إليها ضحكاتهما مترقرقة متوثبة من قلب ابتهاجهما ـ الرجلان ـ آه لو يدوم مجلسهما أبدًا، والود، إن ذلك يحمل أملا. لكن وشيك تصرم فرحة المساء. اضطرب الرسم بالشحوب على ملاءة السرير من تندي العينين بالدموع.

وكان لهما شأن مع كل بدء، يضطربان بالبدء، يطيران فوقه يريدان أن يتجاوزانه، يجريان في البيت وهي معهما في أول المساء لا يحوشهم باب، الحيطان شفت عن الأصوات وعن روائح الطبيخ. مباهية بما طبخت، تضحك. يخطفون الأشياء، والخزائن مفتوحة والسلال. يملئون الأطباق حتى يصير الكمال سمة المائدة، وزينة سيدة الدار. مباهية بما ارتدت، والزواق. يجلسون ثلاثتهم، ثلاثة وجوه تبرق، الفرحة في العيون وفي لؤلؤ الثنايا، ويتشرب الاسمرار برائق السرور. الرجلان. تحبهما، رجلها والرجل.

في ذلك المساء أسرعت إلى هنا، طارت إلى مخدعها هاهنا، خفت بما يعمر الجسد من ظنون فرحة. خلعت عنها ثيابها. مشت إلى الصوان محلقة عن قدميها. هل يختار هجس المساء ثوب المساء؟ ويحسن الاختيار؟ بأن جسمها في المرآة. سُرّت بما رأت. ظلت تتأمل، وتميل وتنثني وتتأود، وسعادتها ترسم الصورة في المرآة حتى رأته ـ الرجل ـ كأنما ندهته لها الأشواق، أشواقها المبهمة، المستحيلة. أشواق سحيقة. وجاءها.

في نسيانها أغمضت عينيها، في ظنها أسلمته كيانها، ينفطر عن دفق الرغبة. لحظات قصار دامت في الفكر طويلا. فتحت عينيها لتجد وجه الرجل غارقا في الذهول، يعذبه النكوص، وهي على هذا الحال، وهو لم يفعل. أفاقت. رفعت يديها لتذود عينيه عنها. الرجل استدار وخرج. مضى. تركها تستر نفسها بالثياب، تحكمها على نفسها، وتتأمل الصورة في المرآة، تسأل: أيكتم الثوب الأسرار؟

مشت إلى مستراحهما في الغرفة القصية، إنهما الرجلان، وأحدهما يعرفها بالزواج، والآخر عرفها بما رآه خلسة وعلى ذات فجأة، تقضي معهما المساء المكرس للمتعة.

أيظن زوجها بها الظنون؟ أيأمل صديقه منها شيئًا؟ المساء صاخب بالضحك والزياط، وتحت الضجة تضرب الأحاديث المهموسة حتى لا تدركها الآذان ولا الأفهام. أحاديث تحدس الوهم وتجسد منه الحقائق. يثقلها رجم الشكوك حتى تكاد تختنق، فاستعفت وقامت إلى مخدعها، جاءت إلى هنا واستلقت، حيث هي الآن راقدة، الشحوب ممدد. أسبلت جفنيها، وسحَّت من العينين قطرتي دمع.

جاءها الرجل في عملها. لما رأته غشَّاه عليها غشاء من رقيق العبرات. إنه الذي يعرفها. فرحت به، وخافت منه، ورحبت. لكن وجهه غارق في الذهول، يعذبه النكوص. رفعت يديها لتذود عينيه عنها. لكنها رجعت، رحبت، لزمت الأدب. الرجل في ضيافتها قدام زملائها في عملها. حادثها مجاملا وهي أحسنت الرد. ثم قام خرج، مضى وتركها تتألم لفراقه.

وفي المساء ـ بعد مسائهما ـ جاء رجلها إلى هنا لكي ينام. تنصت لتردد أنفاسه، تنصت للأحاديث التي تجري من تحت صمتها في فراشهما، هويتهما وهى تدفع عن نفسها غيلة الشكوك. عبرت المسافة التي تفصل بين جسديهما، الصمت عميق، التصقت به. مدت يدها العالية إليه. أراحت كفها ـ رقيقا وسيما ـ على صدره يتحسس، يغرق في كثيف الشعر ـ خشنًا ـ تموجت يدها بين الخصل والدفء، برفق وقعت يده ـ كبيرة محيطة ـ على يدها، قبضت عليه، رفعتها، أبعدتها. من ثم تكونت المسافة بين جسديهما، وكان أن رقد الرجل بينها وبين زوجها. الشحوب مستلق، أرق على ملاءة السرير، يتحسس الخيال الراقد جنبها، تحس بدفئه، يغريها وجهه الحافل بالتردد، ترق له وتبكي.

وإذن جاءها الرجل في يوم عطلتها وهى وحيدة في بيتها مشغولة بالترتيب والزينة وقد تخففت وتتبدى الأعضاء بآثار من العرق، وتسرب النسائم تجفف وتنعس، تريد أن تُحَلِّق، تطير على طرفي قدميها، يسمق الحس في القوام، لكنه طرق الباب، وهي فتحت له وهي هكذا متخففة. قال لها: «أحبك..!» وعيناه طائرتان تائهتان. هكذا استراحت في حضوره المتسم بالغياب. قالت له حالمة كأنما تحادث نفسها: «إنني مملوكة بالزواج..!» قال لها: «إنني أملكك بالحب» وعلى وجهه صفرة، همس: «تعالي إليّ». وجاوبته: «لا أستطيع..!» قال لها: «قد رأيت شوقك في المرآة..!». تعذبت بالرحمة

له قالت: «لا. يا سيدي..!». قام. أدار لها ظهره وكلمها: «تحنثين في عهدك للحب وهكذا للزوج». ارتسم شموخه في قلبها وهي تسمع: «إنني قادم هذا المساء، وكل مساء. كأنما لم تكوني أبدًا...!».

وفي المساء ـ بعد مسائهما ـ يرجع رجلها إلى هنا لكي ينام. وجهه بسّام بالمتع. كم ضحكا ولعبا في سهرهما، ويأتي إلى سريره يغرق في النوم، نوم غير مؤرق بالأحاديث والظنون. وتبقى هي يقظانة. سيدة وحيدة. آه لو يدوم مجلسهما أبدًا، إن ذلك يحمل أملاً. في أي شيء؟ تقلّبت على الملاءة، وستر ليل شعرها تفاصيل ملامحها.

١٩٩٠

إحدى القضايا

في محكمة مصر الجديدة الجزئية زحام من الخلق، متقاضون ومحامون وشرطة وكتبة وباعة وأفراد غامضون، ما إن يدخل الواحد من باب على جانبيه عمودان شاهقان حتى يميل يسارا، يتحذر في مشيته كيلا يصدم الناس، وهم يتّقونه بالأكتاف، وزعيقهم غلاب حتى ما يسمع الواحد حديث رفيقه، وروائحهم وعطورهم وعرقهم، والتبغ سحبه تطير فوق الرءوس، تطيرها كلمات زاعقة وضحكات منكسرة، ونهنهات وسعال ولعنات. من جدول القضايا عرفت السيدة أن دورها سيأتي عند الرقم سبعين. القاعة غاصة بالنساء مطليات الوجوه، والرجال في ثياب خلقة، كل زوج منهما ـ رجل وامرأته ـ يشغلهما هم خاص ونزاع، لكن القاعة يرين عليها الصمت إلا من نحنحات وهمسات مكتومة وصوت تقليب الأوراق.

على المنصة قاض يقلب في مستنداته بسرعة وغضب، والحاجب يسند مرفقه على منصة القاضي وينادي على الأرقام. قدام هيئة المحكمة يقف المحامون والمتنازعون يكادون يحجبون الهيئة عن الجالسين. تشرد السيدة تفكر في أمرها، تتذكر وجهها في مرآة الصبح. كان وجها وسيما، إلا من تجعيد هنا وهناك. صراخ القاضي أفزعها، فأصرت على الطلاق.

أمها وجه يغرق في التوسل إليها: «لا تطلقي زوجك يا بنيتي!» وأبوها وخالها قالا لها: «الطلاق حرام يا بنيتي!» وهي الآن سوف تتحرر منه إلى الأبد. أصرت وما زالت مصرة. شملتها الفرحة بالخلاص، تغطي على رعدة خفيفة غرقت في تيار الفرح. القاضي يطل من بين أجساد الواقفين قدامه، عيناه الحولاوان لا يعرف الواحد من تصيبها بالنظرات، لكنه صرخ في الحاضرين وهي لا تعرف من يقصد، قال: «ارم السيجارة يا هذا الذي تدخن هناك!» دارت بعينيها تبحث عمن يقصد، إنه يقصد زوجها الذي ستطلق منه حالا، وجهه أبيض من التحرج والمهانة. يا له من رجل هزل في أيامه الأخيرة، وجهه مستطيل وعيناه غارتا، ألقى سيجارته على الأرض وسحقها بقدمه، حولت وجهها عنه والتفتت إلى الأمام، وغرقت في كآبة وحيرة واستعصاء الفكر، تمنت أن تدخن سيجارة، لكن هذا القاضي هناك.

جاء دورها هي وزوجها، وقفا قدام المنصة وبينهما المحامون، بدأ القاضي دورة غضبه يصبها على أول من يصادفه بالسؤال. سأل زوجها: «هل كنت تدخن في قاعة الجلسة؟».

قال الزوج وهو منهك خفيض الصوت: «إنني لم أكن أعرف أن ذلك لا ينبغي، هذه أول مرة أحضر فيها قضية!» قبل أن يتم جملته انقض عليه القاضي بسؤاله التالي: «ما اسمك؟ ضابط في القوات المسلحة. لِمَ لمْ ترتد ثيابك الرسمية، قدمت استقالتك؟ لماذا إذن تحتفظ ببطاقتك العسكرية؟ إنني أستطيع أن أسجنك بهذا..!» وإجابات الضابط تعجن في أسئلة القاضي، يرعد هذا بكلماته والآخر همساته غائرة تكاد تستحيل إلى لهاث، قال: «إنما أحتفظ بالبطاقة حتى ينتهي أمري فأسلمها!» فصرخ به القاضي: «لست أهلا لحملها، وهذا معاقب عليه!».

والسيدة ترى زوجها على قدر من سوء الحال، وحال من الهوان، قالت للقاضي: «إننا يا سيدي هنا لنناقش أمر طلاقنا، فلماذا لا تمضي بالأمر إلى مساره؟» فصرخ بها: «ألا يمكن أبدًا أن أتحقق من شخصية المتنازعين؟ وأحاسب من يحمل بطاقة لا يستحقها؟» فصرخت به تجاوبه: «ناقش طلاقي يا سيدي ولا تهدد السيد بالسجن أيًا ما كانت البطاقة التي يحملها!» لوّح القاضي بيده عاليا وقال لها: «أنت تدافعين إذن عن خصمك في القضية يا سيدتي..؟» فدقّت السيدة على المنضدة بقبضتها وتكلمت في وجهه حتى لفحته أنفاسها: «لا بأس عليّ إن دافعت عنه إذا كنت أنت قد آذيته!» فضحك القاضي ضحكة مفعمة غضبًا وثورانًا، وقال لها: «تعطفين على خصمك وتميلين إليه؟» احمرّ وجه السيدة وفاضت الدموع من عينيها، وقالت: «نعم إذا كنت تؤذيه!» قال لها القاضي: «إذن لا حل للخصومة بينكما؟» ثم رفع سبابته وصوبها إلى وجه السيدة: «إنني سأشطب القضية من الجدول» فانفجر غضب السيدة وتصاعدت نهنهاتها حتى ملأت القاعة، قالت له: «افعل يا سيدي. افعل يا سيدي..!» مال القاضي على كاتبه وكلمه أن يشطب القضية، ثم نظر للسيدة شمتانا: «هل رأيت..؟» فقالت له: «نعم رأيت. لقد رأيت!» فقال لها: «خذي زوجك واذهبا..!» مدت السيدة يدها وقبضت على يد زوجها وقالت للقاضي: «نعم سأفعل» وطاوعها زوجها.

١٩٩٠

المحتويات

الأشواق والأسى 5
قريتي 6
الصندوق 12
ليلة شتوية 17
السفر 22
الخوف القديم 30
غسق 33
الصفارة 39
الخوف 42
في ذلك اليوم 45
الهجرة إلى غير المألوف 59
الصوت 60
عطية أبو العينين داود 63
طبلة السحور 71
الظنون والرؤى 84
القضية 85
تحت السقوف الساخنة 90
عن البنات 106
شجرة الحبِّ 120
الموت والحياة 127
حكايات حول حادث صغير 147
البيع والشراء 163
ديوان الملحقات 182
جدل العنف والوهن..! 183
واحد من أهل الله 185
انتصار 187
حالات الجسد 189
ترديد ألماني 191
الذبح. والذبح أيضًا 193
مطر...! 195
الجراحة..! 201

السرى بالليل..!	208
جدل الحياة والموت...!	214
الديوان الأخير	**225**
العقاب	226
حديث المساء	229
صانع القهوة	232
ليلة رأس السنة	234
قفز وراء السنين	242
رقوء الدمع	244
صباح عيد	246
الكرم الريفي	249
حنان الأرض	251
عن المقام	253
الأعرج	256
مذاكرة	258
محكمة القطاط!	260
من نوادر ذي الأطمار	263
فخاخ العيون الجميلة	265
سيدة وحيدة	267
إحدى القضايا	270